

أيام محمد علي

عبقرية الإراده.. وصناعة التاريخ!!

A.M.

عصام عبد الفتاح

Mon.

Mon.

31/12/2012

Riyadh

كلمة الناشر

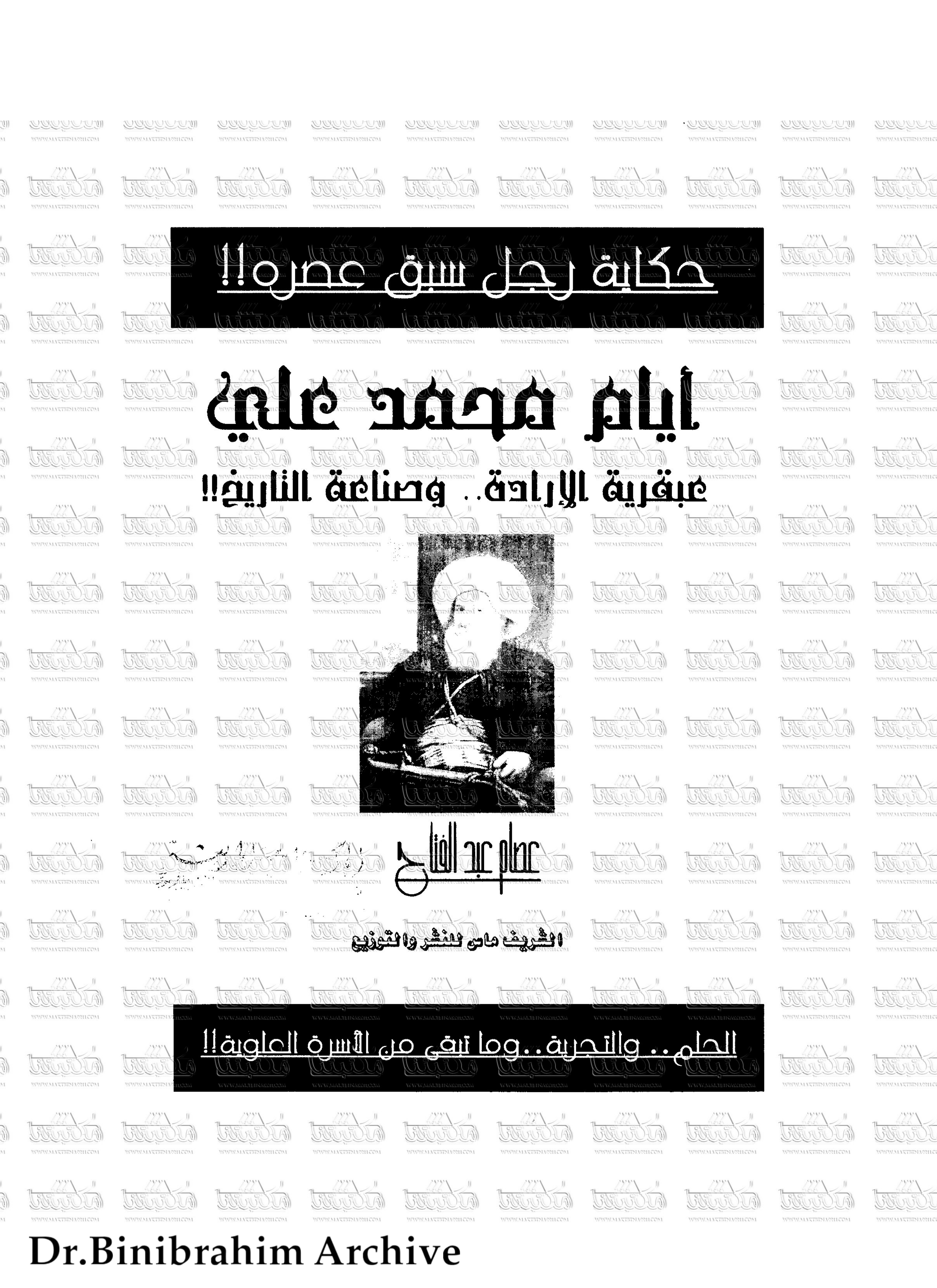
إنه (محمد علي) .. أحد أهم معضلات التاريخ المصري الحديث .. وأكثر أسماءه إثارة للجدل .. و الاختلاف .. بين من يرفعونه لعنان السماء ذكراً .. و اسماً .. و ينعتونه بأنه باني مصر الحديثة .. وبين من يقولون أنه كان أهم معاول هدم الكيان الإسلامي للدول العربية .. وأن دول أوروبا و الغرب استخدموه ك (مخلب قط) للقضاء على الطفرة الدينية التى ظهرت على أيدي الوهابيين في شبه الجزيرة العربية .. و الإجهاز على الخلافة الإسلامية في الدولة العثمانية .. و إجبارها على دخول نفق الاحتضار التاريخي .. لكن نقول نحن من خلال هذا الكتاب ما لايختلف عليه اثنان .. سواء من هذا الفريق .. أم ذاك .. وهو : كم كان هذا الرجل عبقرياً .. وهو يأخذ بأيدي شعب .. و أمة من نير ذل المماليك .. و تلاعبهم بأقداره .. ونهب ثرواته .. إلى سماء التحضر .. و بنى لها بعبقريته الإدارية الفذة جسر التواصل مع الحضارة الإنسانية .. وعودتها بعد قرون من الغياب لتتواصل مع حاضرة الزمان .. و سؤال آخر نجيب عنه من خلال هذا الكتاب .. و هو ماذا تبقى من تجربة محمد على .. و الأسرة العلوية ؟..

Happy New Year

EL-SHERIF MASS
Publication & Distribution

١٦٥ ش محمد فريد - الدور الثالث - وسط البلد - القاهرة
تليفاكس : ٢٣٩٠٠٨٦٧ (٢٠٢)
محمول : ٠١٠٠٧١١٢٧١٢ (٠٢) - ٠١٠٦١٢٠٨٤٤٧ (٠٢)


978-977-5053-04-6


حكاية رجل سبق عصره!!
أيام محمد علي
عبقرية الإرادة.. وصناعة التاريخ!!
عصام عبد الفتاح
الشريف ماس للنشر والتوزيع
الحلم.. والتجربة.. وما تبقى من الأسرة العلوية!!



لا إهداء..

إلى كل حاكم ظالم..

حكم هزا الوطن ونهب خيراته بلا وازع من دين أو ضمير..

مصر تبقى.. ويزهب كلُ الظَلَمةُ والطُغاةُ

إلى مجاهل التاريخ..

عصام عبد الفتاح


محمد علي باشا
علم أنت في المشارق مفرد
لك في العالمين ذكر مخلد
حبذا دولة وملك كبير
أنت باني ركنيهما يا محمد
ولواء في البر والبحر يعطي
مظهر الشمس في الوجود وأزيد
أحمد شوقي

المقدمة

أحب «محمد علي» مصر.. فأحبته..

وأعطاها.. فأعطته..

وحلم لها بالخير كله..

فكان هو الصانع الحقيقي لتاريخها الحديث.. وكانت هي سُلم المجد بالنسبة إليه هو وأحفاده.. وأحفاد أحفاده على مدار قرن ونصف من الزمان.. أو تحديداً ١٤٨ عاماً من ١٨٠٥ إلى ١٩٥٢..

وقد فاقت إنجازات «محمد علي» كل إنجازات الرومان.. والإغريق.. والبيزنطيين.. والمماليك.. والعثمانيين أثناء فترات حكمهم لمصر.. وذلك لأنه كان يتميز عنهم جميعاً بشيئين..

أولهما: شدة طموحه..

وثانيهما ـ كما قلنا ـ وهو الأهم: شدة حبه لهذا البلد.

فحققَ لمصر الكثير.. وَحَدَها اجتماعياً.. شعر المصريون معه بكيانهم.. وجعلهم يشاركون بشتى طوائفهم في تحديث بلدهم.. والعمل على النهوض به معتمداً على موارده وخيراته الأساسية.. دون أن يمد يده لبلدٍ آخر يستدين منه.

لم يلجأ للبلدان الأخرى إلا من أجل سلاح العلم فقط.. ذلك السلاح الذي آمن «محمد علي» به وبأهميته فأرسل البعثات تلو البعثات لفرنسا وغيرها من الدول الأوروبية.. وفي نفس الوقت لم يُغلق أبواب مصر.. بل فتحها على مصراعيها لكل وافدٍ.. وانفتح على العالم ليجلب خبراته لتطوير مصر.. ولأول مرة في عهده عرفت مصر ما يُسمى تاريخياً بالتعليم المنهجي المبنى على أُسس علمية.. فأنشأ المدارس المتخصصة ليلتحق خريجوها بالجيش.. وأوجد زراعات جديدة.. وبنى المصانع.. واعتنى بالري.. وشيد القناطر الخيرية على النيل عند فرعي دمياط ورشيد..

واهتم أيضاً بالصناعة التي تطورت في عهده تطوراً كبيراً.. وأصبحت حركة التصنيع من أهم أعمدة الدولة حتى لا تعتمد مصر على جلب احتياجاتها من الخارج.. وحتى لا تقع تحت رحمة الدول الكبرى.. خاصةً أنه تنبه من البداية إلى كون معظم الخامات المستخدمة في الصناعة كانت موجودة بالفعل في مصر فضلاً عن توفر الثروة البشرية والتي تمد كل تلك الصناعات بالأيدي العاملة التي تحتاج إليها بوفرة..

ومع توالي تأسيس وبناء المصانع سواء الحربية أو غيرها اتبع «محمد علي» سياسة خاصة للنهوض بهذه المصانع بدأها أولاً باستقدام الخبراء والصُناع المَهَرَة من الدول الأوروبية لتخريج كوادر مصرية من رؤساء وعمال وصُناع وفنيين.. وبالتدريج بدأ عملية إحلال وإبدال للمصريين محل الأجانب..

وكان «محمد علي» يتكلم بحماس نادر عن عِظم شعوره بالحب لهذا البلد.. ولأهله.. وفي أحاديثه الخاصة والعامة كان يتباهى بهذا الحب.. ويذكره كثيراً.. وتروى كُتب التاريخ أنه ذات مرةً كان يتحدث مع أمير ألماني يُدعى «يوكلر موسكو» عندما قال له:

« يجب على أن أتغلب على صِعابٍ شديدة.. وفي سبيل هذا أشعر أنني مرتبط بهذا الوطن الجديد الذي اتخذته مقاماً لي.. ولن أعرف الراحة ولا السلام إلى أن ابعث هذه البلاد التي ظهرت لي طفلاً صغيراً مُعدماً.. عارٍ.. وحيد.. استسلم للنوم العميق منذ أجيال.. سأكون لها كل شيء.. سأكون أباها وأمها.. وسيدها وخادمها.. ومعلمها وقاضيها.. وكثيراً ما فكرت فيها وأنا متكئ على وسادتي سائلاً نفسي: هل أستطيع وحدي أن أتعهد بأمرها وكسوتها وتعليمها فتشبُ وتنمو كالطفل؟ إنني أشك في نجاحي.. بيد أنه بالرغم من كل صعب سيحقق الله آمالي.. وإليه أدين بالنجاح جلت قدرته.. أن العظمة في متناول جميع الأمم.. كما أن الظُفر مُحقق لكل الجيوش إذا وُجِدَ الرجل الذي يقودها ويعرف السبيل التي يسلكها»..

ولا شك أن محمد علي باشا كان رجلاً طموحًا إلى حد الهوس.. يحلم بتكوين إمبراطورية كبيرة على غرار أقوى الدول الكبرى في التاريخ.. وكان صاحب توسعات وأفكار استعمارية لا تعرف حدوداً ولا يبالي بأي شيء يقف في طريق طموحاته..

فهل كان بكل تجربته . وكما تقول بعض الكتابات خاصةً الغربية . بأنه كان مجرد أداة تمكنت من خلالها الدول الأوروبية من استغلاله ونفخت في بوق طموحاته من أجل ضرب الدولة العثمانية وإضعاف الأمة الإسلامية.. وعندما رغب محمد علي في ضم بلاد الشام إليه.. هل كان كل هدفه فقط معاقبة والي عكا «عبد الله باشا الجزار»[1] الذي آوى التجار الفارين إليه من مصر إلى الشام والذين لجاءوا إليه هربًا من الضرائب الفادحة[2] التي فرضها عليهم محمد علي ورفض الجزار إعادتهم.. فأرسل محمد علي حملته البرية والبحرية إلى الشام بقيادة ولده الشهير أسد الحروب إبراهيم باشا.. ورحبت الدول الأوروبية بهذه الحملة ودعمتها وذلك من أجل ضرب عصفورين بحجر واحد زعزعة استقرار الخلافة العثمانية[3].. واستنزاف قوة محمد علي أولاً بأول؟

وعندها ارتجت الدول الأوروبية كلها من قوة وصعود نجم محمد علي بصورة لم يكونوا يتوقعونها.. خشيت أوروبا من عودة الروح لجسد الدولة العثمانية إذا تولى أمرها رجل قوي مثل محمد علي.. ولربما وقتها سيغيِّر محمد علي ولاءه

---

(١) عبد الله باشا هو غير أحمد باشا الجزار الذي كان والياً أيضاً على عكا خلال الحملة الفرنسية على مصر.

(٢) يذكر الرافعي في كتابه عصر محمد علي: (وفي السبت ٢٥ شهر رجب الفرد سنة ١٢٢٠ هـ - ١٩ أكتوبر ١٨٠٥ حضر أهل رشيد يتشكون إلى السيد عمر النقيب والمشايخ ويذكرون أن محمد علي باشا أرسل يطلب منهم أربعين ألف ريال فرانسة على ثلاثة عشر نفرًا من التجار بقائمة)

(٣) كما سنرى فيما بعد في موضعه من الكتاب اكتسح المصريون بقيادة إبراهيم باشا غزة ويافا والقدس ونابلس وحيفا.. فأرسل السلطان محمود الثاني جيشًا لرد المصريين.. فانتصر عليه إبراهيم باشا.. ثم فتح عكا ثم حلب.. ثم واصل المصريون تقدمهم وهم يكتسحون الجيوش العثمانية الواحد تلو الآخر.. حتى اجتاز إبراهيم باشا جبال طوروس واحتل أضنة وأصبحت أبواب إستانبول مفتوحة أمامه.

ويجعل توجهاته إسلامية خاصةً أنه بطبعه ينزع للاستقلال ويعشق الزعامة لحد الهوس.. وكانت روسيا أكثر الدول تخوفاً من ذلك.. حتى أنها ورغم العداوة التاريخية والتقليدية والعميقة مع العثمانيين.. أرسلت ١٥ ألف جندي لحماية إستانبول.. فخافت إنجلترا وفرنسا من التدخل الروسي وطلبتا من الخليفة ضرورة التفاهم مع محمد علي.

وإذا كانت تجربة «محمد علي» نموذجاً استثنائياً..

فهل التجربة غير قابلة للتكرار..!!!

سؤال يدعونا لتحليل عناصر التجربة لنجد أننا أمام أجواء لا شك أنها يسرت نجاح محمد علي.. ربما كانت أجواءً استثنائية.. أبرزها كانت تتجسد فيما يلي:

- ظهور بعض التوازنات بين مختلف القوى المحلية والعالمية في القرن التاسع عشر.. وميل الدول الأوروبية الكبرى نحو سياسة الاستعمار والتوسع.. مثل الصراع بين فرنسا وإنجلترا لمد نفوذهما إلى الدول العربية؟
- ضعف الإمبراطورية العثمانية الذي أتاح لأحد وُلاتها وهو «محمد علي» الاستقلال عنها وتكوين قوة ذاتية.

ودعم هذا الوضع الاستثنائي تمتع (محمد علي) على المستوى الشخصي بالمميزات التالية:

- طموح شديد للغاية..
- ذكاء أشد..
- قراءة واستفادة شديدة الموضوعية للواقع المحيط..
- حسن تخطيط واستشراف للمستقبل..
- قدرته الإقناعية في التأثير على مشايخ مصر وأعيانها..

فصعد «محمد علي» بفضل كل ذلك إلى قمة السلطة.. وسعى للتخلص من المماليك لتأثيث مملكة وراثية لعائلته.

ولا شك هناك جدلٌ تاريخيٌ معروفاً حول أهداف ما قام به محمد علي من تحديث.. والجدل يدور حول سؤال واحد: هل كان محمد علي يسعى لبناء جيش وطني قوي يسمح بالاستقلال عن السلطة العثمانية ومواجهة الأطماع الأوروبية من

أجل مصر.. أم إلى تأسيس أسرة مالكة قوية تعتمد على بلد مكتفياً ذاتياً يقاوم عوامل الضعف والانهيار في البلدان التابعة للإمبراطورية العثمانية.؟

يختلف المؤرخون حول هذه الأهداف.. خاصة وأن «محمد علي» الألباني الطموح جاء إلى مصر جنرالاً متواضعاً ضمن الجيش العثماني.. يطمح إلى بناء مملكة قوية يورثها أبناءه..

لكنهم يتفقون على أن النتائج الإيجابية لهذا التحديث المبكر في مجالات تطوير الجيش وقدراته التقنية وفي التعليم والصناعة والزراعة أثرت في بناء مصر الحديثة بقوة.. وكانت ملحوظة تماماً.

ونقول دائماً في التاريخ أن العبرة بنتائج الأفعال.. وليس بأسباب السعي إليها.. وسواء أكان محمد علي يسعى إلى مجد شخصي.. أم إلى بناء دولة عصرية.. فالأهم أن مصر عبرت خلال فترة حكمه عبر جسر الحضارة إلى مكانة متميزة.. وخرجت من فترة غفلة حضارية طويلة امتدت لبضعة قرون متتالية.. لتحتل مكانة متميزة على خريطة العالم آنذاك..

واستفادت مصر من تجربة التحديث التي خاضها محمد علي بشكل مباشر من منجزات الغرب الثقافية والعلمية والتقنية.. وأتاحت للبلاد استقلالاً.. واستقراراً اقتصادياً ذاتياً حتى لو لم يكتب له الصمود فيما بعد أمام مطامع القوى الاستعمارية الصاعدة في ذلك الزمن مثل إنجلترا وفرنسا والتكتل الأوروبي المناهض لأي نهضة في بلدان العالم العربي والإسلامي.. وهذا لم يكن بالطبع خطئاً من محمد علي بقدر ما كان خطأ من تلوه في الحكم.

ونعود للسؤال حول قدرتنا على إعادة وتكرار تجربة «محمد علي» ولكن نستأذن القارئ مؤقتاً لإرجاء الإجابة عن هذا السؤال إلى الخاتمة.. وبعد أن نكون قد عايشنا عن قرب أيام «محمد علي» وعشنا معه تجربته.. وأحلامه.. وشاهدنا عن قرب ملامح عبقريته..

والآن: هيا نعيش «أيام محمد علي»..

عصام عبد الفتاح
elbtrawy@yahoo.com

تمهيد



مصر قبل «محمد علي»!!

DAYS Of MOHAMMED ALi

بعد جلاء الفرنسيين نهائيًا عن مصر عاد ليطغى من جديد على ساحة الأحداث نعرات التنافس التي كانت تحكم العلاقة فيما بين المماليك وبعضهم البعض.. خاصةً بعد وفاة «مراد بك»[1] في إبريل عام ١٨٠١ فانحصرت المنافسة على الزعامة في ذلك الوقت بين «عثمان بك البرديسي»[2] و«محمد بك الألفي»[3] ولكن رغم ذلك عمل العثمانيون على تنصيب «محمد خسرو باشا»[4] واليًا على مصر في يناير ١٨٠٢ولكنه فشل في مهمته حيث دار الصراع بين قواته والمماليك.. كما ثار عليه طائفة الأرناؤوط «أي الألبانيين» بقيادة «طاهر باشا» وفي ٦ مايو ١٨٠٣ أعلن العلماء والمشايخ اختيار طاهر باشا «قائم مقام» ولكنه لم يستمر طويلاً حيث تم اغتياله في مايو عام ١٨٠٣ على يد (الإنكشارية)[5].

---

(١) مراد بك من مواليد ١٧٥٠ وهو من المماليك الجراكسة الأصل زعيم سلاح الفرسان والحاكم المشترك لمصر مع إبراهيم بك.. وبعد هزيمته على يد نابليون في معركة الأهرام.. فرّ إلى صعيد مصر.. ومن هناك شن حرب عصابات قصيرة ضد الحملة بقيادة دوزيه لمدة عام.. وفي عام ١٨٠٠ عقد مراد بك اتفاقية سلام مع كليبر.. ووافقت عليها حامية القاهرة.. وتوفي من الطاعون سنة ١٨٠١ أثناء رحلته هناك.

(٢) عثمان بك البرديسي المرادي وسمي البرديسي لأنه تولى كشوفية برديس بقبلي فعرف بذلك واشتهر به كان ظالمًا غشومًا طائشًا سيئ التدبير مرض ومات بمنفلوط ودفن هناك.

(٣) محمد بك الألفي هو أحد أمراء المماليك وهو الذي نازع «محمد علي» حكم في حروب عدة وكاد أن ينتصر وتعاون مع الإنجليز لتسهيل التخلص من «محمد علي» ولكنه توفي إثر مرض مفاجئ ألم به.

(٤) يُسمى في بعض المصادر التاريخية الصدر الأعظم.. وُلِدَ في شمال القوقاز عام ١٧٧٦م وقدم إلى تركيا صغيراً.. وعندما كبر تولى عدة وظائف في الدولة العثمانية وأصبح والياً على مصر في ١٣ جمادى الأول ١٢١٦ هـ / ١٨٠١ واستمر حتى ١٤ محرم ١٢١٨ هـ / ١٨٠٣م أي إلى ما بعد انسحاب وخروج الفرنسيين من مصر.. تولى مناصب أخرى ومنها منصب والي المورة ومنصب قائد البحرية العثمانية.. بعد انقضاء سلطنة السلطان محمود الثاني وتولي السلطان عبد المجيد الأول السلطنة العثمانية تم اختياره صدراً أعظم لوزارته في ٢٥ ربيع الثاني ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩م واستمر في منصبه حتى ٧ ربيع الثاني عام ١٢٥٧ هـ / ١٨٤١ وتوفي في عام ١٨٥٥م في مدينة تيكيرداج التركية.

(٥) لإنكشارية هي كلمة باللغة التركية تعني: (الجنود الجُدُد) وهي طائفة عسكرية من المُشاة العثمانيين كان لهم تنظيمهم الخاص.. وثكناتهم العسكرية وشاراتهم.. حتى أصبحوا أقوى فرق الجيش العثماني وأكثرها نفوذاً.. وأصل الكلمة (ينيجاري) وتُكتب بالتركية (يكني جاري) وتم تحويرها كما اعتاد نطقها الأزهريون (إنكشاري).

وحول عزل (خسرو باشا) يقول المؤرخ المصري عبد الرحمن الرافعي في كتابه (عصر محمد علي):

(ويوم الثلاثاء ١ شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢١٨ هـ - ١٣مارس ١٨٠٤م فيه تقلد علي أغا الشعراوي واليًا على مصر.. وفيه نهبوا بيت محمد أغا المحتسب.. وقبضوا عليه وحبسوه.. وفي ليلة الأربعاء ٢ شهر ذي الحجة الحرام سنة ١٢١٨ هـ - ١٤مارس ١٨٠٤ أنزلوا محمد باشا خسرو وإبراهيم باشا إلى بولاق وسفروهما إلى بحري ومعهما جماعة من العسكر وكانت ولايته شبيهة بولاية أحمد باشا الذي تولى بعد قتل طاهر باشا مدة يوم ونصف.. وكان قد اعتقد في نفسه رجوعه لولاية مصر حتى أنه لما نزل من القلعة إلى بيت محمد علي نظر إلى بيته من الشباك فرآه مُهدمًا مُخربًا.. فطلب في ذلك الوقت المهندسين وأمرهم بالبناء وذلك من وساوسه يقال إن السبب في سفره إخوة طاهر باشا فإنهم قد داخلهم غيظ شديد ورأى محمد علي نفرتهم وانقباضهم من ذلك وعلم أنه لا يستقيم حاله معهم وربما تولد بذلك شر فعجل بسفره وذهابه.. ومن الاتفاقات العجيبة أيضًا أن طاهر باشا لما غدر بمحمد باشا أقام بعده اثنين وعشرين يومًا وكذلك لما غدر المصريين بالألفي لم يقيموا بعد ذلك إلا مثل ذلك.. وفيه صعد عابدي بك أخو طاهر باشا بالقلعة وأقام بها..)

فتولى بعده «محمد علي» قيادة الحامية الألبانية في ١٨٠٣ وكانت مصر في حالة من الفوضى.. فرأى محمد علي أنه عليه التحالف مع «عثمان بك البرديسي» للتخلص من الحاكم العثماني الجديد «أحمد باشا» والزعيم المملوكي المنافس «محمد بك الألفي» وبالفعل تمكن محمد علي من بفضل هذا التحالف من طرد الوالي أحمد باشا بعد أن حكم يومًا واحدًا.

اختلاف محمد علي والبرديسي

وبدأت سلطة محمد علي تظهر في الميدان وبعد حوالي شهر اختلف محمد علي مع البرديسي الذي أحدثت فداحة ضرائبه ثورة في القاهرة.. وانتهز محمد علي

هذه الفرصة لمصلحته.. فانضم إلى المشايخ.. وكسب عطف الشعب وثقة علمائه.. وأمر جنوده بمهاجمة المماليك بالقاهرة فخرجوا منها وذهبوا إلى الصعيد.. ونجح محمد علي بعد ذلك في تعيين «خورشيد باشا»[1] محافظ الإسكندرية واليًا على مصر وكان خامس من تولى ولاية مصر في خلال سنتين.

عموماً استمرت الحرب بعد ذلك سجالاً بين المماليك وجنود الوالي.. ومحمد علي إلى أن ارتدوا عن القاهرة وانسحبوا مرةً ثانيةً إلى الصعيد.. وبعد مطاردة المماليك إلى الصعيد انهار التحالف القائم بين محمد علي وخورشيد..

كان طريقه صعباً

وفي هذه الفترة يهمنا التأكيد على أن طريق محمد علي لم يكن مفروشاً بالورود.. إنما كان مليئاً بالكثير من القلاقل.. لذا عمل محمد علي بكل دهائه وذكائه لينال تأيد العلماء وخاصة نقيب الأشراف السيد «عمر مكرم»[2].

وما أن علم العلماء بوصول فرمان يقضى بعودة الألبانيين ورؤسائهم إلى بلادهم حتى طلبوا من محمد علي البقاء في مصر لما عاهدوه فيه من العدل والاستقامة.. فقبل محمد علي ذلك.. بالرغم من مساعي خورشيد لإقصاء محمد علي عن مصر.

(١) خورشيد باشا حاكم وقائد عثماني.. حكم مصر أواخر مارس ١٨٠٤ ولم يكن مطمئناً لموقف محمد علي.. فأراد التخلص منه لكونه بالنسبة له مصدر خطر لاكتسابه ثقة الشعب فطلب خورشيد باشا من السلطان العثماني استدعاء فرق الألبان والأرناؤوط إلى اسطانبول.. ورفض محمد علي تنفيذ ذلك بتأييد من العلماء.. فطلب خورشيد من محمد علي التوجه إلى الصعيد لإبعاده عن القاهرة كما طلب من السلطان العثماني إرسال فرق عسكرية لتدعيم سلطة الحكم.. فأرسل له السلطان فرقاً عرفت بالدولاه قامت بأعمال نهب وسلب ضد الأهالي. غضب الشعب وزعماؤه وتوجهوا مع عمر مكرم إلي محمد علي لتوليته حكم مصر بشروطهم وغادر خورشيد باشا عام ١٨٠٥ متوجهاً إلى القصير.

(٢) ترجمة كاملة لعمر مكرم في فصل رجال حول محمد علي.

أحوال المصريين قبل تولى محمد علي

عزل خورشيد باشا

في يوم الاثنين ١٣ مايو أجمع العلماء على عزل خورشيد باشا وتعيين محمد علي واليًا مكانه فامتنع محمد علي في بادئ الأمر حتى لا ينسب إليه أنه المحرض على هذه الثورة.. ولكن السيد عمر مكرم والشيخ «عبد الله الشرقاوي»[1] قلداه خُلعة الولاية.. فقبل محمد علي الشروط التي رفضها خورشيد من قبل.. كما أقر بالرجوع إلى هؤلاء الزعماء في شئون الدولة.. وبهذا.. ونزولاً عن إرادة زعماء الشعب أصبح «محمد علي» والياً على مصر في ١٣ مايو ١٨٠٥..

كيف كان يعاقب محمد علي المتمردين عليه؟

الإجابة عن هذا السؤال نحيلها لوصف الرافعي في كتابه.. حيث يقول:

(وفي ليلة الاثنين ٢٣ شهر جمادى الأولى شهر سنة ١٢٢٠ هـ - ١٩ أغسطس ١٨٠٥ م خرج عابدي بك بعساكر الأرناؤد برًا وبحرًا إلى جهة (طره)[2] فالتقى مع من بها من المصريين وكان بها إبراهيم بك الكبير وابنه مرزوق بك وأمراؤهم فقتل من عسكر الأرناؤد عدة كبيرة وولوا منهزمين وحضروا إلى مصر وغرق من مراكبهم مركبان في ليلة الثلاثاء..

وفي تلك الليلة الثلاثاء ٢٤ شهر جمادى الأولى سنة ١٢٢٠ هـ - ٢٠ أغسطس ١٨٠٥ م قتلوا المعتقلين ما عدا حسن شبكة ومعه اثنان قيل أنهم عملوا على

---

(١) هو الشيخ عبد الله بن حجازي بن إبراهيم الشرقاوي «من مواليد سنة ١١٥٠ هـ» وهو أحد مشايخ الأزهر الشريف في القرن الثالث عشر الهجري.. وُلِدَ بقرية الطويلة من قرى الشرقية بمصر عام ١١٥٠ هـ تعلم في الأزهر الشريف وتولى مشيخته عام ١٢٠٨ هـ. كانت له مواقف شجاعة أثناء الحملة الفرنسية على مصر.. قام محمد علي باشا بوضع الشيخ الشرقاوي تحت الإقامة الجبرية في محاولة منه للقضاء على نفوذ علماء الأزهر.. في أيامه تم إنشاء رواق الشراقوة بالأزهر.. له العديد من المؤلفات أشهرها: «التحفة البهية في طبقات الشافعية».. «تحفة الناظرين في من ولي مصر من السلاطين».. «حاشية على شرح التحرير» في فقه الشافعية... فتح المبدي شرح مختصر الزبيدي.. توفي الشيخ عبد الله الشرقاوي في القاهرة سنة ١٢٢٧ هـ.

(٢) هي ذاتها منطقة طرد الحالية.

أنفسهم ثلاثمائة كيس فأبقوهم وقتلوا الباقي قتلاً شنيعاً.. وعذبوهم في القتل من أول الليل إلى آخره.. ثم قطعوا رؤوسهم وحشوها تبنًا ووثقوها في مركب وأرسلوها إلى الإسكندرية وعدتهم ثلاثة وثمانون رأسًا وفيهم من غير جنسهم وأناس جربجية[1] ملتزمون واختيارية التجؤوا إليهم ورافقوهم في الحضور وبعثوا من يوصلهم إلى إسلامبول[2].. وكتبوا في المراسلة أنهم حاربوهم وقاتلوهم وحاصروهم حتى أفنوهم واستأصلوهم ولم يبقوا منهم باقية وهذه الرؤوس رؤوس أعيانهم وأكابرهم.. فكان عُدة من قُتِلَ في هذه الحادثة من المعروفين المنصوبين مراد بك تابع عثمان بك حسن وقبطان بك تابع البرديسي وسليم بك الغريبة وأحمد بك الدمياطي وعلي بك تابع خليل بك ونحو خمسة وعشرين من مماليكهم وأتباعهم ونجا حسن بك شبكة واثنان معه دون أتباعه وباقيهم أشخاص مجهولة فيهم فرنساوية وأرنؤدية ولم يتفق للأمراء المصرية أقبح ولا أشنع من هذه الحادثة وربط الله على قلوبهم وأعمى أبصارهم وغلّ أيديهم..)

❖❖❖

وإذا أمسكنا بنفس الخيط.. وقفزنا زمنياً لنرى كيف استمر محمد علي على نفس النهج في تأديب الخارجين عليه.. سنتوقف هذه المرة عند تأديبه لطائفة الأروام بالإسكندرية.. ويقول الرافعي واصفاً ذلك:

(في منتصف شهر ذي الحجة البادئ بيوم الجمعة سنة ١٢٣٦ هـ ٢٠ أغسطس ١٨٢١ سافر الباشا إلى الإسكندرية لداعي حركة الأروام وعصيانهم وخروجهم عن الذمة ووقوفهم بمراكب كثيرة العدد بالبحر وقطعهم الطريق على المسافرين واستئصالهم بالذبح والقتل حتى أنهم أخذوا المراكب الخارجة من

(١) جمع جربجي.. أي يوناني.

(٢) أحياناً تكتب إسلامبول.. وأحياناً أستانبول.. أو أسطانبول.. وفي كل الأحوال معناها واحد وهي عاصمة الخلافة العثمانية.

إسلامبول وفيها قاضي العسكر المتولي قضاء مصر ومن بها أيضًا من السُفار[1] والحُجاج فقتلوهم ذبحًا عن آخرهم ومعهم القاضي وحريمه وبناته وجواريه وغير ذلك وشاع ذلك بالنواحي وانقطعت السُبل فنزل الباشا إلى الإسكندرية وشرع في تشهيل[2] مراكب مساعدة للدونانمة[3] السلطانية وبعد سفر الباشا سافر أيضًا إبراهيم باشا إلى ناحية قبلي قاصدًا بلاد النوبة)..

❖❖❖

(١) أي المسافرين.

(٢) أي تجهيز.. وإرسال.

(٣) أي التجريدة.. أو الحملة السلطانية.

بورتريه



«محمد علي» بريشة الكلمات

DAYS OF MOHAMMED ALI

الخلاف حول تاريخ ولايته

هناك خلافٌ بين المؤرخين حول تحديد موعد تولي مجمد على ولاية مصر.. البعض يقول أنه عُينَ والياً على مصر في ١٧ مايو ١٨٠٥ والبعض الآخر يقول إن ذلك كان في ٩ يوليو ١٨٠٥.

لكن المؤكد أن الخلاف فقط في يوم وشهر توليه الحكم.. لكن السنة لا خلاف فيها..

كان محمد علي يتحدث اللغة التركية.. إنما كانت لغته الأساسية في الحديث هي اللغة الألبانية.

وكان والده تاجر دخان مات وابنه في سنٍ صغير.. وتربى محمد علي في كنف خاله الذي ساعده كثيراً.. سواء في إلحاقه بالجيش.. وسرعة ترقيه به.. أو في تزويجه من حفيدته المُطلقة «أمينة نوصرتلي» التي سنتحدث عنها لاحقاً.

وكانت المرة الأولى التي يزور فيها محمد علي مصر سنة ١٧٩٩ أي بعد وصول الحملة الفرنسية لمصر بعام.. وكان ضمن القوات اللي أرسلتها الدولة العثمانية لمحاربة نابليون بونابرت.

وحكم «محمد علي» مصر حتى يوم وفاته في ٢ شوال ١٢٦٤هـ الموافق الأول من سبتمبر ١٨٤٨

وتولى «محمد علي» حكم مصر كأول حاكم في تاريخها الحديث يتولى الحكم بناءاً على إرادة ورغبة الشعب بالشكل الذي سنراه لاحقاً..

والآن نتحدث عن..

من هو «محمد علي»؟

ولد «محمد علي» بمدينة «قولة» بمواني مقدونيا في ١٧٦٩ وهو كردي الأصل تعود جذوره إلى مدينة «ديار بكر» عاصمة كردستان الشمالية[١]..

وفي سن الشباب انخرط «محمد علي» في سلك الجندية..

ثم تزوج من «أمينة نوصرتلي» وكانت مطلقة ذات ثروة واسعة وهي التي أنجبت له إبراهيم.. و«طوسون».. وإسماعيل.. ويقال أن إبراهيم ليس ابنه.. ولكنه ابن زوجته من زواج سابق..

تاجر دخان

وتفرغ لتجارة الدخان - وهي تجارة أبيه كما قلنا من قبل - فربح منها وأثرى كثيراً.

عودته للعسكرية

ثم عاد «محمد علي» إلى سلك العسكرية عندما أغار نابليون على مصر التي كانت في هذا التوقيت خاضعةً للإمبراطورية العثمانية.. ودمر نابليون جيش المماليك في مصر.. وفشلوا في الدفاع عنها.. فأمر الباب العالي في الآستانة بتعبئة الجيوش لمحاربة الفرنسيين في مصر فانضم محمد علي إلى الحملة.. كمعاون

(١) بحسب شهادة حفيده الأمير محمد علي ولي عهد الملك فاروق عام ١٩٤٩ وجاء ذلك في مقال بعنوان «ولي العهد حدثني عن ولي النعم...» نشر في مجلة «المصور» المصرية يوم ٢٥ نوفمبر عام ١٩٤٩ بمناسبة مرور مئة عام على وفاة محمد علي باشا.. من خلال حوار صحفي أجراه الأديب الكبير عباس محمود العقاد مع ولي عهد مصر آنذاك الأمير محمد علي.. وأكد ولي العهد على كردية الأسرة العلوية «أسرة محمد علي».. وأن الشائع خطئاً هو أن الأسرة العلوية نشأت على مقربة من قولة في بلاد الأرناؤوط «ألبانيا».. ولكن ما اطلعت عليه في كتاب ألفه قاضي مصر في عهد محمد علي أن أصل الأسرة من ديار بكر في بلاد الكرد.. ومنه انتقل والد محمد علي وإخوانه إلى قولة.. ثم انتقل أحد عميه إلى الأستانة.. ورحل عمه الثاني في طلب التجارة.. وبقي والد محمد علي في قوله.. وقد عزز هذه الرواية ما سمعناه منقولا عن الأمير حليم «أحد أحفاد محمد علي» أنه كان يرجع بنشأة الأسرة إلى ديار بكر في بلاد الأكراد».

لرئيس كتيبة «قولة» مع جيش «القبطان حسين باشا» الذي كان متولياً مهمة إجلاء الفرنسيين.. وقد صل «محمد علي» إلى مصر في مارس ١٨٠١.

الوصول للقمة

استمر الاحتلال الفرنسي لمصر ثلاث سنوات.. وانتهي بالفشل بسبب دعم شدة بأس المقاومة الشعبية المصرية للوجود الفرنسي من ناحية.. ومن ناحيةٍ أخرى بسبب دعم الإنجليز للعثمانيين في حملتهم إلى مصر سنة ١٨٠١.

وبعد خروج الفرنسيين تحطمت قوة المماليك تماماً.. وبسبب ضعف وتفكك العثمانيين دخلت مصر في مرحلة من الفراغ السياسي استمرت حتى سنة ١٨٠٥.

ولم ينتهي الأمر إلا باختيار المصريين لمحمد علي ليكون والياً عليهم بعد ما أثبت قدرته على إقناعهم بذلك.

ولم يجد السلطان العثماني «سليم الثالث»[1] أحداً غيره يستطيع السيطرة على الأمور في مصر فاضطر في النهاية للخضوع لرغبة المصريين.. واعترف بمحمد علي والياً على مصر في ١٧ مايو سنة ١٨٠٥.

شدة طموحه العسكري

عُرِفَ عن «محمد علي» شدة طموحه العسكري.. ورغبته التوسعية.. وإنشاء إمبراطورية مصرية يحكم من خلالها ما استطاع من الدول التي يمكنه بسط سلطانه عليها.. ونجح في ذلك إلى حدٍ كبير.. وكان يؤمن بنفس أفكار «نابليون» من كون مصر مفتاح الشرق.. ومن يسيطر عليها.. يستطيع أن يحكم العالم.. ولا غرابة في شدة إيمان كلٍ منهما بنفس الفكر.. والأهم أن «محمد علي» كان يقدر تماماً نابليون بالشكل التالي..

---

(١) سليم الثالث بن مصطفى الثالث «١١٧٥ هـ / ١٧٦١م - ١٢٢٢ هـ / ١٨٠٨م» هو أحد خلفاء الدولة العثمانية.. تولى السلطة بعد وفاة عمه عبد الحميد الأول سنة ١٢٠٣ هـ وكانت المعارك الحربية مستمرة.. فأعطى وقته وجهده للقتال.. وكان من أصحاب الهمة العالية والمصلحين في عصره.

بين «محمد علي» ونابليون بونابرت[1]

كان «محمد علي» شديد الإعجاب بشخصية «نابليون بونابرت» للدرجة التي يمكننا معها أن نقول أن كان بالنسبة له بمثابة «مثلاً أعلى» خاصةً باعتباره قائداً عسكرياً.. وكان يفخر دائماً بأنه وُلِدَ في نفس السنة التي وُلِدَ فيها نابليون.. أي عام١٧٦٩.

وحول هذا الطرح يقول العالم والمؤرخ الفرنسي «جي فالتون»[2] أن «محمد علي» من شدة إعجابه ببونابرت فكر في وضع خطة لتهريب بونابرت عقب هزيمته في «معركة واترللو» ونفيه إلي جزيرة سانت هيلانة.. هذا ما أكده..

---

(١) نابليون بونابرت كما هو معروف قائد عسكري وحاكم وإمبراطور فرنسا.. وملك إيطاليا.. عاش أواخر القرن الثامن عشر وحتى أوائل عقد العشرينيات من القرن التاسع عشر.. حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلاً عاما.. ثم بصفته إمبراطورا في العقد الأول من القرن التاسع عشر.. بزغ نجمه خلال الجمهورية الفرنسية الأولى.. وفي سنة ١٧٩٩ قام بعزل حكومة الإدارة وأنشأ بدلاً منها حكومة مؤلفة من ٣ قناصل.. وتقلّد هو بنفسه منصب القنصل الأول.. وبعد ٥ سنوات أعلنه مجلس الشيوخ الفرنسي إمبراطورًا.. خاضت الإمبراطورية الفرنسية في عهده نزاعات عدّة خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر.. عُرفت باسم الحروب النابليونية.. ودخلت فيها جميع القوى العظمى في أوروبا.. وأحرزت فرنسا انتصارات باهرة على جميع الدول التي قاتلتها.. وجعلت لنفسها مركزًا رئيسيًا في أوروبا القارية.. ومدّت أصابعها في شؤون جميع الدول الأوروبية تقريبًا.. حيث قام بونابرت بتوسيع نطاق التدخل الفرنسي في المسائل السياسية الأوروبية عن طريق خلق تحالفات مع بعض الدول.. وتنصيب بعض أقاربه وأصدقائه على عروش الدول الأخرى.. شكّل الغزو الفرنسي لروسيا سنة ١٨١٢ نقطة تحول في حظوظ بونابرت.. حيث أصيب الجيش الفرنسي خلال الحملة بأضرار وخسائر بشرية ومادية جسيمة.. لم تُمكنه من النهوض به مرة أخرى.. وفي سنة ١٨١٣ هزمت قوّات الائتلاف السادس الجيش الفرنسي في معركة الأمم.. وفي السنة اللاحقة اجتاحت هذه القوّات فرنسا ودخلت العاصمة باريس.. وأجبرت نابليون على التنازل عن العرش.. ونفود إلى جزيرة ألبا.. هرب بونابرت من منفاه بعد أقل من سنة.. وعاد ليتربع على عرش فرنسا.. وحاول مقاومة الحلفاء واستعادة مجده السابق.. لكنهم هزموه شر هزيمة في معركة واترلو خلال شهر يونيو من عام بعدها استسلم بونابرت للبريطانيين الذين نفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة.. حيث أمضى السنوات الست الأخيرة من حياته. أظهر تشريح جثة نابليون أن وفاته جاءت كنتيجة لإصابته بسرطان المعدة.. على الرغم من أن كثيرًا من العلماء يقولون بأن الوفاة جاءت بسبب التسمم بالزرنيخ.

(٢) هو حفيد بيسون بك الذي كان يعمل قائداً للبحرية المصرية في عهد محمد علي.. وذكر أقواله المُشارُ إليها في محاضرة ألقاها في الثمانينيات من القرن الماضي بالمجمع العلمي الفرنسي ..



خطة «محمد علي» لتهريب نابليون

وقال المؤرخ الفرنسي أن «محمد علي» كان يرغب في تكليف سفينة دنمركية لخداع الإنجليز وإقناعهم بإحضار نابليون إلي الإسكندرية في عام١٨١٩وأضاف أن «محمد علي» أعطي أوامره إلي «بيسون بك» لتولي قيادة هذه المهمة..

ونابليون يرفض

وقال أن السفينة الدنمركية وصلت بالفعل إلي سانت هيلانة.. ولكن نابليون رفض الصعود إليها.. لأنه شك في وجود مؤامرة إنجليزية لقتله.

وأضاف العالم الفرنسي أن «محمد علي» كان علي وشك وضع خطط أخري بتشجيع من سليمان باشا قائد الجيش و«إبراهيم باشا».. ومنها خطف نابليون قسراً أو بحث مقايضته مع الإنجليز.. إلا أن انشغال «محمد علي» بالحروب التي خاضها.. ثم وفاة نابليون عام ١٨٢٢ أحبطت هذه الخطط.

ذكاء «محمد علي»

نجح «محمد علي» بذكائه الشديد في استقطاب كل أبناء الشعب المصري إلى جانبه للمناداة والمطالبة به والياً على مصر.. وبل ذكاؤه شدة تألقه عندما نجح بشكل أكبر في استمالة أقباط مصر.. فبعد خروج الحملة الفرنسية من مصر.. تحرك المصريون بايجابية لتأييد «محمد علي» ونصرته علي الإنجليز بقيادة «فريزر» والمماليك أيضاً.. معلنين رفضهم القاطع لفرمان السلطان العثماني بعزل

«محمد علي» وأكدوا تمسكهم بولايته.. حتى الأقباط الذين كانوا يدفعون الجزية بمقتضي معاهدة نابليون الأولي سنة ٦٤١ باعتبارهم شاركوا في وصول «محمد علي» لحكم مصر.. فكان المعلم جرجس الجوهري كبير المباشرين الأقباط يشارك بفعالية في اجتماعات زعماء ونواب الأمة في بيت عمر مكرم.. من أجل تنفيذ قرار الشعب بعزل «خورشيد باشا» وتأكيد تولية «محمد علي» الحكم.. وكذلك مشاركة المسيحيين ضد المماليك ثم ضد حملة فريزر الإنجليزية.. وبعد حصول «محمد علي» علي فرمان بتوليه حكم مصر عام ١٨٠٥ قام بتعيين المعلم غالي أبو طاقية الذى عمل بمثابة وزير للمالية.. ويقال إنه هو الذي أوصي بإلغاء نظام الالتزام.. ووضع نظام الضريبة الثابتة علي الأرض الزراعية بعد تقسيمها إلي درجات حسب جودتها.. كما عاونه المعلم باسيليوس.. فكان غالي بمثابة اليد اليمني لـ «محمد علي» بينما باسيليوس اليد الأخرى لتنفيذ أوامره بكل دقة وأمانة..

مشواره في مصر من العسكرية حتى الولاية

- وصل «محمد علي» إلى مصر في مارس ١٨٠١ كمعاون لرئيس كتيبة «قولة» مع جيش «القبطان حسين باشا» الذي جاء لإجلاء الفرنسيين..
- بقى «محمد علي» في مصر بعد خروج الفرنسيين منها..
- نظراً لتميزه فقد رُقّى إلى عدة مناصب إلى أن خرج الفرنسيون فأصبح من الرجال المقربين للوالي الجديد «خسرو باشا»..
- ثم أصبح نائباً للسلطان العثماني..
- ثم أصبح والياً على مصر في عام ١٨٠٥م بمساعدة الزعيم الشعبي المصري آنذاك «عمر مكرم» ممن قادوا مهمة توليته..
- وفي مايو ١٨٠٥ وصل إلى كرسي والي مصر بفضل الشيوخ المصرية..
- وفي يوليو من نفس السنة وصل فرمان الباب العالي بتوليته مصر..
- قضى على المماليك في مذبحة القلعة الشهيرة ١٨١١..

- بدأ «محمد علي» في إنشاء جيش مصري حديث ولهذا قرر استخدام كولونيل سابق في الجيش الفرنسي وهو من الفرنسيين الذين مكثوا في مصر ولم يغادروها إلى فرنسا وهذا الكولونيل اسمه سيف وقد اعتنق الإسلام فيما بعد حتى يكون له صورة إسلامية ويستطيع المسلمون الوثوق فيه ودرب الكولونيل سيف الجيش المصري على أحدث النظم الأوروبية ومما يذكر أن الكولونيل سيف غير اسمه إلى سليمان وأعطاه «محمد علي» البكوية.. ومن بعده منحه «إبراهيم باشا» ابن محمد علي لقب الباشاوية.. وما زالت مقبرته حتى يومنا هذا قائمة في مصر القديمة.
- أرسل جيشه إلى الحجاز فاستولى عليها ثم استولى على النوبة وعلى جزيرة كريت ثم على فلسطين والشام..
- أدت هذه الانتصارات وهذا التفوق العسكري إلى وقوف الدولة العثمانية وبعض الدول الأوروبية ذات المصالح ضد طموح وأطماع «محمد علي» التوسعية.. فاجتمعوا في لندن في يوليو ١٨٤٠ ووقعوا المعاهدة التي مُنِحَ بمقتضاها «محمد علي» رتبة «نائب الملك على مصر» وأن تكون مصر بحدودها القديمة وراثية في أسرة «محمد علي» للأكبر سناً من أولاده أو أحفاده.. على أن تكون مصر جزءاً من الدولة العثمانية وأن تدفع الجزية سنوياً للسلطان وألا يزيد جيشها عن ثمانية عشر ألفاً وألا تبنى سفناً حربية.
- وفي فبراير ١٨٤١ أصدر الباب العالي في الآستانة فرماناً بجعل مصر وراثية في أسرة «محمد علي».. ونص الفرمان على أن تكون مصر جزءاً من الدولة العثمانية تسري فيها قوانين وفرمانات والمعاهدات التي تبرمها الدولة العثمانية.. وأن يجرى كل ما شيء فيها باسم السلطان العثماني.. وأن تدفع مصر جزية سنوية يحددها السلطان.

- تم تعديل الفرمان السابق بفرمان آخر بحيث يصبح حق الوراثة لحكم أسرة «محمد علي» بحيث يتولى المملكة الكبر سناً من أولاد «محمد علي» وأحفاده الذكور.. وحُددت الجزية بربع إيرادات مصر ثم أعيد تعديلها إلى ٤٠٠ ألف جنيه.
- منذ ذلك التاريخ يمكن القول بأن مصر أصبحت تتمتع باستقلال داخلي وثبات واستقرار.
- تنازل «محمد علي» عن سلطاته لابنه «إبراهيم باشا» في سبتمبر عام ١٨٤٨مُرغماً حسب أصح الأقوال حيث يُقال أنه قد أصيب بالخرف في أواخر أيامه.. ومات بقصر التين بالإسكندرية في أغسطس ١٨٤٩ وتم دفنه بالمسجد الذي يحمل اسمه بالقلعة بالقاهرة.. وعينت الدولة العثمانية مكانه "عباس الأول" عام ١٨٤٨.

سبب الوفاة

وتفسر بعض المصادر جنون محمد علي بتناوله جرعات نترات الفضة[١] أعطاها له أطباء أوروبيون لعلاجه من الدوسنتاريا.. بينما فسر آخرون جنونه بتناوله دواء لتقوية ألباه[٢] كان يتعاطاه بعدما أهدته ابنته جارية جديدة.

هذا هو ملخص مشوار «محمد علي» في حكم مصر منذ أن نزل إليها.. حتى وافته بها المنية.. فماذا عن أيامه فيها.. هذا ما سنقرئه في الصفحات والفصول القادمة بالتفصيل..

❖❖❖

(١) نترات الفضة هي دواء مضاد للعدوى قوي يُستعمل كقابض وكاوي ومطهر.. امتصاصه سيء.. حتى عندما يطبق على الأغشية المخاطية.. والصيغة الكيميائية لنترات الفضة هي AgNO3 وهي تذوب بسهولة في الماء.. وتحرق الجلد.. ويمكن أن تسبب تسمماً خطيراً.. وقد تسبب الموت في حالة الابتلاع.

(٢) أي لتقوية القدرة الجنسية.

1



«محمد علي» وحملة فريزر ومذبحة المماليك

قبل أن نتحدث عن مذبحة المماليك نتوقف عند حدث هام يعتبر من أهم ركائز استقرار محمد علي في حكم مصر.. وسبق مذبحة المماليك زمنياً.. وكان بمثابة الحجة التي دعا من خلالها محمد علي فلول المماليك في مصر للاجتماع به في القلعة.. ثم حدث منه ما حدث..

نتحدث عن «الحملة الإنجليزية على مصر»سنة ١٨١١ أو ما تُعرف باسم..

حملة فريزر على مصر

كانت إنجلترا تسعى بكل السُبل لإنهاء حكم محمد علي في مصر.. وإعادة المماليك للسلطة تحت الوصاية البريطانية.. وحاول الإنجليز انتهاز فرصة الصراع بين الوالي محمد علي والمماليك وضعف الجبهة الداخلية.. فاتفقوا مع «محمد بك الألفي» وهو كما قلنا كان أحد زعماء المماليك على أن يؤيدها وينسق التعاون معها من أجل العمل على ذلك في مقابل أن تكفل إنجلترا للمماليك الاستيلاء على مقاليد البلاد.. لكن الألفي مات قبل وصول الحملة العسكرية إلى مصر بقيادة الجنرال فريزر في الأول من مارس ١٨٠٧ .

وهكذا بدأت حملة فريزر.. أو«الحرب الإنجليزية المصرية الأولى» كما تُسمى في بعض كتب التاريخ.. ودارت رحى الحرب بين أعوام «١٨٠٧ ـ ١٨٠٩» بين قوات محمد علي باشا والمصريين من ناحية.. والقوات البريطانية تعاونها الدولة العثمانية كجزء من تداعيات الحروب النابليونية من ناحيةٍ أخرى.

وكان وقتها قد مضى عامان فقط على تولي محمد علي حكم مصر.. وكانت الخطة أن يزحف المماليك إلى القاهرة ليحتلوها.. والإنجليز يحتلون بأسطولهم موانئ مصر.. والبداية كان ثغر رشيد.. بعده يزحفون إلى الدلتا ويحتلون القاهرة لإسقاط حكم محمد علي..

وكان «الجنرال فريزر» بالإسكندرية قد تلقي تقريراً قبل زحفه بحملته من قنصل إنجلترا في رشيد عن حالة مصر وما بها من قوات مما جعله يزحف براً إلى

رشيد لاحتلالها واتخاذها قاعدة حربية لقواته.. وكلف القائد ويكوب بهذه المهمة العسكرية.. وكان معه ألف جندي تحركوا من الإسكندرية إلى رشيد..

واستطاعت الحملة في البداية الاستيلاء على الإسكندرية في مارس ١٨٠٧ ولكنها لم تنجح في الاستيلاء على رشيد نتيجة لمقاومة أهالي رشيد بقيادة محافظها «علي بك السلانكي» للحملة الإنجليزية.. وقواته المكونة فقط من ٧٠٠ جندي.. وعزم على مقاومة الإنجليز.. واستنفر الشيخ «حسن كريت» الأهالي للمقاومة الشعبية.. فأمر بإبعاد المراكب المصرية من أمام شاطئ النيل برشيد إلى البر الشرقي المقابل عند الجزيرة الخضراء وبرج مغيزل بمركز مطوبس.. وكان الهدف منع الأهالي من ركوبها والفرار من المدينة حتى لا يجد رجال حاميته وسيلة للارتداد أو الاستسلام أو الانسحاب كما فعلت حامية الإسكندرية من قبل.. وأصبحت الحامية بين الأهالي متوارية بالمنازل داخل مدينة رشيد.. والبحر من ورائهم والعدو أمامهم.. ولا مناص إلا القتال والمقاومة.. وأمرهم بعدم التحرك أو إطلاق النار إلا بعد صدور إشارة متفق عليها.. فتقدم الإنجليز ولم يجدوا أي مقاومة.. فاعتقدوا أن المدينة ستستسلم كما فعلت حامية الإسكندرية.. فدخلوا شوارع المدينة مطمئنين.. وأخذوا يستريحون بعد السير في الرمال من الإسكندرية إلى رشيد.. وانتشروا في شوارع المدينة والأسواق للعثور على أماكن يلجئون إليها ويستريحون فيها.. وما كادوا يستريحون حتى انطلق نداء الآذان بأمر السلانكي من فوق مئذنة سيدي زغلول مردداً:

«الله أكبر.. حي على الجهاد»..

فانهالت النيران من الأهالي وأفراد حامية رشيد من نوافذ المنازل وأسطحها.. فقتل جنود وضباط من الحملة وهرب من بقي حيا وبلغ عدد قتلى الإنجليز ١٧٠ قتيلاً و٢٥٠ جريحاً و١٢٠ أسيراً لدى حامية رشيد.

وإزاء هذا الوضع المتردي بالنسبة له ولقواته أرسل فريزر إلى المماليك يطلب منهم المساعدة ولكنهم لم يستطيعوا مساعدته بعد أن تفرقت كلمتهم.. ومات

زعيمهم محمد الألفي.. فرأى فريزر أنه من العبث مواصلة القتال فتحصن بالإسكندرية.. وأرسل إلى محمد علي يطلب الصلح في مقابل أن يجلو عن الإسكندرية.. في تلك الأثناء كان محمد علي يستعد للزحف على الإسكندرية.. وسار بجيشه من معسكره في إمبابة متوجها إلى الرحمانية ومنها إلى دمنهور في ١٢ أغسطس عام ١٨٠٧وهناك التقى بالجنرال «شريروك» الذي فوضه فريز لإبرام الصلح بين الطرفين المصري والبريطاني..

معاهدة دمنهور

وبعد مفاوضات قصيرة عقد الطرفان معاهدة دمنهور في ١٤ سبتمبر عام ١٨٠٧ والتي نصت على ما يلي:[1]

- جلاء القوات البريطانية عن الإسكندرية في مدى عشرة أيام من التوقيع على المعاهدة..
- إطلاق سراح أسرى الحرب الإنجليز..
- صدور عفو عام لسكان الإسكندرية.

وتم جلاء القوات البريطانية بالفعل في ١٩ سبتمبر سنة ١٨٠٧ وضمت الإسكندرية إلى محمد علي بفرمان سلطاني بعد أن كانت تتبع مباشرة السلطان وحاكمها يعين من قبله مباشرة.. ثم أقلعت السفن البريطانية بما تبقى من جنود الحملة إلى صقلية..



(١) أصبح يوم ١٩ سبتمبر آخر أيام إجلاء بقايا الإنجليز عن دمنهور هو العيد القومي لمحافظة البحيرة.

مذبحة المماليك[1]

مذبحة القلعة.. أو مذبحة المماليك هي واحدة من أشهر الأحداث في التاريخ المصري.. وأكثرها مكراً.. ودهاء.. دبرها محمد علي باشا للتخلص من أعدائه من المماليك.. ويعلق أحد المؤرخين على مذبحة القلعة فيقول:

«لقد ذبح «محمد علي» من المماليك في القلعة ما لا يقل عن ١٢٠٠ مملوك.. مع أنه قد سبق له وأمنهم على حياتهم بأغلظ العهود والمواثيق» ولكننا نعلق هنا على تلميحه بخيانة محمد علي لمواثيقه وعهوده التي قطعها على نفسه للمماليك بأنها«السياسة» وضرورات الحكم.. فلو لم يسبقهم محمد علي في تصفيتهم والقضاء عليهم لسبقوه هم وقضوا عليه.

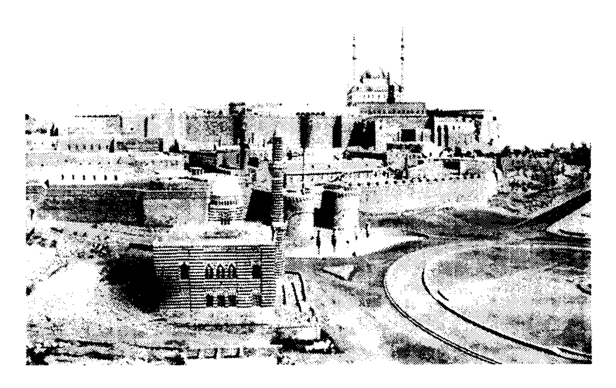
الخلاف حول عدد القتلى

كما أن هناك خلاف بين ما ذُكِرَ في معظم كتب التاريخ حول عدد القتلى في مذبحة القلعة.. ففي حين يقول المؤرخ السابق الإشارة إليه أن عددهم كان ١٢٠٠ قتيل.. نرى آخرين يذكرون أن الرقم كان حوالي خمسمائة فقط من رؤوس المماليك وأعيانهم..

عموماً أدار ابنه «إبراهيم باشا» مذبحة أخري لبعض من فلول المماليك الآخرين الهاربين إلى الصعيد وذلك بعد سنة من مذبحة الأولى..

ووقعت أحداثها يوم ١ مارس من عام ١٨١١.

(١) نحكيها من واقع ما جاء في كتاب "تاريخ عصر المماليك" لعبد الرحمن الرافعي.





Le Massacre des Mamelucks dans la Citadelle du Caire
by Horace Vernet, 1819

كيف خطط «محمد علي» للمذبحة؟

يُقال في بعض المصادر التاريخية أن فكرة وتخطيط مذبحة المماليك كان صاحب الفضل فيها والتخطيط لها هو «لاظوغلي باشا»[1]

وكان المماليك في هذا الوقت يرون أنهم الأحق بحكم مصر.. وكانوا دائمي التمرد والإزعاج لمحمد علي ولم تنفع معهم محاولات الصلح والإرضاء بالأموال التي قام بها محمد علي حتى أنه أراد استرضاء «مراد بك» زعيم المماليك وأعطاه حكم الوجه القبلي مقابل مبلغ من المال واشترط عليه عدم مساعدة المماليك

(١) ترجمة كاملة للشخصية في فصل رجال حول محمد علي.

للإنجليز.. ولكن لم يجدي هذا معهم.. في وقت كان فيه محمد علي يريد الانفراد بحكم مصر فكان علية التخلص من الزعامة الشعبية والجنود الألبانيين الذين حاولوا قتله من قبل سنة ١٨١٥ .

وجاءت الفرصة لمحمد علي عندما أرسل إليه السلطان العثماني يطلب منه تجهيز جيوشه والخروج لمحاربة الحركة الوهابية في شبة الجزيرة العربية..



وهنا كان أول ظهور للوهابيين في مشوار محمد علي.. وكانت أول الأخبار الواردة إليه عنهم بالشكل التالي كما يصفه الرافعي:

(وفي يوم الأربعاء ١٥ شهر رجب الفرد سنة ١٢٢٠ هـ . ٩ أكتوبر ١٨٠٥ م برز طاهر باشا الذاهب إلى البلاد الحجازية بعساكره إلى خارج باب النصر.. وفيه وردت الأخبار بأن الوهابيين استولوا على المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأتم التسليم بعد حصارها نحو سنة ونصف من غير حرب بل تحلقوا حولها وقطعوا عنها الوارد وبلغ أردب الحنطة بها مائة ريال فرانسة فلما اشتد بهم الضيق سلموها ودخلها الوهابيون ولم يحدثوا بها حدثًا غير منع المنكرات وشرب التنباك في الأسواق وهدم القباب ما عدا قبة الرسول صلى الله عليه وسلم..)

وعندما جاءته أوامر الباب العالي بالسفر إلى هناك لقمع الوهابيين في البداية استشعر محمد علي القلق حيث أنه إذا خرج جيشه للحرب امتثالاً لأوامر الخلافة العثمانية فسيتركه وحيداً دون حماية.. وعندها سيفكر المماليك في انتهاز هذه الفرصة والقضاء عليه..



لوحة مرسومة بريشة الفنان الفرنسي (جان ليون جيروم) الذي عاش بالقاهرة بعد ٢٠ سنة من المذبحة واللوحة تصور رؤوس البكوات المماليك على باب مسجد الحسين..

لذلك فكر محمد علي في أن يحول مخاوفه إلى فرصة للقضاء على هؤلاء المماليك.. وأرسل إلى أعيان المماليك وزعماءهم يدعوهم للحضور إلى القلعة بحجة أنه سوف يقيم احتفالاً كبيراً بمناسبة تنصيب ابنه «طوسون» على رأس حملة متجهة إلى الحجاز لمحاربة الوهابيين.. وفي نهاية الحفل سيقوم الجميع بتوديع الجيش.. وذهبت الدعوة إلى المماليك في كل حدب وصوب من أركان مصر من مشرقها إلى مغربها.. ولم يشك زعماء المماليك في نية محمد علي بل استعدوا وارتدوا ملابسهم الرسمية بكامل زينتهم وجاءوا إلى القلعة راكبين على أحصنتهم استعداداً للحفل وهم لا يعلمون مصيرهم.

وفي يوم الحفل الذي وافق الأول من مارس من سنة «١٨١١» كان عدد المدعوين حينها يزيد على عشرة آلاف شخص من كبار القوم ومختلف الطوائف.. وسار الاحتفال على ما كان عليه الحال حينها في مثل هذه المناسبات من طعام وغناء إلى أن نادى المنادى برحيل الموكب.. فعزفت الموسيقى وانتظم قرع الطبول..

وبعد أن انتهى الحفل الفاخر دعاهم محمد علي لتوديع موكب الجيش الخارج للحرب.. وكان في مقدمة الموكب جيش كبير من الأحصنة يركبها رجال محمد علي بقيادة ابنه «إبراهيم بك»

وسار المماليك في مؤخرة صفوف الجيش الخارج من ناحية «باب العِزب».. يتقدمهم جنود محمد علي ومن ورائهم يسير الفرسان والمشاة وعلى إثرهم كبار المدعوين من أرباب المناصب المختلفة.

وكانت أرضية القلعة وقتها غير ممهدة.. ويصعُب السير عليها.. وكانت أيضاً الرؤية صعبة ومحجوبة عن أمراء المماليك الذين كان يسير أمامهم جيش كبير من الرجال.

وبعد أن خرجت مقدمة الجيش من «باب العزب» ارتج الباب الكبير وأُغلقت الأبواب من الخارج في وجه المماليك واستدار الحراس الذين كانوا يولون المماليك ظهورهم وواجهوهم.. وانطلقت رصاصة في السماء لم ينتبه لها المماليك لكنها كانت الإشارة المتفق عليها بين محمد علي ورجاله.... وتحول جنود محمد علي بسرعة عن الطريق.. وتسلقوا الصخور على الجانبين.. وراحوا يمطرون المماليك بوابل من الرصاص.

أخذت المفاجأة المماليك وساد بينهم الهرج والفوضى.. وحاولوا الفرار.. ولكن كانت بنادق الجنود تحصدهم في كل مكان.. ثم انهالت الطلقات مدوية من أمامهم ومن خلفهم ومن فوقهم تحصد أرواحهم جميعاً بلا رحمة.. ومن نجا منهم من الرصاص فقد ذُبح بوحشية.. حتى امتلأ فناء القلعة بالجثث.

قصة المملوك الهارب وتعدد الروايات

يُروى أن بعض هؤلاء المماليك استطاع الهرب بالقفز من أعلى أسوار القلعة راكبين خيولهم.. وهرب بعضهم إلى صعيد مصر وكان من بينهم «إبراهيم بك» الذي هرب إلى السودان ثم عاد بعدها بحوالي ثلاث سنوات ليُقتل بخدعة شبيهة بمذبحة القلعة.

ويُقالُ أنه لم ينج من هذه المذبحة سوى مملوك اسمه «أمين بك» هرب بحصانه من فوق أسوار القلعة.. ويقال إنه فر متخفيا إلى سوريا ومات هناك بعد هذه الحادثة بعدة سنوات.

وقيل في روايةٍ أخرى أن هذا المملوك كان اسمه «مراد بك» وقيل أنه كان في مؤخرة الصفوف.. ولما شعر ببداية إطلاق النار قرر الفرار إلا أنه لم يكن أمامه سوى سور القلعة لذلك أخذ فرسه وقفز به من فوق سور القلعة وسقط حتى اقترب من الأرض قفز من فوق حصانه ليتركه يلقي مصيره بينما نجى هو واتجه بعدها إلى بلاد الشام.

أما الرواية الثانية لهروب نفس المملوك أياً كان اسمه فتحكي أنه جاء متأخراً إلى الحفل فوجد باب القلعة قد أُغلِقَ فشعر بالمكيدة فأخذ فرسه وهرب به إلى بلاد الشام.. بينما كان هناك مملوك آخر يدعى أحمد بك لم يحضر الحفلة بسبب انشغاله في أحد القرى بالتالي لم ينج سوي هذين المملوكين.

لماذا باب «العزب»[1]؟

والسر وراء اختيار باب «العزب» لتكون مسرحاً لمذبحة القلعة هو أن الطريق الذي يؤدى إلى باب العزب ما هو إلا ممر صخري منحدر تحيط به الصخور على الجانبين.. حيث لا مخرج ولا مهرب ولا مفر..

والأمر في مجمله كان خُدعةً انطلت على المماليك ونفذتها مجموعة من جنود محمد علي بإحكام..

موقف المصريين من المذبحة

وصل خبر تلك المذبحة إلى الجماهير المحتشدة في الشوارع لمشاهدة الموكب فسرى الذعر بينهم.. وتفرق الناس.. وأُقفِلَت الدكاكين والأسواق.. وهرع الجميع إلى بيوتهم.. وخلت الشوارع والطرقات من المارة.. وسرعان ما انتشرت جماعات

(١) أحد الأبواب الرئيسية المؤدية إلى القلعة آنذاك.. والتي كانت تشرف على طريق رئيسي اعتادت جيوش المماليك الخروج منه عند الحروب.

من الجنود الأرناؤوط في أنحاء القاهرة يفتكون بكل من يلقونه من المماليك وأتباعهم.. ويقتحمون بيوتهم فينهبون ما تصل إليه أيديهم.. وتجاوزوا بالقتل والنهب إلى البيوت المجاورة.

وكُثر القتل.. واستمر النهب.. وسادت الفوضى ثلاثة أيام.. قُتل خلالها نحو ألف من أُسر وعائلات المماليك ونُهب خمسمائة بيت.. ولم يتوقف هذا إلا بعد أن نزل محمد علي بنفسه إلى شوارع المدينة.. وتَمكنَ من السيطرة على جنوده وأعاد الانضباط.. وهكذا استطاع محمد علي الانفراد بالحكم.



2



أسس النظام الإداري في عهد «محمد علي»

في إدارته لشئون البلاد.. كان «محمد علي» يتعامل مع مصر باعتبارها أملاكه الخاصة.. وكما سيحكى لنا التاريخ فيما بعد رسوخ هذا المنطق في سلالته من بعده والذي تجسد في الواقعة الشهيرة[1] بين «الخديوي[2] إسماعيل» والزعيم الشعبي «أحمد عرابي» والتي قال إسماعيل فيها لعرابي: «أنا ورثت ملك هذه البلاد عن آبائي وأجدادي.. وما أنتم إلا عبيد إحساناتنا»..

ونعود لمحمد علي لنقول أنه ربما كان أكبر دليل على نظرته تلك لمصر هو هذا المرسوم الذي أصدره ذات يومٍ لأحد حكام الأقاليم جاء فيه ما نصه:

«البلاد الحاصل فيها تأخير في دفع ما عليها من البقايا أو الأموال يُضبط مشايخها ويرسلون للومان «السجن» والتنبيه على النُظار بذلك.. وليكن معلوماً لكم ولهم أن مالي لا يضيع منه شيء بل آخذه من عيونهم».

ونرجع لبداية حكم «محمد علي» عندما استطاع القضاء على المماليك.. كان يخاف عودتهم.. بعد أن تشرذموا في مختلف أقاليم مصر.. لذلك منذ البدايات الأولى لاستقراره في الحكم عمل على ربط القاهرة بالأقاليم إدارياً بشكل قوي.. حتى يستطيع تتبع أثار من تبقى من المماليك في مصر.

ومن أجل إحكام قبضته على ذلك كله وضع سياسة تصنيعية وزراعية موسعة.. وضبط المعاملات المالية والتجارية والإدارية والزراعية لأول مرة في تاريخ مصر.. وكان جهاز الإدارة أيام «محمد علي» يهتم أولاً بالسُخرة وتحصيل الأموال الأميرية وتعقب المتهربين من الضرائب.. وإلحاق العقاب الرادع بهم.. وكانت

---

(١) إلا أن عرابي رد عليه قائلاً: قال: «لقد خلقنا الله أحرارًا.. ولم يخلقنا تراثًا أو عقارًا.. فو الله الذي لا إله إلا هو أننا سوف لا نُورّث.. ولا نُستعبَد بعد اليوم..» وحدث ذلك أثناء الثورة العرابية وهي الثورة التي قادها أحمد عرابي في فترة ١٨٧٩-١٨٨٢ ضد الخديوي توفيق والأوروبيون وسُميت آنذاك هوجة عرابي.

(٢) سنستخدم كثيراً كلمة «خديوي» ومن الأفضل أن نعرف القارئ بمعناها خاصةً أنها من المفردات الدارجة ولا يعرف معناها كثيرون.. والكلمة تُكتب بطريقتين «خديو» أو «خديوي» وتعرفها معاجم اللغة العربية بأنها: «لقب حاكم مصر تحت سيادة العثمانيين في بعض العهود الماضية» لكن المعنى الأقرب هو ملك البلاد.. أو الوالي الذي يحكم الولاية المصرية نائباً عن الخليفة العثماني.

الأعمـال الماليـة يتولاهـا الأرمـن والصـيارفة وكـانوا مـن الأقبـاط والكتبـة مـن الأتراك وذلك لأن الرسائل كانت بالتركية..

وكـان حُكـام الأقـاليم وأعـوانهم يحتكـرون حـق التـزام الأطيـان الزراعيـة وحقـوق امتيـازات وسـائل النقـل فكـانوا يمتلكـون مراكـب النقـل الجمـاعي في النيل والتِرع بما فيها المعديات.

وكان حُكام الأقاليم يعيشون في قصور.. ولـديهم خـدم وعبيـد وكـانوا يتلقـون الرشـاوي لتعـيين المشـايخ في البنـادر والقـرى.. وكـان العبيـد الرقيـق في قصـورهم يعـاملون برأفـة ورقـة.. وكـانوا يحـررونهم مـن الـرِق.. ومـنهم مـن امتلـك الأبعاديـات وتولى مناصـب عليـا بالدولـة.. وكـان يُطلق عليهم الأغـوات المعـاتيق.. وكـانوا بـلا عائلات ينتسبون إليها فكـانوا يسـمون «محمـد أغـا» أو «عبـد الله أغـا» وأصـبحوا يشـكلون مجتمـع الصـفوة الأرسـتقراطية ويشـاركون فيـه الأتـراك.. وفي قصـورهم وبيوتهم كـانوا يقتنون العبيد والأسلحة ومنهم من كـانوا حكـاماً للأقاليم..

وكـانوا الأعيـان المصـريين يتقـاسمون معهـم المنـافع المتبادلـة.. ومعظمهـم كـانوا عـاطلين بـلا عمـل.. وكـثيرون مـنهم كـانوا يتقاضـون معاشـات مـن الدولـة أو يحصـلون علـى أمـوال مـن أطيـان الالتـزام.. وكـانوا يعيشـون عيشـة مرفهـة وسـط أغلبية محدودة أو معدومة الدخل.

وكــان التجــار الأجانــب ولاســيما اليونــانيين والشــوام واليهــود يحتكــرون المحاصيل ويمارسون التجارة بمصـر.. ويشـاركون الفلاحـين في مواشـيهم.. وكـان مشـايخ الناحيـة يعـاونونهم علـى عقـد مثـل هـذه الصـفقات.. وضـمان الفلاحـين.. وكانـت عقـود المشــاركة بـين التجـار والفلاحـين تُوثـق آنـذاك في المحـاكم الشـرعية.. وكـان الصـيارفة في كـل ناحيـة يعملـون لحسـاب هـؤلاء التجـار لتـأمين حقوقهم لدي الفلاحين.. ولهذا كـان التجار يضمنون الصـيارفة عنـد تعيينـهم لـدى السـلطات.. خاصـةً في المنـاطق الـتي كـانوا يتعـاملون فيهـا مـع الفلاحـين.. وكـان التجار يُقرضون الفلاحين الأموال قبـل جـني المحاصيل مقابـل احتكـارهم لشـراء

محاصيلهم.. وكان الفلاحون يسددون ديونهم من هذه المحاصيل.. وكان التجار ليس لهم حق ممارسة التجارة إلا بإذن من الحكومة للحصول على حق هذا الامتياز لمدة عام.. يُسدد عنه الأموال التي تقدرها السلطات وتدفع مقدماً.

لهذا كانت الدولة تحتكر التجارة بشرائها المحاصيل من الفلاحين أو بإعطاء الامتيازات للتُجار.. وكان مشايخ أي ناحية متعهدين بتوريد الغلال والحبوب كالسمن والزيوت والعسل والزبد لـ «شِون»[1] الحكومة لتصديرها أو إمداد القاهرة والإسكندرية بها أو توريدها للجيش المصري.. ولهذا كان الفلاحون سجناء قُراهم لا يغادرونها أو يسافرون إلا بإذن كتابي من الحكومة..

وكان الفلاحون يهربون من السُخرة في مشروعات «محمد علي» أو من الضرائب المجحفة أو من الجهادية.. وأحياناً كان من بين الفارين مشايخ القرى أنفسهم لعجزهم عن تسديد مديونية الحكومة..

«محمد علي» يهدد

ورغم وعود «محمد علي» إلا أن الآلاف كانوا يفرون للقرى المجاورة أو يلوذوا بالفرار والاختباء لدى العُربان.. وهذا ما جعل «محمد علي» ذات مرة يصدر مرسوماً جاء فيه بأن على هؤلاء الهاربين العودة لقُراهم في موعد كان أقصاه شهر رمضان من عام ١٨٣٥ وإلا سيكون جزاؤهم الإعدام والصلب كلٌ على باب داره أو دواره.. أما البدو فاستعان بهم في مطاردة آخر الشراكسة الفارين إلى مدينة دنقلة بالسودان وضم السودان لمصر واستمر ولاء رجال البادية القادمين من برقة للأسرة «محمد علي» وفي سنة ١٨٤٥ أصدر ديوان المالية لائحة الأنفار المتسحبين.. هددت فيها مشايخ البلاد بالقرى لتهاونهم وأمرت جهات الضبطية بضبطهم ومن يتقاعس عن ضبطهم سيعاقب عقاباً جسيماً.



(١) جمع شونة.. وهي المكان المخصص لتخزين الغلال.

«محمد علي»

والإصلاح الاقتصادي.. والزراعي!!

أدرك «محمد علي» أن ثروة البلاد والمحافظة على كيانها المالي من أكبر دعائم الاستقلال.. لأن العمران هو أساس التقدم.. والثروة الأهلية قوام الاستقلال المالي.. ولا يتحقق استقلال ولا استقرار سياسي دون دعم واستقرار مالي واقتصادي.. لذلك كان أول ما هدف إليه «محمد علي» في سياسته إصلاح حالة البلاد الاقتصادية.. والاهتمام بدعم حركة العمران لتنمو الثروة القومية.. وتتوافر الأموال اللازمة للتسليح وإنشاء المصانع وغيرها..

وذات يوم قال «محمد علي» للقنصل الفرنسي في مصر آنذاك وكان يُدعى «ميمو» عندما أنذره بتدخل أوروبا للحد من طموحه وأحلامه التوسعية:

«تخطئ أوروبا باعتقادها أنني في حاجة إلى مال.. وأكبر دليل على عدم صحة هذا الاعتقاد أنني لا أبيع محصول القطن.. مع أنه من أهم موارد مصر.. وجنودي يقبضون مرتباتهم بانتظام.. وإني لا أعقد قرضاً ما في بلادٍ ما.. ولست مديناً لأحدٍ بشيء».

وقد تولى «محمد علي» بنفسه تنفيذ هذه السياسة القوية.. بعزيمة من حديد.. وبذل في ذلك جهوداً جبارة حتى خلف أعمالاً ومنشئات غير مسبوقة في تاريخ مصر الحديث يزدان بها تاريخه.. فشملت البلاد موجة من النهوض الزراعي كفلت لها الرخاء والأموال الطائلة التي أمكن بفضلها الاحتفاظ بقوات عسكرية كبيرة..

ويكفينا أن نلمح سريعاً لما نشأ في عهد «محمد علي» من ترع وجسور وقناطر أهمها القناطر الخيرية.. وتوسيع نطاق الزراعة خاصةً زراعة القطن الذي يعتبر عماد الثروة في مصر.. وغيرها من باقي الزراعات.. وكذلك إنشاء مصانع الغزل والنسج والجوخ والحرير والصوف والكتان والحبال والطرابيش.. ومعامل سبك

الحديد والألواح النحاسية.. والسكر والصابون.. لندرك مدى ما كانت عليه سياسة مصر من سعة.. وأفاق كانت أهدافها ترمى إلى جعل مصر دولة صناعية زراعية عظيمة الثروة.. مزدهرة العمران.. تتمتع بجيش وقوة عسكرية متميزة.. يمكنها أن تحقق مبدأ الكفاية الذاتية لقواتها لتصون استقلالها..

المنهج العلمي الواقعي

وتكشف التنمية المتوازية في عدد من المجالات التي لا ترتبط مباشرة بالفنون والصناعات الحربية.. عن وعي واضح لدى محمد علي بالمنهج العلمي الواقعي في التعامل مع تشابك المجالات الحربية والاقتصادية والسياسية.. فلا استقلال بدون اعتماد على النفس في فنون الري والصناعة والتعليم.. وهذا يفسر الاهتمام البالغ بإنشاء البنية الأساسية في مجال الزراعة.. مثل:

- إعادة تشغيل الترع المطمورة..
- حفر ترعاً أخرى جديدة في شتى أنحاء مصر..
- إنشاء الجسور على شاطئ النيل من جبل السلسلة[1] جنوباً حتى البحر الأبيض المتوسط شمالاً لمنع فيضان المياه على ضفتي النيل..
- إنشاء جسور أخرى على أفرع النيل..
- إنشاء قناطر عديدة على التِرع لضبط مستويات المياه تيسيراً للانتفاع بالري.

إنشاء القناطر الخيرية

وكانت أراضي الوجه البحري تُروى بطريق الحياض كري الوجه القبلي فلا يُزرع فيها إلا المحاصيل الشتوية.. فتم إنشاء القناطر الخيرية لضمان توفير المياه في معظم السنة.. وعهد «محمد علي» بدراسة هذا المشروع قبل تنفيذه إلى جماعة من كبار المهندسين منهم «لينان دي بلفون» وبدأ تنفيذه سنة ١٨٣٤ لكن

(١) موجود بأسوان بالقرب من الحدود المصرية السودانية.

مهندسا فرنسيا آخر هو «موجيل» أعد تصميماً مختلفاً تحمس له أكثر محمد علي وبدأ التنفيذ بمساعدة مهندسين مصريين تخرجا من البعثات العلمية..

وتعتبر هذه القناطر التي تعمل في شمال القاهرة حتى الآن من أولى القناطر الكبرى التي تقام على نهر واسع في العالم.

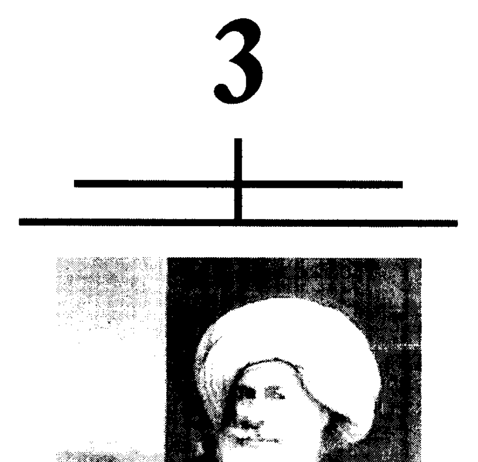
تغيير السياسة الزراعية

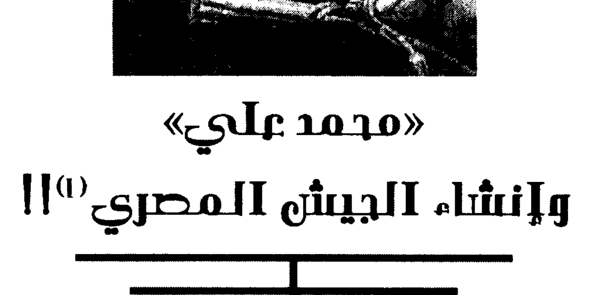
وكانت نتيجة الإصلاحات الزراعية واسعة النطاق تغيير عدد من الحاصلات.. فبعد أن كانت أهم الحاصلات في مصر تتمثل: القمح والشعير والفول والعدس والحمص والذرة والترمس والبرسيم وقصب السكر والقنب والكتان والخضر والفواكه.. وقليل من القطن.. تم التوسع بغرس شجر التوت لتربية «دود القز»[1].. وبعد أن كان القطن المصري يُزرع من أصناف رديئة.. تمت زراعة القطن طويل التيلة.. تبعاً لنصيحة جوميل الذي استقدمه «محمد علي» لتنظيم مصانع النسيج.. وأقبلت على طلب القطن المصري مصانع النسيج في فرنسا وإنجلترا.. وأصبح أساس الثروة الزراعية في مصر.

❖❖❖

(١) لإنتاج الحرير.

3





«محمد علي»
وإنشاء الجيش المصري[1]!!

(١) مصدر المعلومات والأرقام المحددة والواردة في هذا الفصل من مقال كتبه اليوزباشي «محمد جمال الدين محفوظ» ونُشر بمجلة المدفعية الملكية عدد ١٩ نوفمبر سنة ١٩٤٩.

في تأسيسه للجيش المصري تتجلى أسمى آيات عبقرية «محمد علي»..

وعندما نجح في تأسيسه أصبح الجيش في عصره هو عماد كل شيء.. فمن أجله أُنشِئت مدارس الطب والهندسة والفنون العسكرية.. ولنهضته قامت صناعة الأسلحة والذخيرة والملابس.. ولخدمته كان العمل على إنهاض الزراعة والعمران.. فاستطاعت مصر القيام بأعباء الكفاح الحربي.. وحققت مطامع العاهل العظيم..

كيف.. ولماذا؟

الحقيقة تقول ذلك..

وللحقيقة معطيات تفرض نفسها وتتمثل فيما يلي:

- استطاع «محمد علي» أن ينفذ هذا عبر برنامج ضخم لتسليح الجيش الوليد دون أن يقترض جنيهاً واحداً من الخارج معتمداً على دخل مصر الاقتصادي.. وفقط.. في وقت كانت فيه مصر غارقةً في بحور الفقر والفوضى..
- اعتمد على المصريين في الانخراط بسلك التجنيد في وقتٍ كان فيه المصريون من أبناء البلاد لا يعرفون شيئاً عن الجندية.. أو الحياة العسكرية.

وأصبح الجيش المصري بفضل سياسة «محمد علي» الاستقلالية أكبر دُعامة لاستقلال البلاد؟.. وبلغ تعداد الجيش في عام ١٨٣١ سبعين ألف مقاتل.. ثم بلغ في عام ١٨٣٣ حوالي ١٩٤ ألف مقاتل بينهم حوالي ٢٥ ألف من البحارة وعمال الترسانات البحرية.. وفي عام ١٨٣٩ زاد إلى حوالي ٢٣٦ ألف.

إنها معجزة تاريخية بكل المقاييس..

الجيش قبل «محمد علي»

لا يمكننا اعتبار أن مصر كان لديها جيش وطني قبل وصول «محمد علي» للحكم.. فقد كان مُكوناً من عناصر تميل بطبيعتها إلى الشغب والفوضى.. معظمهم كان من الأكراد والألبان والشراكسة الذين يطلق عليها لفظة «باشبوزق» أي الجنود غير النظاميين.. ولم تكن لمثل تلك المجموعة المختلطة من الأجناس الغريبة شعور قومي بالانتماء لمصر كحال باقي أبناء البلاد.. وكان تنظيم هذه القوات خاضعاً للانقلابات السياسية التي كانت تمليها الثورات في الولايات العثمانية والمعارك والاختلافات التي ألفتها حياة المماليك أثناء القرن الثامن عشر ..

ويضاف إلى تلك القوات جماعات من الأعراب الذين كانوا يهددون الأمن في بعض الأقاليم.. ولم تكن هذه القوات في مجموعها خاضعةً لنظام عام أو تدريب ثابت منسق.. وإنما كانت أعمالها عبارة عن حرب عصابات.

جيشٌ لا يُعتمد عليه

رأى «محمد علي» أن هذا الجيش لا يُعتمد عليه في تحقيق مشروعاته الطموحة من أجل تأسيس مملكتهِ الجديدة.. فاتجه إلى الفلاحين لينشأ منهم جيشه من أبناء البلد فهم أولى بحمايتها.. وأكثر حرصاً على أمنها..

وكانت قد أُتيحت من قبل لـ«محمد علي» فرصة مشاهدة الجيوش الأجنبية في قتالها.. فقاتل الفرنسيين في «معركة الرحمانية»[1].. واستطاع أن يشهد نظامها

(1) بعد وصول الحملة الفرنسية إلى غرب مدينة الإسكندرية في ٢ يوليو سنة ١٧٩٨ م.. زحفوا على المدينة واحتلوها في ذلك اليوم وبعد ذلك أخذ نابليون يزحف على القاهرة عن طريق دمنهور حيث استطاع أن يحتل مدينة رشيد في ٦ يوليو ووصل إلى الرحمانية وهي قرية على النيل وفي تلك الأثناء كان المماليك يعدون جيشاً لمواجهة الجيوش الفرنسية بقيادة مراد بك حيث التقي الجيشان بالقرب من شبراخيت يوم ١٣ يوليو سنة ١٧٩٨ م إلا أن الجيش المملوكي هُزِمَ واضطر الى التقهقر فرجع مراد بك الى القاهرة والتقي كلاً من الجيش الفرنسي والجيش المملوكي تارة أخرى في معركة إمبابة أو موقعة الأهرام حيث هزم جيش مراد

الحديث.. وتكتيكاتها وقارن بين هذا وبين الحالة التي عليها الجيش المصري.. فصمم على أن يستبدل جنوده غير النظامية بجيش على النظام العسكري الحديث عندما تواتيه الفرصة لذلك.. وقد كان يعلم تماماً صعوبة هذه المهمة لتغلغل الروح الرجعية في الأهالي ورفضهم لكل جديد وخصوصاً إذا جاء على يد الأجانب.. أضف إلى ذلك أن حالة أهل مصر كانت تدب فيها الفوضى والإهمال منذ عهد طويل تحت حكم الأتراك والمماليك.. ولذلك لم آثر التمهل في تنفيذ ما عقد عليه العزم.

سليمان باشا الفرنسي

كانت حروب نابليون في أوروبا قد انتهت وسُرِحَت جيوشه.. وأصبح كثيرون من ضباطه بلا عمل.. فاستقدم «محمد علي» منهم كثيرين.. وكان أشهرهم ضابط اسمه «سيف» وهو الذي سيصبح اسمه فيما بعد «سليمان باشا الفرنسي»[1] ..

أخذ سليمان باشا على عاتقه تنفيذ رغبة «محمد علي» الأولى في إنشاء جيش مصري حديث.. فاستصدر أمراً من «محمد علي» في ٨ أغسطس سنة ١٨٢١ يقضي بإنشاء مدرسة أسوان الحربية.. بدأ فيها بتعليم العدد الضروري لتولى مهمة ضباط الجيش.. وجمع له «محمد علي» لهذا الغرض ألفاً من المماليك الشبان الذين تألف منهم نواة الجيش المصري.. وكان برنامج التعليم الموضوع يستغرق ثلاث سنوات تقريباً.

وهناك رسالة أرسل بها ««محمد علي»» للدفعة الأولى من المماليك في هذه المدرسة تعكس عِظم اهتمامه بالأمر.. ومقدار ما كان يعلقه على خريجيها من

بك مرة أخرى في هذه المعركة الفاصلة في ٢١ يوليو سنة ١٧٩٨ بالرحمانية التي كانت وقتها من أجمل المدن.

(١) ترجمة كاملة لقصته في فصل رجال حول محمد علي.

آمال.. الرسالة مُوقعة منه بتاريخ «١٢ محرم سنة ١٢٣٨ هـ الموافق ٢٩ سبتمبر ١٨٢٢» ويقول «محمد علي» فيها:

«إليكم يا مفاخر الأماثل والأقران بكباشية[1] جنودنا الجاهدية المقيمين في أسوان وضباطهم من رتبة الصاغ [2] قول أغاسي واليوزباشى والملازمين وحاملي الأعلام والضباط الآخرين.. نبلغكم أن سلك الجهادية الشريف هو أعز المسالك وأكرمها من الوجهتين الدينية والشعبية.. وأن الشئون الحربية هي أهم الشئون والمصالح بالنسبة للحكومة والوطن.. وقد أثنى الله سبحانه وتعالى أحسن الثناء على من سلكوا هذا المسلك القويم.. لقد واتاكم السعد ونالكم الحظ الأوفر وأمدكم بالتوفيق الأزلي.. فجاء كل منكم وأصبح مظهراً للعطف والعناية.. ومصدراً للشرف والسعادة كلٌ على قدرها.. وتراعوا حقوقها.. لهذا التقدير وهذه المراعاة لا يكونان مرة أخرى إلا إذا تركتم عاداتكم التي كنتم مطبوعين عليها ونبذتموها ظهرياً.. وتشبثتم بقواعد المسلك الجديد.. والحمد لله.. فكل منكم محترم الجانب مرعى الخاطر.. وكل قوانينكم ونظمكم موافقة.. فأرجعوا إلى أنفسكم.. واقرءوا ضمائركم واعملوا بمقتضى الرجولة.. وليقم كل منكم بذل همته في أمور تعليم وتدريب الموجودين في أورطتكم.. ولا يهملن في ذلك.. وليسع إلى أن يكون كل شيء منظماً أحسن نظام وفقاً لقوانينكم وقواعدكم المقررة.. أما ناظركم محمد بك[3] فهو رجلي الأمين الوفي.. وهو ناظركم الرءوف بكم كأنه أبوكم.. فرضاؤه رضائي.. وإرادته إرادتي.. فلا تخرجوا عن رأيه ولا تنحرفوا عن طاعته ولا تحيدوا عن إدارته بأي حال من الأحوال».

(١) جمع بيكباشي وهي رتبة عسكرية سوف يُتعارف عليها فيما بعد بكونها تساوي رتبة مقدم بالمفهوم الحالي.

(٢) رتبة عسكرية تساوي رتبة رائد بالمفهوم الحالي.

(٣) كما هو واضح يبدو أن «محمد بك» هذا كان ناظر المدرسة للشئون الإدارية لأن الشئون التدريبية والعسكرية بالطبع كانت من اختصاص سليمان بك.

التأسيس على النمط الفرنسي

واستدعى «محمد علي باشا» نخبةً من الضباط الفرنسيين لتدريب الطُلاب بالمدرسة.. وكان منهم الجنرال (بواييه) والكولونيل (جودان).. وكان لهم أثر واضح في التدريب الحديث على نمط الجيش الفرنسي في أداء الحركات والسير والمناورات فيما عدا النداء فكان يصدر باللغة التركية.. وطبقت على الجيش المصري قوانين الجيش الفرنسي بعد ترجمة القوانين العسكرية إلى التركية للعمل بموادها .

إبراهيم بك كان من طلابها

ألحق «محمد علي» ابنه إبراهيم بهذه المدرسة ليتعلم كواحد من طلبتها.. ولعل هذا كان هذا من أبرز عوامل نجاح المشروع.. وكان إبراهيم مثالاً للطاعة والنظام والالتزام.. وذات يومٍ اتفق أن كان «سليمان بك» يمر بالمدرسة ومعه بعض الضباط فاتخذ إبراهيم موقفه في أول الصف مع أنه كان أقصرهم قامة مخالفاً بذلك النظام المعمول به في المدرسة.. فأمسك به سليمان من يده وأعاده إلى آخر الصف الذي يتفق مع قامته.. فامتثل إبراهيم ولم يعترض.

انتقال المدرسة

وفيما بعد تنقلت المدرسة من أسوان إلى إسنا.. ثم إلى أخميم... ثم إلى بنى عُدى.. ثم إلى منطقة أثر النبي بالقاهرة..

قومسيون المدارس العسكرية

رأى «محمد علي باشا» أن ينظم التعليم العسكري في مصر.. فأمر بتأليف مجلس يشرف على شئون التعليم والتدريب وسماه «قومسيون المدارس العسكرية» وكان يتألف من ناظر الجهادية رئيساً.. وعضوية قادة الآليات وغيرهم ..

مدرسة قصر العيني

كذلك أنشأ «محمد علي» مدرسة قصر العيني سنة ١٨٢٥ وكان عدد تلاميذ هذه المدرسة يتراوح بين ٥٠٠ إلى ٦٠٠ من أبناء الأتراك والمصريين.. وتتفاوت أعمارهم بين الثانية عشر والسادسة عشر.. وكانت هذه المدرسة تقوم بمرحلة التعليم الإعدادي.. يتلقى فيها الطلبة اللغات العربية والتركية والإيطالية والرسم والحساب والهندسة.. وبعد إتمام الدراسة فيها يوزع الخريجين على مختلف مدارس الجيش العالية.. وقد توسع «محمد علي» في هذه المدارس وزاد عدد طلبتها لسد احتياجات الجيش حتى بلغ عدد تلاميذها في عام ١٨٣٤ ألف ومائتي طالب.

مدرسة أركان الحرب..

أنشئت هذه المدرسة في ١٥ أكتوبر ١٨٢٥ للدراسات العليا بقرية جهاد أباد بقرب الخانقاه بمشورة عثمان نور الدين أفندي.. وقام على تأسيسها الكابتن «جول بلانا» الفرنسي.. وأقيم للمدرسة بناء جميل ومنازل على النمط الحديث.. وكانت نواتها الأولى ١٨ ضابطاً.. وكان بها بعض المدرسين الأجانب.. وكانت مدة الدراسة ثلاث سنوات.. ويعين خريجوها أركان حرب في الوحدات الفنية في الجيش..

مدرسة المدفعية بطره..

تأسست عام ١٨٣١ وانتخب لها ٣٠٠ من خريجي مدرسة قصر العيني التجهيزية لدراسة فن المدفعية والتدريب على مختلف أنواع مدافع الميدان والهاون.. وكانت المواد التي تدرس في المدرسة هي الرياضيات والكيمياء والرسم والاستحكامات ولغة أجنبية واللغة العربية والتركية علاوة على فن المدفعية والمساحة..

وقد وزع خريجو هذه المدرسة على وحدات المدفعية بالجيش وخصص بعضهم للعمل بمدفعية الأسطول..

مدرسة السواري بالجيزة..

أُنشِئت هذه في الجيزة عام ١٨٣١ وعهد بها إلى المسيو «فاران» الذي كان ضابط أركان حرب المارشال «جوفيون سان سير» وكان عدد طلبتها ٢٠٠ من خريجي المدرسة التجهيزية وغيرهم.. ومدة الدراسة فيها ثلاث أو أربع سنوات.. يتلقى فيها الطلبة فنون الفروسية.. وركوب الخيل.. واللغات علاوة على باقي العلوم العسكرية المتقدمة.. وكان لهم مدرب ألماني اسمه « الهر .. م .. بير » لتدريبهم على فنون الفروسية ..

مدرسة الطب والمستشفي العسكري

شيدت بين منطقتي الخانقاه وأبو زعبل.. وعهد بشئونها إلى الدكتور «كلوت بك» رئيس أطباء الجيش آنذاك.. والتحق بها ١٤٠ طالباً يدرسون الطب.. وخمسون لدراسة فن الصيدلة.. وكان بالمستشفي ٧٣٠ سريراً للمرضى من رجال الجيش.. وأُنشِئَ مجلس صحي للإشراف على الصحة العامة.. واختيار الأطباء والصيادلة للجيش بعد امتحانهم..

مدرسة الخانقاه..

وفي عام ١٨٣٢ أنشأ «محمد علي» في الخانقاه مدرسة جديدة.. عهد بإدارتها إلى الضابط « يولو نينو » وهو من ضباط نابليون.. ثم تولى إدارتها بعده ضابط آخر كان يُدعى «يوسف أغا» وذلك تبعا لمقتضيات التوسع في الجيش.. وانتقلت بعد سنتين إلى دمياط.. وكان عدد طلبتها في البداية ٤٠٠ من المصريين يمكثون فيها ثلاث سنوات.. ويتعلمون فيها التمرينات والإدارة العسكرية واللغات العربية والتركية والفارسية والطبوغرافيا ورسم الخطط والأسلحة والشئون الإدارية والرسم والهندسة والرياضة البدنية.

مدرسة الطب البيطري

تم بناؤها عام ١٨٣٧بجوار المستشفي العسكري.. وقد تولى إدارتها مصريون بعد المسيو «هامون» وتم تخصيصها لدراسة الطب البيطري.. والتحق بها في الدفعة الأولى ١٢٠ طالباً.. وفي عام ١٨٤٩ نُقِلَت هذه المدرسة إلى شبرا..

مدرسة الهندسة العسكرية

أُنشِئت عام ١٨٤٤ في بولاق وكان طلبتها يتخصصون في أعمال هندسة الترع والألغام والكباري والطرق والاستحكامات..

مدرسة الموسيقى العسكرية

أُنشِئت في قرية جهاد أباد.. وكان عدد طلبتها ٢٠٠ ثم نقلت إلى الخانقاه.. وأنشئت مدرس أخرى للموسيقى في القلعة وأثر النبي ..

مدارس الوحدات ومحو الأمية

عنى «محمد علي» بأمر تعليم جنود الجيش.. فألحقت مدارس بوحدات الجيش والأسطول المختلفة لتعليم القراءة والكتابة والحساب للجنود.. وكانت الحكومة تشجع المتفوقين منهم بترقيتهم قبل أقرانهم ..

البعوث العسكرية.. تمصير التعليم في الجيش المصري

استشعر «محمد علي» بعد أن بدأت كل هذه المدارس تؤتى ثمارها أن النظام العسكري الحديث في مصر ى.. أنه لا يزال بحاجة إلى الأجانب الذين استقدمهم لمعاونته في هذا الشأن.. ولكن طموحه دفعه إلى التفكير في تمصير التعليم في الجيش المصري.. فعمل على إيفاد البعوث من الشبان الذين أهلتهم معاهد العلم في مصر إلى أوروبا ليتموا دراستهم بها.. ويعودوا لتولى المراكز الهامة في التعليم العسكري..

الصحافة العسكرية

عنى «محمد علي» بالصحافة العسكرية والمطبوعات فأنشأ المطبعة الأميرية أو مطبعة صاحب السعادة في عام ١٨١٩ وكانت تقوم بطبع ما يحتاج إليه الجيش من الكتب اللازمة للتعليم.. ونشر القوانين والتعليمات العسكرية.

جريدة الوقائع المصرية

ثم أصدر «محمد علي» جريدة الوقائع المصرية في عام ١٨٢٩ وكانت توزع على ضباط الجيش.

مطابع أخرى

وبجانب مطبعة بولاق كانت للجيش مطابع خاصة وأهمها مطبعة المدفعية بطره.. وأخرى لمدرسة الطب في أبو زعبل.. وثالثة في مدرسة الفرسان بالجيزة.. ومطبعة القلعة الخاصة « بجورنال الخديوي ».

صناعة الورق «الكاغدخانة»

ومن أجل هذه المطابع حاول «محمد علي» أن ينشئ صناعة الورق على ضفاف النيل كما كانت أيام الفراعنة.. واستطاع أن يجعله صناعة وطنية فيما بعد.. وكان المصنع «الكاغدخانة» يقوم بتصنيع بعض أصناف الورق.. وكانت مصر تصدر منه إلى المغرب واليمن والحجاز.

كيف كان يتم التجنيد؟

كانت حركة التجنيد آنذاك قائمة على قدم وساق في جميع أنحاء البلاد.. ولم يأت عام ١٨٢٣ حتى تألفت الفئات الأولى في الجيش المصري.. وُعِينَ الألف ضابط الذين تم تدريبهم بمدرسة أسوان الحربية ضباطاً فيها..

واستمرت سياسة التجنيد والتعليم في تزايد واتساع حتى وجد في معسكر بنى عدى في يوم من الأيام المجيدة ثلاثون «أورطة»[1] بكل واحدة منها ٨٠٠ جندي..

وقد برهن الجنود المصريون في جميع المعارك الأولى التي اشتركوا فيها على أنهم مقاتلون أكفاء ومن الطراز الأول.. وأبدوا من البسالة والإقدام والصبر ما أشاد به المؤرخون الأجانب قبل المصريين.

وقد أراد «محمد علي باشا» أن يعرب عن تقديره لهم فأنعم بالميداليات الذهبية والفضية على كثير من جنود الآلاي الثاني بعد عودته من حرب الحجاز في أكتوبر ١٨٢٦ تشجيعاً لهم وتقديراً لبسالتهم.. وأمر بأن يقيم الآلاي في القاهرة ليكون حامية لها..

الصناعات الحربية

بعد ذلك رأى «محمد علي» أن الجيش المصري حديث لن يكتمل كيانه إلا بأن يجد كفايته من السلاح والذخيرة والمعدات في داخل البلاد.. لأن الاعتماد على جلب العتاد من الخارج يعرض قوة الدفاع الوطني للخطر.. ويجعل الجيش والبلاد بأسرها تحت رحمة الدول الأجنبية التي تتحكم في تموينه بهذه المستلزمات الضرورية لكيانه..

لذا هدفت سياسته إلى إنشاء مصانع الأسلحة في مصر كي تكون مطالب الجيش منها متوفرة دوماً ومناسبة لما يتطلبه التسليح.. وسار على النهج التالي:

ترسانة القلعة

أول ما فكر فيه هو إنشاء ترسانة القلعة لصناعة الأسلحة وصب المدافع.. وقد اتسعت أرجاؤها ولاسيما بعد عام ١٨٢٧ وكان أهم مصانع الترسانة.. وأكثرها عملاً هو معمل صب المدافع الذي كان يصنع كل شهر ثلاثة مدافع ميدان.. أو

(١) جاءت هذه التسمية بهذا الشكل في كافة كتب التاريخ التي تتحدث عن تكوين الجيش المصري في عهد محمد علي ومن تلاه.. وبالبحث عن معناها تبين أنها تعني فيلق.. أو بالمعنى الدارج حالياً «كتيبة» أو «لواء» والقياس هنا مع الفارق.. ولكن نسوقه لتوضيح المعنى للقارئ.

أربعة من عيار ثمانية أرطال.. وصُنِعَت فيه مدافع الهاون عيار ٨ بوصة وعيار ٢٤ بوصة.. وكان يشرف على إدارة هذه الترسانة أحد ضباط المدفعية الأكفاء وهو اللواء «إبراهيم باشا» أدهم»..

وكان يعمل بمصانع الأسلحة حوالي «٩٠٠» عامل وكانت تنتج في الشهر الواحد من ٦٠٠ إلى ٦٥٠ بندقية.. وكانت البندقية الواحدة تتكلف وقتها ما يعادل ١٢ قرشاً..

وفي مصنع آخر كانت تصنع زنادات البنادق.. وسيوف الفرسان.. ورماحهم وحمائل السيوف.. وألجمة وسروج الخيل وملحقاتها.. وكذلك الصناديق التي كانت توضع بها المفرقعات.. ومواسير البنادق.

ولما زار المارشال «مارمون» هذه الترسانة عام ١٨٣٤ أُعجب بنظامها وأعمالها وقال عنها «أن معامل القلعة تضارع أحسن معامل الأسلحة في فرنسا من حيث الإحكام والجودة والتدبير» ..

مصنع الأسلحة بالحوض المرصود

لم يكتف «محمد علي» بمصانع القلعة بل أنشأ في الحوض المرصود عام ١٨٣١ معملاً لصنع البنادق بلغ عدد عماله ١٢٠٠ وكان ينتج ٩٠٠ بندقية في الشهر الواحد على الطراز الفرنسي.

وكذلك أنشئ مصنعاً ثالثاً للأسلحة في ضواحي القاهرة.. وكانت المصانع الثلاثة تصنع في السنة ٣٦.٠٠٠ بندقية عدا الطبنجات والسيوف..

ترسانة السفن الحربية بالإسكندرية

وبالطبع لم يغفل «محمد علي» عن ضرورة إنشاء ترسانة لصنع السفن الحربية ومعدات الأسطول.. فأنشأ ترسانة بولاق لصنع السفن الكبيرة.. ثم أعقبها بأخرى أسماها «دار الصناعة الكبرى للسفن الحربية» بالإسكندرية..

معمل البارود ..الكهرجالات:

أقام «محمد علي» معملاً للبارود بطرف جزيرة الروضة بعيداً عن العمران.. وقد تعددت معامل البارود في مصر بعد ذلك.. وكان إنتاجها عام ١٨٣٣ كالآتي:

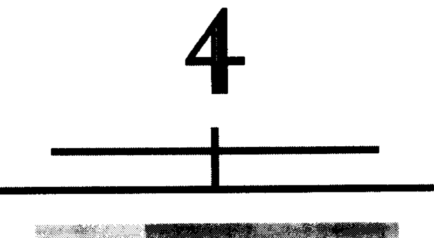
معمل القاهرة	٩٦٢١ قنطارا
معمل الأشموتين	١٥٣٣ قنطارا
معمل أهناس	١٢٥٠ قنطارا
معمل البدرشين	١٦٨٩ قنطارا
معمل الفيوم	١٢٧٩ قنطارا
معمل الطرانة	٤١٢ قنطارا
مجموع الإنتاج	١٥٧٨٤ قنطارا

وقد أعد «محمد علي باشا» أماكن خاصة لتخزين البارود والقنابل في سفح المقطم..

صناعات مساعدة أخرى للجيش

ولكي يمد «محمد علي باشا» الجيش بكل حاجياته.. أنشأ ورش للحدادة.. ومصانع الحبال اللازمة للسفن الحربية والتجارية.. ومعمل سبك الحديد ببولاق.. ومصنع ألواح النحاس والصابون ودبغ الجلود برشيد.. وكذلك مصانع للغزل والنسيج بالخرنفش عام ١٨١٩ وبولاق.. ومصانع الجوخ في بولاق للملابس.. ومصنع للطرابيش بفوه..





4



«محمد علي».. والصناعة!!

قبل «محمد علي» كان الفلاحون المصريون رجالاً ونساء بمختلف أعمارهم يعملون عنوةً وبالسُخرة في المصانع.. وبالطبع كانت أجورهم متدنية للغاية.. بل وتُخصم منها الضرائب.. وكانوا كثيراً ما يحاولون الفرار.. لذا كان أصحاب المصانع يحجزونهم في سجون داخل المصانع.. ومن كان ينجح منهم في الفرار تقبض عليهم الشرطة وتعيدهم للمصانع ثانيةً..

واتبع «محمد علي» في البداية سياسة الاحتكار.. وأصبح العمال يعملون في مصانعه.. وأنشأ مصانع جديدة.. وأصبحت هذه المصانع في البداية يتولى إدارتها يهود وأقباط وأرمن.. ثم لجأ لإعطاء حق امتياز إدارة هذه المصانع للشوام.. واستثنى المنسوجات حيث كانت تباع في وكالاته الخاصة[1] حيث كانت الحكومة تشتري غزل الكتان من الأهالي.

ومن بين الصناعات التي كانت رائجة في مصر واحتكرها محمد علي صناعة الحصير.. حيث كانت هذه الصناعة منتشرة في القرى إلا أن «محمد علي» احتكرها وقضى على هذه الصناعات الصغيرة لصالحه..

وقد انقسمت الصناعات الجديدة التي أدخلها «محمد علي باشا» إلى مصر إلى ثلاثة أقسام:

الأول: وهي الصناعات التجهيزية وتمثلت في صناعة آلات حلج وكبس القطن وفي مضارب الأرز ومصانع تجهيزه.. وتجهيز النيلة للصباغة.. ومعاصر الزيوت.. ومصانع لتصنيع المواد الكيماوية.. كما قام «محمد علي» باستبدال الطرق البدائية في الصناعة.. وأدخل بدلاً منها الآلات سواء الميكانيكية أو التي تدار بالبخار والمكابس.

الثاني: وهي الصناعات التحويلية المتعلقة بالغزل والنسيج بكافة أنواعه..

الثالث: وهو الصناعات الحربية وقد تحدثنا في الفصل السابق عنها بالتفصيل ضمن حديثنا عن كوين الجيش المصري.

(١) تماماً مثل القطاع العام فيما بعد.

صناعات كبرى

وتكتسب تجربة التحديث الصناعي في عصر «محمد علي» أهمية خاصة لكونها كانت محاولة مبكرة وواقعية لتحديث الصناعة من أجل خلق حالة اكتفاء ذاتي للمجتمع وللدولة المصرية.. في سبيل هدف محمد علي الأسمى وهو الاستقلال وبناء صرح حضاري متميز في مصر..

وشهدت الصناعات الكبرى نهضة ضخمة بعد إنشاء المصانع[1] التي تدار بالآلات.. ولم يقتصر الأمر على إنشاء مصانع حربية وبحرية.. لكن مصر شهدت أيضاً ظهور صناعات الغزل والنسيج ومعامل الحديد والنحاس في نفس الوقت بالشكل الذي تحدثنا عنه في موقعه من فصل تأسيس الجيش.

فابريقة الغزل والنسيج

من أول الصناعات التي أنشأها «محمد علي» فابريقة الغزل والنسيج في الخرنفش عام ١٨١٦حيث استدعى لها فنيين من فلورنسا تخصصوا في غزل خيوط الحرير لصناعة القطيفة والساتان الخفيف.

وتم نقل الأنوال إلى فابريقة أخرى ووضعت محلها مغازل القطن وماكينات صنع الأقمشة القطنية.

فابريقة «مالطة»

ثم أنشأت الحكومة بعد ذلك في بولاق فابريقة «مالطة» نسبة إلى العدد الكبير من العمال المالطيين الذين كانوا يعملون فيها.. وأُعدت لغزل القطن ونسج أقمشة مختلفة الأنواع.. وكان فيها ورشة لإصلاح آلاتها وآلات مصانع الوجهين البحري والقبلي.. إضافة إلى ورشة للنجارة وورشتين للخراطة.. وكان بالقرب من الفابريقة ٨٠ ورشة حدادة لصنع مراسي المراكب.. ومعمل لسبك الحديد.

---

(١) أو كما كان يُطلق عليها وقتها الفابريقات ومفردها فابريقة.

وبالقرب من هذه الفابريقة كان هناك مصنعان آخران لغزل القطن هما فابريقة إبراهيم أغا.. وفابريقة السبتية.

وعلى شاطئ النيل بين بولاق وشبرا تم إنشاء مبيضة لتبييض الأقمشة التي تصنع في الفابريقات بالأساليب العلمية الحديثة في حينها..

وفي حي السيدة زينب تم إنشاء معمل لصنع أمشاط الغزل.. إضافة إلى فابريقة نسيج.

وكانت هناك مصانع للجوخ والحرير والحبال ونسيج الصوف والطرابيش.. إضافة إلى مصانع الغزل والنسيج في الوجه البحري ومصانع الغزل ونسيج الكتان وسبك الحديد وصناعة ألواح النحاس ومعامل السكر في الوجه القبلي.

وكذلك تأسيس مصانع الصابون ودبغ الجلود في رشيد ومصنع للزجاج والصيني وآخر للشمع.

بداية التصدير

كانت نتيجة التوسع في صناعة الغزل والنسيج أن بدأ تصدير جزء من القطن المغزول إلى إيطاليا وألمانيا.. وتصدير أقمشة إلى سوريا والأناضول.. وقلت الواردات من الأقمشة الأجنبية.

نهضة الصناعات البحرية

كان الدافع وراء الاهتمام البالغ بالفنون البحرية تخطيط «محمد علي» لخوض حروب تحتاج إلى نقل جيوش عن طريق البحر.. وبدأ تنفيذ النهضة البحرية بتجديد دار الصناعة «الترسانة» في بولاق أوائل عام ١٨١٠ حيث أمكن إنشاء ١٨ سفينة كاملة العدة خلال ١٠ أشهر لتنطلق في البحر الأحمر وفي النيل وفي البحر المتوسط.

بين الحاج عمر وسيرزي

بعد أن تأكد «محمد علي» من أهمية الأساطيل البحرية.. بدأ إنشاء قوة بحرية في البحر المتوسط بإنشاء أسطول جديد بأيد مصرية حتى لا تكون مصر عالة على البلدان الأوروبية.. وفكّر في إنشاء ترسانة كبرى في الإسكندرية مستعينا بمهندس فرنسي هو «سريزي» المهندس البحري من طولون.. وكان صاحب خبرة في بناء السفن والأحواض والترسانات وجاء إلى مصر عام ١٨٢٩ وكانت الترسانة القديمة في الإسكندرية هي نواة الترسانة الجديدة التي ترأسها «الحاج عمر» من أهالي الإسكندرية وكان مهندساً بارعاً في فن بناء السفن.. وتم بناء الترسانة عام ١٨٣١.

ووجد سريزي من ذكاء المصريين وحسن استعدادهم وعشقهم للصناعة عوامل صالحة لبناء الترسانة وإنشاء السفن الحربية وسفن النقل.. فتولى تدريبهم بنفسه.. وأصبحت الترسانة.. التي بلغ عدد العاملين فيها ٨٠٠٠ عامل معهداً لتعليم المصريين بناء السفن وترميمها وتجهيزها بما يلزمها من آلات.. حتى استغنت مصر عن شراء السفن من الخارج..

وتم إنشاء معسكر لتعليم البحارة من الجنود الأعمال البحرية.. ومدرسة بحرية لتخريج الضباط البحريين.. وكان يتم اختيار بعضهم لإرسالهم إلى فرنسا وإنجلترا لإتمام علومهم وممارسة الفنون البحرية على متن السفن الحربية الأوروبية.

وأدى خريجو المدرسة والبعثات البحرية خدمات جليلة للبحرية المصرية.. فتم تعيين بعضهم قباطين للسفن الحربية لقيادتها وتدريب بحارتها وترجم بعضهم مؤلفات عدة عن البحرية.

وصار العمال الذين خرجوا من صفوف الفلاحين أخصائيين في الفروع والفنون التي توفروا عليها.. كلّ فيما تخصص فيه.. ولم يقتصر الأمر على تدريبهم على

أعمال الخشابين والنجارين والحدادين بل تخصص كثيرون منهم في أعمال بلغت غاية الدقة.. فنجحوا في صنع آلات بحرية كالبوصلات والنظارات.

وهكذا كانت تتكامل في عهد محمد علي دوائر مشروع النهضة الصناعية في مختلف المجالات بالاستعانة بالأجانب وتدريب الكوادر الوطنية وإتاحة الفرصة لها لاكتساب خبرة مباشرة في العمل ومن خلال البعثات.. لتقود العمل في مجالات التحديث.

وكانت نتيجة النهضة الصناعية انتعاش تجارة مصر الخارجية مما أتاح للحكومة أرباحاً هائلة لأنها كانت تحتكر التجارة الخارجية كلها.. وساعد على التجارة الخارجية إنشاء أسطولين في البحرين الأحمر والأبيض.. إضافة إلى إصلاح ميناء الإسكندرية.

بدأ التحديث في عصر «محمد علي» مرحلة الانهيار بعد أن تصدت دول أوروبا بشكل مباشر لهذه النهضة تحت ستار خشيتها من أن ينطلق «محمد علي» من مصر بانياً إمبراطورية قد لا يسهل التغلب عليها.. فاتفقت إنجلترا والنمسا وروسيا وبروسيا «ألمانيا» على تهديد «محمد علي» إذا لم يقبل شروط الصلح التي وضعتها تركيا.

السياسة الداخلية

اعتبر «محمد علي باشا» نفسه وأسرته هم ملاك كل الأراضي الزراعية في مصر.. وهو ما رسخ تاريخياً مفهوم ما عُرِفَ ب «الإقطاع» وكان يعنى الحصول على حق الملكية التامة لكل الأراضي بموجب قانون خاص أصدره سنة ١٨٤٢ وأعقب هذا القانون عدة لوائح أصدرها خلفاء «محمد علي».. أدت إلى مزيد من الترسيخ لمفهوم النظام الاحتكاري.

لكن بدايةً من سنة ١٨٦١ أصدر الخديوي سعيد أوامره بيع الأراضي الخِراجية لمن يرغب في شرائها.. وذلك بهدف مواجهة الأزمات المالية التي شهدها عصره.. ثم شهد عصر إسماعيل تطوراً مهماً بالنسبة لحقوق الملكية الفردية للأطيان

الخراجية.. إذ دفعته الأزمة المالية التي عاشها نظامه.. إلى إصدار لائحة تعرف باسم «لائحة المقابلة» التي أسهمت في تحول جزء كبير من الأطيان الخِراجية.. في أغسطس ١٨٧١ إلى ملكية خاصة.

ومع ظهور تشريعات أخرى انتهي تماماً نظام الإقطاع الذي عاشته مصر في ظل الحكم المملوكي.. ومعه أيضاً نظام الاحتكار الذي صنعه «محمد علي».. وهو أمر أدى إلى فتح الباب أمام استثمارات أجنبية.. دعم الاحتلال البريطاني لمصر بدايةً من سنة ١٨٨٢.

ومن عهد «محمد علي».. وتحديداً منذ عام ١٨٣٧ وحتى قيام ثورة ١٩٥٢ تركزت الملكيات الزراعية الكبيرة في نحو ٢٧٤٠ أسرة[1]..

«محمد علي» يهادي بأراضي مصر

وقد ورث «محمد علي» من النظم القديمة إهداء معاونيه أو من يتوسم فيهم النبوغ في خدمة دولته الأراضي والإقطاعيات فقد أعطى مصطفي بهجت باشا عهدة قريتين يبلغ زمامهما ١٨٠٠ فدان.. ثم عاد عباس باشا ليمنحه ٤٠٠ فدان أخري.. وكان هناك ابن فلاح فقير يدعى حامد أبو ستيت.. لكنه تعلم وتوظف وترقي في سلك الوظائف حتى أصبح حاكماً لمحافظة جرجا.. ثم محافظة قنا.. وكان يمتلك ما يزيد على ٧٠٠٠ فدان بالإضافة إلى ١٠٠ فدان مزروعة نخيلاً.

مأساة الاحتكار

نتج نظام الاحتكار من طبيعة حكم «محمد علي» الفردية المطلقة.. فرغم أنه تولى السلطة تبعاً لموافقة السلطان العثماني بتعيينه والياً على مصر بناء على اقتراح الشيوخ والأعيان المصريين.. الذين ساعدوه أيضاً في القضاء على سلطة المماليك.. إلا أنه انفرد بعد ذلك بالسلطة ومارس الحكم كمالك أوحد لكل مصر.. وأدار البلاد بطريقة المالك الذي يرعى ويستثمر أمواله.

---

(١) بحسب ما ذكره كلٌ من الدكتورين رؤوف عباس وعاصم الدسوقي في كتابهما المشترك عن كبار الملاك والفلاحين في مصر.

لذا نرى أن العيب الرئيسي في هيكل البناء الصناعي الذي وضعه محمد علي آنذاك تمثل في نظام الاحتكار الذي شمل الزراعة والتجارة.. والذي لا يتفق مع ما كان يبتغيه محمد علي من تقدم صناعي وزراعي وتجاري.. وصار «محمد علي» عن طريقه المالك الوحيد لأراضي مصر.. والتاجر الوحيد لحاصلاتها.. والصانع الوحيد لصناعاتها.. أغرته بذلك الأرباح الطائلة.. وأدى هذا الاحتكار إلى أضرار بالغة للاقتصاد في مصر.

وإذا كانت النهضة الصناعية قد أدت إلى ظهور طبقة عمالية ماهرة شاركت في التقدم الصناعي.. فإن نظام الاحتكار لم يكن في صالح عمال الصناعات اليدوية في الصناعات الصغيرة التي كانت موجودة قبل عصر «محمد علي».. لذا تم إغلاق معظم المصانع التي أنشأها «محمد علي» لأن إداراتها كانت في أيدي موظفي الحكومة.. ولم يكن الموظفون أمناء ولا أكفاء لإدارة هذه الصناعات ولا غيورين على عملهم فيها.. فأدى سوء الإدارة في معظم المصانع وضعف الرقابة على الموظفين إلى تداعيها.

ونرى الإمام «محمد عبده»[1] فيما بعد ينتقد في كتاباته هذا النظام الاحتكاري.. ويؤكد على حسب تعبيره: أنه شل عمليات التطور الطبيعية التي كانت موجودة خلال الحكم المملوكي قبل عصر «محمد علي».. الذي جمع كل السلطات في يده ومنع جميع المبادرات الفردية.

---

(١) من كبار الدُعاة والأئمة الإسلاميين في العصر الحديث.. عُرِفَ بفكره الإصلاحي ودعوته للتحرر من كافة أشكال الاستعمار الأجنبي ومحاولاته المستمرة من أجل الارتقاء بالمؤسسات الإسلامية والتعليمية.. وسعيه الدائم للإصلاح والتطوير في الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية.. بالرغم مما تعرض له من سَجن ونفي.. أصبح مفتياً للبلاد.. و توفي في الإسكندرية في يوليو ١٩٠٥ قام محمد عبده بكتابة وتأليف وشرح عدد من الكتب نذكر منها "رسالة التوحيد".. تحقيق وشرح "البصائر القصيرية للطوسي".. تحقيق وشرح "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" للجرجاني.. كتاب "الإسلام والنصرانية بين العلم والمدنية" وفي هذا الكتاب قام الإمام محمد عبده بإجراء مقابلة بين الدينين الإسلامي والمسيحي وأثرهما في العلم والمدنية.. تقرير إصلاح المحاكم الشرعية سنة ١٨٩٩

خسائر كبيرة

ومن ناحية أخرى كانت حكومة محمد علي تستورد الفحم والآلات من أوروبا فزادت النفقات وقلت الإيرادات بمرور الزمن مما سبب في وجود خسائر كبيرة.. وأدى إنقاص الجيش والبحرية في أواخر عهد «محمد علي» إلى تعطيل المصانع المرتبطة بالصناعات الحربية.

معاهدة لندن

وفي عام ١٨٤١ أملى الحلفاء شروطهم التي أسموها معاهدة لندن على «محمد علي».. وأنذروه بأنه في حالة الرفض سيقذفون الإسكندرية بالقنابل.. واضطر «محمد علي» إلى التوقيع على المعاهدة التي منحته حق حكم مصر والسودان هو وذريته لكنها حددت جيشه بـ ١٨ ألفاً فقط.. وحظرت عليه بناء سفن بحرية.

تفاصيل ودوافع تلك المعاهدة

فماذا عن تفاصيل ودوافع تلك المعاهدة؟

يمكننا وصف تلك المعاهدة بأنها عبارة عن معاهدة حلف دفاعي ضد محمد علي.. في البداية كانت بين الدولة العثمانية و ٤ دول أوروبية «روسيا.. بروسيا.. بريطانيا..النمسا» ثم انضمت فرنسا سنة١٨٤١ إلى المعاهدة.

وبناءاً على هذه المعاهدة ذلك أصبحت المضائق العثمانية تحت تصرف جيوش هذه الدول وتزايدت حدة التدخل الأجنبي.. فتراجعت سيادة الدولة العثمانية على ممتلكاتها.

ووافق محمد علي مرغمًا على هذه المعاهدة متجرعاً مرارة قهر الطموح.. وعمد بعد المعاهدة إلى تجنب النفوذ الأجنبي ووضع يده على المواصلات التي أنشأتها الشركات الإنجليزية وجعلته يتحاشى إنجلترا بفرنسا وفرنسا بإنجلترا محاولاً التخلص منهما جميعاً.. بل إن محمد علي عارض شق قناة السويس حتى لا يمكن بريطانيا من السيطرة على مصر.. وتكشف عن ذلك محاوراته مع

القنصل الفرنسي «بينيدتي».. ففي مذكرة الأخير المؤرخة في أول مارس ١٨٤٣ شرح لحكومته معارضة محمد علي لحفر قناة السويس يرتاب في استدعاء الأوروبيين إلى مصر ويظن أنه حالما يفتح البرزخ فسوف يتعاظم اشتهاء إنجلترا في تملك إمبراطوريته.. وفي ختام الأمر فإنه يرتاب في عدم كفاية قواته العسكرية للدفاع عن موضع هام للغاية.. وعدم كفاية موارده المالية لتنفيذ مشروعات جديدة كبيرة.. والواقع انه ابتداء من معاهدة لندن في ١٥ يوليو ١٨٤٠ بين النمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا من ناحية وجناب الباب العالي السلطان العثماني من ناحية أخرى.. يدخل تاريخ المجتمع المصري في إطار الاستعمار ثم الإمبريالية.. وكانت الحكومة البريطانية هي التي تحرك خيوط المؤامرة في نطاق التقارب بين إنجلترا وروسيا.. و ذلك لأنهم رأوا أن احتكارات محمد علي تمثل حجر الزاوية في قوته الاقتصادية.. وتلك القوة يجب وضعها في الإطار العام لإنجازات محمد علي.. فكان التصنيع وهيمنة الدولة على مختلف النشاطات الاقتصادية في خدمة الجيش الرابض على حدود الإمبراطورية من اليمن إلى السودان.. ولكن الموقف تغير تماماً بصدور مرسوم ١٣ فبراير ١٨٤١ الذي استهدف الجيش المصري - مباشرة - فقضى بتقليصه إلى ١٨ ألف جندي بالإضافة إلى ٢٠٠٠ متدربين في تركيا.

ولم يبق أمام محمد علي بعد القضاء على الاحتكارات إلا أن يتقرب من الباب العالي بهدف إيقاف الضغط الأوروبي.. هذا من ناحية.. ومن ناحية أخرى أن يفتح أبواب مصر للتجارة الحرة.. وقد كان.. ففتحت مصر أبوابها للبضائع الأوروبية وسرعان ما قلّت قدرة الصناعات المحلية على مواجهة هذه المنافسة التي لم تكن منتظرة قبل عام ١٨٣٨ ولم تستطع هذه الصناعات المحلية الاستمرار بعد وفاة محمد علي.. وهكذا أصبح الباب مفتوحاً أمام التدخل الأجنبي..

وقد سار ابنه إبراهيم الذي خلفه لفترة قصيرة على نفس الطريق حتى وفاته في ١٠ نوفمبر عام ١٨٤٨..

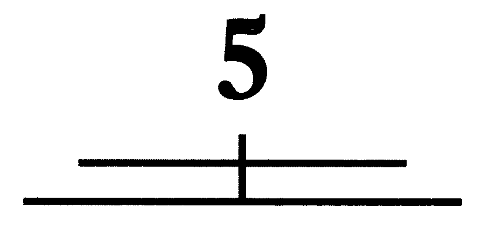
إذن معاهدة ١٨٤٠ كانت عبارة عن مؤتمر خاص عقدته تلك الدول الأوروبية للتخلص من محمد علي بعد نجاحه في الزحف على دول الشام وانتصاره على الوهابيين فخافوا من نفوذه وعقدوا هذا المؤتمر محاولين عزله عن حكم مصر إلا أنهم فشلوا في ذلك.

كامب ديفيد الأولى[1]

ويحلو لبعض المحللين التاريخيين إطلاق تسمية «كامب ديفيد الأولى» على تلك المعاهدة التي تم توقيعها في ١٥يوليو ١٨٤٠ وكأنهم كانوا يقولون لـ محمد علي: «لك أن تحكم مصر كما تشاء. وتورثها إن رغبت.. ولكن عليك أن تبقى بمصر داخل حدودها.. إياكم والعرب والمسلمين»



(١) في عام ١٩٧٩ وقعت مصر مع إسرائيل تلك المعاهدة المشئومة بدعوى الصلح واستردت بناءاً عليها سيناء - ناقصة السيادة - في مقابل أن تكف يدها عن فلسطين وأن تنسحب داخل حدودها وتخرج من حلبة الصراع مع إسرائيل وتعترف بها وتقيم معها علاقات طبيعية بما يعنيه ذلك من الاعتراف لها بحقها في أرض فلسطين.. ليس ذلك فحسب بل و تم النص صراحة على أن لهذه المعاهدة الأولوية على أي اتفاقيات أخرى بين مصر والدول العربية. .. وهو نفسه ما حدث في معاهدة لندن ١٨٤٠ حيث كان الهدف الأساسي هو عزل مصر عربياً والثمن هو حكم مصر ..اختلفت القوى وتغيرت الدول.. وتبدل الأشخاص ومضى الزمن ولكن المشروع الاستعماري لم يتغير.. وما حدث بعد المعاهدتين يؤكد ذلك : فبعد أقل من خمسين عاماً على معاهدة لندن وفي ظل نصوصها وتطبيقاتها نجحت بريطانيا في احتلال مصر.. ونجحت في إخضاعها وإبقاءها تحت سيطرتها سنوات طويلة تقترب من ثلاثة أرباع القرن .. وأعيد ترتيب المنطقة استعماريا .. وزرعت إسرائيل أثناء هذه السنوات عنوة ورغماً عن أنف جميع العرب.. وبعد معاهدة كامب ديفيد وفي ظل نصوصها .. شرعت إسرائيل في إعادة ترتيب المنطقة فاجتاحت بيروت في ١٩٨٢ وقامت بإخراج وطرد القوات الفلسطينية منها إلى تونس واليمن .. ليصبحوا ولأول مرة منذ بداية الصراع بعيداً عن حدود أرضهم المحتلة.. ثم ضاعت العراق.



5



«محمد علي».. وسياسته التعليمية!!



اهتم «محمد علي» بالتعليم بدرجة لم يسبقه إليها أحد ممن حكموا مصر في عصرها الحديث.. وذلك لإدراكه أن شعوب أوروبا لم تنهض إلا بنهضة التعليم.

فحرص على إنشاء التعليم النظامي الواضح المعالم لأول مرة في مصر.. وأنشأ العديد المدارس[1] لتعليم كافة أبناء الشعب المصري.. وكان في مقدمتها كما ذكرنا من قبل المدارس الحربية بتعدد أسماءها واختصاصاتها.

المدارس الطبية

في مجال التعليم الطبي كان هناك العديد من المدارس مثل مدرسة الطب أو مدرسة «القصر العيني».. ومدرسة «الطب البيطري» ومدرسة «الولادة» التي استجلب لها القابلات اللائي كن يعملن بتلك المهنة آنذاك ليتم تدريبهن على أسس علمية صحيحة.. وإعطائهن شهادات معتمدة في نهاية الدراسة..

مدارس أخرى

وكذلك كان هناك مدارس أخرى متعددة مثل:

- مدرسة الزراعة..
- مدرسة الطوبجية بشبرا.. التي تحولت بعد ذلك إلى مدرسة المهندسخانة وهي الآن حالياً كلية الهندسة.. وكان الغرض من إنشائها عسكرياً بالأساس.. هذا لتزويد الجيش المصري بالبنائين المحترفين اللازمين لإنشاء الحصون وتطوير العمارة وما إلى ذلك..
- مدرسة الألسن وكان موقعها هو مكان فندق شبرد القديم على بركة الأزبكية الذي كان بالأساس منزل «محمد بك الألفي».. وهو نفس البيت الذي سكنه نابليون بونابرت في أثناء الحملة الفرنسية.
- مدرسة الألسن التي أنشأها «محمد علي» لأنه لاحظ أن أبناء الأرمن والأقباط واليهود.. الشوام يستطيعون الترقي في أعلى المناصب أو إنعاش

(١) لم تكن مدارس بالمعنى المفهوم بل كانت أقرب للمفهوم الحالي للكليات الجامعية.

تجارتهم وازدهارها لقدراتهم اللغوية الجيدة.. وإلمامهم بالكثير من اللغات مما يجعلهم يحسنون التعامل مع الجاليات الأجنبية في مصر والتقرب منهم سواء بغرض التجارة أو التعليم.

إنشاءه ديوان المدارس

وفي عام ١٨٣٧ أنشى «محمد علي» ديوان المدارس وهو يعادل حالياً وزارة التربية والتعليم وأسند رئاسته إلى «مصطفي بك مختار» وكان أحد أعضاء بعثاته الأولى.. وكان من أعضاء الديوان الشيخ «رفاعة الطهطاوي»(١).. وقد وضع الديوان لائحة لنشر التعليم الابتدائي حيث أنشئت خمسون مدرسة ابتدائية أربعةٌ منها بالقاهرة.. وواحدة بالإسكندرية.. والباقي تم توزيعهم في مختلف أنحاء القطر المصري.

وكان التعليم في كافة مراحله بالمجان وكانت الحكومة تنفق على التلاميذ من مسكن وغذاء وملبس وخلافه.. ولما كان الأهالي نافرين من إدخال أبنائهم المدارس فقد لجأت الحكومة إلى إدخالهم بالقوة إلى أن اقتنع الأهالي بجدوى التعليم.

المدارس العليا

ويمكن أن نلخص قائمة المدارس العليا التي أنشأها محمد علي فيما يلي:

- مدرسة الهندسة بالقلعة «١٨١٦»
- مدرسة المهندسخانة ببولاق «١٨٣٦»
- مدرسة الطب «١٨٢٧» في أبى زعبل
- مدرسة الصيدلة « ملحقة بمدرسة الطب» –.. قد نقلت مدرسة الطب إلى «قصر العيني» سنة ١٨٣٧.

(١) يذكر التاريخ الحديث لهذا الرجل رائد التحضر العلمي في مصر أنه كان صاحب الشرارة الأولى لبداية رحلة المرأة المصرية مع عصر التنوير في عهد (محمد علي باشا) عندما صدر أحد الكتب نادى فيه بضرورة تعليم البنات مثل البنين ترجمة كاملة لرفاعة الطهطاوي في فصل رجال حول محمد علي.

- مدرسة القابلات.. الولادة..
- مدرسة الألسن «١٨٣٦»..
- مدرسة المعادن بمصر القديمة «١٨٣٤»..
- مدرسة المحاسبة بالسيدة زينب «١٨٣٧»..
- مدرسة الفنون.. الصنائع «١٨٣٩»..
- مدرسة الزراعة بنبروه.. ثم نقلت إلى شبرا سنة ١٨٣٩ ..
- مدرسة الطب البيطري برشيد ثم نقلت إلى أبى زعبل ثم إلى شبرا..
- المدرسة التجهيزية «الثانوية» بأبي زعبل.. ثم نُقِلَت إلى الأزبكية..
- المدرسة التجهيزية بالإسكندرية..

هذا بخلاف المدارس الحربية التي تحدثنا عنها بالتفصيل..

البعثات العلمية

قبل انطلاق البعثات العلمية الكبرى إلى الغرب.. استشعر «محمد علي» أهمية نقل معارف أوروبا وخبرة علمائها ومهندسيها ورجال الحرب والصناعات فيها بشكل مباشر من خلال وجودهم في مصر.

وكانت البعثات العلمية في عصر «محمد علي» تمثل مصدراً مهماً لاستجلاب العلوم والتقنيات إلى مصر.

وبالتالي كانت مصدراً أساسياً لتأسيس النهضة التي اتبعت منهجاً واقعياً في التعامل مع الفجوة الثقافية والعلمية التي ظهرت بين أوروبا بنهضتها.. والبلدان التابعة للخلافة العثمانية بتدهورها..

باختصار كان إرسال البعثات لاكتساب المعارف والخبرات كفيلاً بإنشاء البنية الأساسية لمقومات النهضة.

اهتمام «محمد علي» بالمبعوثين

وكان «محمد علي» يهتم بأعضاء هذه البعثات.. ويطلع بنفسه على مدى ما حصلوه من علوم.. ويرسل إليهم مشجعاً وناقداً لمستوى تحصيلهم.. بل وكان يكتب لهم الرسائل لتشجيعهم على التحصيل.. من ذلك رسالة له في سبتمبر ١٨٢٩ يقول لهم فيها:

«قدوة الأماثل الكرام الأفندية المقيمين في باريس لتحصيل العلوم والفنون زيد قدرهم.. ننهي إليكم أنه قد وصلتنا أخباركم الشهرية.. والجداول المكتوب فيها مدة تحصيلكم... فقياساً على قلة شغلكم في هذه المدة عرفنا عدم غيرتكم وتحصيلكم.. وهذا الأمر غمنا جداً.. فإذا لم تغيروا هذه البطالة بشدة الشغل والاجتهاد والغيرة وجئتم إلى مصر بعد قراءة بعض الكتب فظننتم أنكم تعلمتم العلوم والفنون فإن ظنكم باطل... فإن أردتم أن تكتسبوا رضاءنا فكل واحد منكم لا يفوت دقيقة واحدة من غير تحصيل العلوم والفنون»..

إنها كلمات أب غيور على أبنائه.. ورجل يدرك أن مجرد الحصول على شهادات تحصيل معارف ما هو إلا تحصيل حاصل.. والأهم لديه هو الجدية في التحصيل والفهم.

ومن يطلع على تخصصات هذه البعثات سينحني احتراماً لفكر هذا الرجل في حرصه على تنوع تخصصات هذه البعثات بدءاً من صناعة الأحذية.. إلى الطب والهندسة والرياضيات والطبيعيات.

وبدأت مرحلة الإرساليات الأولى سنة ١٨١٣ وكانت إلى إيطاليا ثم إلى إنجلترا.. لكن البعثات الكبرى بدأت سنة ١٨٢٦ إلى فرنسا وكان عدد أفراد هذه البعثة ٤٤ طالباً.. ثم تعددت البعثات.

الهدف الأول

وكان هدف البعثات الأولى تكوين كوادر من المعلمين المصريين في المدارس العُليا.. وتدريب قادة للجيش والبحرية.. وتأهيل مهندسين قادرين على نشر العمران.

وبدأت أولى البعثات حوالي عام ١٨١٣ وكانت الوفود الأولى من الطلبة مُوجهة لدراسة الفنون العسكرية وبناء السفن وتعلم الهندسة.. وتوجهت جميعها إلى المدن الإيطالية مثل روما وميلانو وليفورن وفلورنسا..

وتوجهت بعثات أخرى إلى فرنسا وإنجلترا لدراسة بناء السفن والملاحة ومناسيب الماء وصرفه إضافة إلى الميكانيكا.

بلغ عدد الطلاب الذين تضمنتهم هذه البعثات المبكرة ٢٨ طالباً.. وأشهرهم «عثمان نور الدين» الذي ذهب إلى فرنسا.. وكان له شأن كبير في تنظيم البعثات الكبرى التالية وصار أميرالاً للأسطول المصري.

وبدأت البعثات الكبرى من عام ١٨٢٦ بإرسال ٤٤ طالباً إلى فرنسا..

لحقت بهم بعثة كبيرة أخرى من ٧٠ طالباً عام ١٨٤٤..

وكل هؤلاء اختارهم سليمان باشا الفرنساوي من بين تلاميذ المدارس المصرية.. ولحق بهم غيرهم بعد ذلك.. وأصبح عدد طلاب البعثات جديراً بإنشاء مدرسة مصرية في فرنسا.. لتعليم الطلاب اللغة الفرنسية بما يناسب المدارس العليا الفرنسية.. وإن كانت قد أُغلقت عام ١٨٤٨[1] إلا أنه تم فتحها من جديد في عهد إسماعيل.

وبين عامي ١٨٣١ و١٨٤٧ وصل عدد طلاب البعثات إلى ٣١٩ طالباً.. ساهموا جميعاً في نهضة مصر العلمية والاقتصادية والحربية والسياسية والاجتماعية.

(١) لاحظ أنه نفس عام إبعاد محمد علي عن الحكم وبعدها وفاته في نفس العام ١٨٤٨.

وإن كانت البعثات قد ركّزت في البداية على العلوم والخبرات الكفيلة ببناء قوة عسكرية لضمان الاستقلال.. فإنها تطورت بشكل تلقائي لتدعيم هذه القوة بالصناعات اللازمة سواء أكانت عسكرية أم مدنية.. فكانت النتيجة النهوض بكافة جوانب التطور التعليمي والثقافي والعلمي والتقني.

البعثة الأولى

ركزت البعثة الأولى.. التي وصل عدد طلابها إلى ٤٤ طالباً وكان إمامها الشيخ رفاعة رافع الطهطاوي.. على الإدارة الملكية والحقوق والفنون الحربية والإدارة العسكرية والعلوم السياسية والملاحة والفنون البحرية والهندسة الحربية والمدفعية والطب والجراحة والزراعة.. ودرس بعض طلابها أيضاً التاريخ الطبيعي والمعادن وهندسة الري والميكانيكا والطباعة والكيمياء.

البعثة الثانية

واهتمت البعثة الثانية التي سافرت بعدها بعامين بالهندسة والرياضة والطبيعيات.. وتخصص بعض طلابها في الطبيعيات وآخرون في الفنون الحربية أو العلوم السياسية أو الطب أو الترجمة.. وبعد عام واحد من البعثة الثانية تغلبت الصبغة الصناعية على دراسات أفراد البعثة.. مما كان يعكس رغبة «محمد علي» في إنشاء صناعات مهمة في مصر.

البعثة الثالثة

وشملت هذه البعثة عام ١٨٢٩ ثمانية وخمسين طالباً تم إرسالهم إلى فرنسا والنمسا وإنجلترا.. وتخصص معظم أفرادها في عدد من الصناعات الرئيسية.. فمن صناعة الصباغة والنسيج والأجواخ وصناعة السفن والفنون البحرية وصب المدافع والقنابل والآلات الهندسية والساعات والأحذية.. حتى صناعة الدهانات والآلات الجراحية.

البعثة الرابعة

وتخصصت البعثة الرابعة عام ١٨٣٢ في الطب وكان عدد طلابها ١٢ طالباً من أوائل خريجي مدرسة الطب المصرية في أبي زعبل.. تم اختيارهم لإتمام دراستهم في باريس لتعيينهم أساتذة في مدرسة الطب عند عودتهم.. وساهموا إضافة إلى التدريس في ترجمة وتأليف الكتب الطبية والاضطلاع بالأعمال الصحية في البلاد.

البعثة الخامسة «بعثة الأنجال»

وكانت البعثة الخامسة عام ١٨٤٤ هي أكبر بعثة تُرسل إلى فرنسا وهي آخر بعثة كبرى.. وصل عدد طلابها إلى نحو ٨٣ طالبا وأُطلق عليها «بعثة الأنجال» لأنها تضمنت بعض أنجال وأحفاد «محمد علي».. وتم اختيار أعضائها من نوابغ طلبة المدارس المصرية العالية وضمت أيضاً بعض المعلمين والموظفين.. مما يكشف سلامة منهج اختيار أعضاء البعثات والتخصصات التي تم اختيارها للدراسة.. حيث لم تقتصر على طلاب العلم في مستوى التعليم العالي لإعدادهم لشغل مراكز مهمة في مجالات الإنتاج والخدمات المختلفة.. لكنها فتحت الطريق أمام العاملين في هذه المجالات لربط خبراتهم بأحدث العلوم والإنجازات التقنية.. وتخصصت هذه البعثة في العلوم الحربية والطب والطبيعيات.. إضافة إلى علوم أخرى.

بعثات أخرى

وتلي ذلك أربع بعثات أرسلت إحداها إلى النمسا في ١٨٤٥ اهتمت بالكيمياء الصناعية وطب العيون..

وأخرى سنة ١٨٤٧ لتعلم الحقوق والمحاماة..

بعثة سنة ١٨٤٧ إلى إنجلترا من ٢١ نجاراً لإتقان بناء السفن..

وبعثة أخيرة عام ١٨٤٧ مكونة من ٢٥ طالباً تم اختيارهم من نوابغ طلبة مدرسة المهندسخانة للتخصص في الميكانيكا ذهب أغلبهم إلى إنجلترا وبعضهم إلى فرنسا.

جني ثمار البعثات العلمية

بلغ إجمالي عدد طلبة هذه البعثات ٣١٩ طالباً..

وكان من نتائجها تأسيس مدارس للهندسة والطب والصيدلة والألسن والمعادن والفنون والصنائع والزراعة غير المدارس الحربية المختلفة.. وإقامة منشآت الري والزراعة.. ومنشآت صناعية أخرى مثل صناعات الغزل والنسيج.. ومعامل سبك الحديد وألواح النحاس ومعامل السكر والمطابع.. إضافة إلى ترسانات صناعة السفن.

وبنظرة متأنية إلى وضع الاقتصاد الحربي قبل هذه الفترة.. ثم ما طرأ عليه من تطور ملحوظ في الصناعة والزراعة والإنتاج الحربي.. نكتشف التغير النوعي في بنية المجتمع والاقتصاد ومسار النهضة الشاملة التي شاركت البعثات العلمية والتقنية في تأسيسها.

ولا شك أن هذا كان من جراء التوسع الكبير في إنشاء المدارس وإرسال البعثات العلمية إلى أوروبا.. ويعتبر هذا المنحى تحدياً للبنية الأساسية في المجالات الحربية والاقتصادية.. وبدأ العمل في مجال التعليم بتأسيس المدارس العليا.. ثم الانتقال إلى التعليم الابتدائي والثانوي.. مما أتاح تكوين طبقة من المتعلمين تعليماً عالياً تتم الاستعانة بهم في أعمال العمران ونشر التعليم بين طبقات الشعب.

إتباع المنهج العلمي

كان من ثمار البعثات أيضاً إتباع المنهج العلمي في التعامل مع المشاكل الصحية.. حيث تم إجراء تطعيم ضد الجدري كنوع من الحماية من هذا المرض.. وأُقيم في الإسكندرية حجر صحي على السفن الواردة من البلاد الموبوءة.. وتم

تأليف المجلس الصحي للإشراف على الشؤون الصحية في القطر كله.. وتنظيم فرقة من الأطباء الوطنيين للرعاية الصحة وتوفير العلاج المجاني للطبقات الفقيرة.

وساعد على إمداد المدارس العليا والبعثات بطلاب حازوا على قسط من الثقافة يؤهلهم لتفهم دروس المدارس العليا في مصر وأوروبا.. وجود التعليم في الأزهر الذي كان يمد البعثات بالطلبة النابغين.

وللتدليل على الجانب العملي في تفكير «محمد علي».. الذي أدرك المستوى الفعلي المنخفض للخبرات المحلية.. أنه بدأ بتأسيس مدرسة الهندسة «المهندسخانة» في القلعة عام ١٨١٦ وكان أول طلابها من أهل البلد والمماليك يتعلمون قواعد الحساب والهندسة وعلم المقادير والقياسات.. وتم إحضار آلات هندسية متنوعة لهم من إنجلترا.. وكانت الدراسة مجانية ويتم صرف مرتبات شهرية و«كساوي»[1] سنوية للطلبة.

ولحقت بها في عام ١٨٣٤ مدرسة هندسة في بولاق تولى نظارتها ووكالتها خريجان من خريجي البعثات.

وتم تأسيس مدرسة الطب عام ١٨٢٧ تبعاً لاقتراح من «كلوت بك».. وكان مقرها في البداية أبو زعبل لوجود المستشفى العسكري بها.. واختارت الحكومة للمدرسة مائة تلميذ من طلبة الأزهر.. وتولى إدارتها «كلوت بك» فاختار أساتذة أوروبيين معظمهم من الفرنسيين لتدريس علوم التشريح والجراحة والأمراض الباطنية والمواد الطبية وعلم الصحة والصيدلة والطب الشرعي والطبيعة والكيمياء والنبات.. وفي عام ١٨٣٧ بلغ عدد طلابها ١٤٠ طالباً و٥٠ طالباً في مدرسة الصيدلة.

وتعددت المدارس في مصر بعد ذلك مثل مدرسة الألسن.. مدرسة المعادن.. مدرسة الفنون والصنائع.. مدرسة الزراعة.. مدرسة الطب البيطري.. إضافة إلى المدارس الحربية.. البحرية.

(١) جمع كسوة أي ملابس سنوية صيفية.. وشتوية.

ومع تخرج نوابغ أعضاء البعثات وعودتهم إلى مصر تم إنشاء إدارة ديوان المدارس عام ١٨٣٧ التي ترأسها مصطفي مختار أحد خريجي البعثة الأولى.

ومن إنجازات «محمد علي» الأخرى:

إنشاء الدفتر خانة

في مايو سنة ١٨٢٩ أنشأ «محمد علي» دار المحفوظات لأنه لا حظ أن الكتبة والنظار الذين يديرون أعمال الحكومة يستولون على الأوراق والوثائق ولحمايتها من السرقة.. والعبث فكر ««محمد علي»» في إنشاء دار تضم هذه الوثائق والأوراق.. وجعل مقرها القلعة التي كانت مركزاً للحكومة في هذا الوقت.. كما أنها بعيدة عن الرطوبة تتوفر فيها التهوية والتي هي عامل جيد لحفظ المستندات.. وسميت دار المحفوظات في هذا الوقت ب «الدفتر خانة» وكانت تتبع قلم الخزينة التابع بدوره لديوان الوالي.

وفي ١٨٥٧ أصبحت تابعة لديوان المالية..

ثم تبعت بعد ذلك نظارة الداخلية في ١٨٧٦ أي أن هذه الدار ظلت قائمة تمارس عملها لمدة ١٧٥سنة..

وكان لدار المحفوظات مبنيين ومدخل يواجه القلعة.. وكانت تحوى جميع الوثائق من جميع الهيئات والمؤسسات الحكومية من عام ١٨٣٠ حتى عام ١٩٦١.. ويوجد بها أيضاً دفاتر الأطيان والأملاك والعيون والآبار وتقسيم الأطيان والعائلات وتضم عدداً هائلاً من القضايا التابعة للعدل ومجلدات أحكام ومضابط شرعية وقضايا شخصية.. ومن أشهرها قضية «ريا وسكينة» و«خُط الصعيد» أما المبنى الحديث فيضم ٤٦ مخزناً ويحوى دفاتر المواليد والوفيات والتعليم من جميع المحافظات.. وتضم دفاتر الجرد العقاري والعوائد ويصل عدد الكتب فيها حالياً حوالي ١٠٨٣٢ ما بين جريدة ومعاهدة ومن أهمها أعداد جريدة الوقائع المصرية والتي بدأت في الصدور منذ عام ١٨٨٥ وقرارات الخديوي

التي تسمى ب «الديكريتو» والمعاهدات التي وقعتها مصر مع بعض الدول الأجنبية.. وقانون البوليس المصري القديم.. والدليل الجغرافي للقطر المصري.

قصر «محمد علي»

في ٩ يوليو١٨٠٥ أمر «محمد علي» ببناء قصراً خاصاً به بمنطقة شبرا.. واختار له النظام المعماري التركي حيث القصور تحيط بها حدائق واسعة من تلك التي شاعت في تركيا.. وهذا القصر قائماً حتى الآن.

وقد اتخذه «محمد علي» مقراً لإقامته بعد ثلاث سنوات من توليه الحكم.. وفي عهد الرئيس السابق حسني مبارك تم تجديده بتكلفة بلغت ٥٠ مليون جنيه.

القصر من الداخل

تحيط بالقصر حديقة ضخمة تضم مباني بطرز مختلفة يُطلق عليها أكشاك أو سريات.. وهي كالتالي:

سراي الإقامة وهي أولي المنشآت التي أقيمت في سنة ١٨٠٨ وقد أُزيلت لشق طريق زراعي..

- سراي الساقية١٨١١..
- سراي الجبلاية ١٨٣٦..
- سراي الفسقية١٨٢١ وهي التي كانت ومازلت تتم فيها الاحتفالات الرسمية الكبرى.. وقد تم إنشاء مهبط للطائرات خارجها.. وتتكون من مبني مستطيل٧٦ متراً ونصف المتر في ٨٨ متراً ونصف المتر.. أما التصميم الداخلي للسراي ففريد من نوعه.. حيث يعتمد علي كتلة محورية عبارة عن حوض ماء كبير مساحته ٦١ مترا في ٤٥ متراً ونصف المتر.. وبعمق ٢.٥ متر.. ومبطن برخام مرمر أبيض.. كما يتوسط الحوض نافورة كبيرة موضوعة على تماثيل لتماسيح ضخمة يخرج الماء من أفواهها.. وفي أركان الحوض أربع نافورات ركنية.. ويلتف حول حوض الفسقية رواق يطل علي الحوض ببواكي من أعمدة رخامية يبلغ عددها مائة

عمود رخامي.. وتتوسط أضلاع الرواق جواسق تبرز واجهتها داخل حوض الفسقية.. ويغطي الجواسق قباب زُيِّنَت بموضوعات تصويرية وزخرفية متعددة.

القصر بعد ثورة يوليو

وكانت الثورة قد حولت هذا الأثر الفريد إلى كلية الزراعة ومعهد للتعاون الزراعي.

وقصره بأثينا

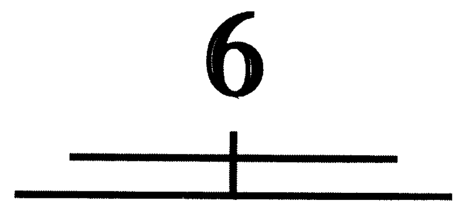
والجدير بالذكر في هذا المجال أيضاً أن لـ «محمد علي» قصراً آخر في اليونان وتحديداً في مدينة أثينا ما يزال مملوكاً لوزارة الأوقاف المصرية.

القصر أصبح أثرياً بالطبع.. وأجرته الحكومة المصرية لإحدى الجهات اليونانية منذ عدة سنوات.. ثم أعلنت الحكومة المصرية منذ سنوات في بداية حقبة التسعينات عزمها على بيعه.. لتوفير سيولة لسد العجز بالموازنة العامة للدولة.. لكنها تراجعت عن ذلك.. بعد أن قوبلت بمعارضة شديدة من جانب جهات عدة ورفض ذلك خبراء الآثار الذين أكدوا أن هذا القصر قيمة تاريخية لا يجب أبدًا التفريط فيه أو بيعه بأي ثمن.

وكان هناك محاولات من جانب الحكومة اليونانية وبعض الجهات المحلية هناك لشراء القصر مقابل أي مبلغ يتم تحديده.. وهو ما فسر في وقتها برغبتها في التخلص من أي أثر يذكرهم بالوجود المصري أو الإسلامي بالإضافة للقيمة الأثرية والتاريخية لهذا العقار[1].

❖❖❖

(١) لأن الشيء بالشيء يُذكر فقد قامت الحكومة المصرية قبل ذلك ببيع التكية المصرية بالأراضي المقدسة للحكومة السعودية.. وكانت تلك التكية فيما مضى قِبلة للفقراء من أهل شبه الجزيرة العربية للحصول على الزكاة والصدقات.. كما كانت لها دور كبير في خدمة ورعاية الحجاج المصريين في موسم الحج.





6
توسعات «محمد علي» العسكرية

في عهد ««محمد علي»» كان للجيش المصري صفحات فخار.. فبعد أن وصل لما وصل إليه في التدريب والكفاءة من مستوى راقٍ وعالٍ.. بدأ «محمد علي» يسعى لتحقيق طموحه في إنشاء مملكته.. وبدأ خوض المعارك خارج حدود مصر.

ولم تكن غزوات «محمد علي» خارج الحدود المصرية بهدف التوسع.. أو الاختلال.. بقدر ما كانت تهدف أساساً لتأمين مصر ضد هجمات البرابرة الغُزاة ولحماية الحضارة المصرية.

«محمد علي» والقضاء على الحركة الوهابية

في شبه الجزيرة العربية وفي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي.. ظهرت الحركة السلفية على يد الشيخ «محمد بن عبد الوهاب»[1].. وكانت بمثابة ثورة دينية تهدف إلى تخليص الإسلام من البدع والخرافات التي لحقت به وتسببت في ضعف العالم الإسلامي.

بدأ دعوته في بلدة العيينة ثم أخذت دعوته في الانتشار فاستاء منه حاكم الإحساء لتشدده وهدده بالقتل إذا لم يرجع عن دعوته فرحل إلى الدرعية وأصبح

---

(١) هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان آل مشرف التميمي «١٧٠٣ - ١٧٩١» عالم دين وداعية ومصلح سني.. وُلِدَ سنة ١١١٥ هـ «الموافق من ١٧٠٣م» في مدينة العيينة قرب الرياض.. تعلم القرآن وحفظه عن ظهر قلب قبل بلوغه عشر سنين.. كان مشهوراً بحدة ذهنه وسرعة حفظه وحبه للمطالعة في كتب التفسير والحديث وكلام العلماء في أصل الإسلام.. توجه محمد ابن عبد الوهاب للرحلة في طلب العلم فرحل إلى مكة والمدينة والبصرة طلباً للعلم.. ثم عاد إلى نجد يدعو الناس إلى التوحيد.. وتفقه على المذهب الحنبلي وتلقاه على يد والده بإسناد متصل ينتهي إلى الإمام أحمد بن حنبل.. كان محمد بن عبد الوهاب يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد.. ولذلك سمي أتباعه هذه الدعوة بالدعوة السلفية نسبة إلى السلف الصالح.. وكانت جل دعوته إعادة الناس إلى تحقيق التوحيد ونبذ الشرك الذي كثر آن ذاك مثل التعبد بالقبور والتقرب بالأصنام والأشخاص والبناء على القبور والتعامل بالسحر وغيرها من مظاهر والتي هي بحسب رأيه تنافي عقيدة التوحيد في دين الإسلام والتي ختمها آخر الأنبياء وتبعه بها الخلفاء الأربعة والصحابة والتابعين ومن بعدهم.. ودعوة الناس لنبذ ما يخالفها من الأفكار التي كانت قد تفشت في ذلك العصر حسب اعتقاده.. مؤلفاته فهي كثيرة جداً.. فقد قام بتأليف عدد من الكتب والرسائل.. منها :كتاب التوحيد.. وكتاب كشف الشبهات:.. وكتاب الأصول الثلاثة.. وكتاب شروط الصلاة وأركانها.. توفي محمد بن عبد الوهاب في العيينة بقرب من الرياض..

أميرها محمد بن سعود من أنصاره.. كما تعهد بنشر هذه الدعوة بشرط أن يؤيد الشيخ سيادة الأمير.

استطاع محمد بن سعود أن يحشد أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأن يوحد نجد[1] ويضم الحجاز تحت لواء آل سعود.. وشرع في العمل للانفصال عن الدولة العثمانية.. فتخوفت الدولة العثمانية من أن يمتد النفوذ السعودي إلى العراق والشام.. فأرسلت أوامرها إلى ولاتها في البصرة وبغداد بأن يرسلوا حملات للقضاء على ابن سعود.

لم يستطع واليا بغداد ودمشق أن يحققا أمل السلطان العثماني في القضاء على الدولة السعودية.. فاتجه السلطان العثماني «سليم الثالث» إلى محمد علي يطلب منه في عام ١٨٠٧ استرداد الأراضي العثمانية الحجازية من أيدي آل سعود.

وكان محمد علي يولى السيطرة على نجد أهمية كبرى.. ليتسنى له إحكام قبضته على شرق الجزيرة العربية.. وليتمكن من وصل مناطق نفوذه انطلاقاً من مصر.. والشام.. وعسير.. وكانت تلك المناطق في سبيلها لتصبح تحت حكمه.. حسب الاتفاق الذي تم التوصل إليه مع العثمانيين سنة ١٢٥٣هـ . والذي سنعرض له فيما بعد . فكانت تلك الحملة نتاج ذلك الاتفاق.. الذي لم ينفذ..

وبدأ محمد علي يعد للحملة بمنطقة القبة في معسكر أعده لها هناك.. واختار لقيادة هذه الحملة ابنه ««طوسون»» وكان في السابعة عشر من عمره واختار الشيخ «محمد المحروقي» الذي كان كبيراً لتجار مصر مديرًا لمهماتها وجعله مستشارًا لـ«طوسون».. وأوصاه بأن يلتزم بإتباع مشورته.

---

(١) كانت بلاد نجد آنذاك تضم القصيم.. ويتبعها ثلاثة وأربعون قرية.. وجبل شمر ويتبعه تسع عشرة قرية.. الوشم ويتبعه اثنتا عشر قرية.. والسدير ويتبعه عشرون قرية.. فجميع بلاد نجد عبارة عن مئة وثمان وستين قرية.. وسنعرض فيما بعد لوثيقة هامة أرسلها (خورشيد باشا) يتحدث فيها عن المنفعة من السيطرة على نجد تحديداً ولكنه ذكر فيها أن هذا يحتاج إلى وقت طويل.. كما بين لمحمد علي في نفس الوثيقة أهمية الاستيلاء على شرق الجزيرة العربية.. وذكر له أنّ ذلك له منافع كبيرة.. وذلك ما حصل.. حيث استولى خورشيد على الأحساء.. والقطيف.

وتنقسم تلك الحرب إلى مرحلتين رئيسيتين:

المرحلة الأولى: استولت القوات المصرية بقيادة «طوسون» على ميناء ينبع عام ١٨١١كما استولت على المدينة في عام ١٨١٢ ومكة في العام التالي وفي عام ١٨١٥ عقد «طوسون» هدنة مع الوهابيين احتفظ بمقتضاها الوهابيون بنجد وبعض أجزاء من الحجاز.

المرحلة الثانية: بعد وفاة «طوسون» حيث استؤنفت الحرب في عام ١٨١٦ وتمكنت قوات محمد علي بقيادة «إبراهيم باشا» من التقدم صوب نجد وحاصرت هذه القوات قلاع الوهابيين حتى سقطت في أيديها الواحدة تلو الأخرى وفي النهاية تم الاستيلاء على الدرعية العاصمة السعودية في عام ١٨١٨ وأرسل الأمير عبد الله إلى إستانبول حيث أعدم .

معارك الجيش المصري في اليونان

قامت ثورة سكان شبه جزيرة« المورة»[1] اليونانية عام ١٨٢٠ ضد الحاكم التركي مطالبين بالاستقلال عن تركيا المحتلة لهم.. مما أدى لانتشار الثورة بين السكان اليونانيين في كل من جزيرتي «قبرص وكريت» فأرسل السلطان التركي «محمود الثاني»[2] ثلاث جيوش تركية وثلاثة أساطيل بحرية لقمع تلك الثورات لكنها مُنِيَت جميعها بالهزيمة الساحقة.

---

(١) شبه جزيرة المورة في اليونان: هي شبه جزيرةٍ كبيرة.. تحتوي على وديانٍ صغيرة.. وجبال.. وتلال.. وسواحل.. ويوجد في الإقليم كثيرٌ من المواقع الأثريّة.

(٢) محمود الثاني من مواليد «٢٠ يوليو ١٧٨٥» هو السلطان الثلاثين للدولة العثمانية.. شهد عصره خطوات إصلاح واسعة.. وحاول إيقاظ الدولة العثمانية من غفلتها بعد أن تولى مقاليد الخلافة العثمانية سنة ١٨٠٨ وهو في الرابعة والعشرين من عمره.. ورأى أن يبدأ بالإصلاح الحربي.. فكلف الصدر الأعظم «مصطفي البيرقدار» بتنظيم الإنكشارية وإصلاح أحوالهم.. وحاول الصدر الأعظم أن يقوم بالمهمة.. فقوبل باعتراض من الإنكشارية.. وثاروا في العاصمة ثورة عارمة في «رمضان ١٢٢٢ هـ = ١٨٠٨» وحاولوا إرجاع السلطان السابق «مصطفي الرابع» ليكون ألعوبة في أيديهم.. وأضرموا النيران في السرايا الحكومية.. ومات الصدر الأعظم في هذه الفتنة محترقاً.. واضطر السلطان أن يخضع لهم بعد أن أضرموا النار في العاصمة.. وكادت النيران تقضي عليها.. مؤجلاً فكرة التخلّص منهم إلى وقت آخر مؤمناً بأن اشتداد نفوذ الإنكشارية هو سبب

فطلب السلطان العثماني المساعدة ««محمد علي»» وأدخل جزيرة كريت تحت حكمه مطالباً إياه بإعادة الأمن والاستقرار لها.. وأجابه «محمد علي» إلى طلبه فأرسل حملته البحرية الأولى إلى هناك في ١١ يوليو١٨٢١ ثم أعقبها بالثانية في ٨ مارس١٨٢٢.

وفي ٢٩ مايو ١٨٢٢ نزلت أول قوات مصرية على جزيرة كريت.. وخاضت بها عدة معارك متتالية انتهت بالقضاء على الثورة في عام ١٨٢٤ م واستقرار الأمن بالجزيرة تحت الحكم المصري ..

تحطم جهود كل من حاول الإصلاح من السلاطين السابقين.. وتخلص منهم الإنكشارية تماماً في سنة «١٨٢٦م» بعدها وجّه عنايته إلى بناء فرق عسكرية تأخذ بالنظم الحديثة.. فأنشأ قوة من سلاح المدفعية على يد ضباط أوروبيين.. واستصدر فتوى من كبار مشايخ الدولة بوجوب تعليم فنون الحرب.. وضرورة إصلاح الجندية.. وأحيا ما أقامه مصطفي الثالث من مدارس للطوبجية والبحرية والهندسة.. وأنشأ مدرسة حربية لتخريج الضباط على غرار المدارس الحربية الأوروبية.. ومدارس لتعليم الجند وتدريبهم على نسَق مدارس الجيش في إنجلترا.. وأخذ بنظام التجنيد الإجباري لأبناء المسلمين.. وجعل مدة التجنيد عشر سنوات.. وأرسل الضباط في بعثات للخارج.. واستدعى عدداً من الضباط من بروسيا لتدريب القوات الجديدة. وأعاد فتح مدرسة البحرية التي كان قد أنشأها السلطان مصطفي الثالث.. وزودها بالأدوات والمكتبة والأجهزة.. ثم بنى مدرسة بحرية أخرى قصرها على الطلاب المتفوقين من المدرسة القديمة.. وأنشأ عدداً من الترسانات البحرية في عدد من الثغور.. وهو ما يُعد من أهم إصلاحات محمود الثاني.. وأعاد فتح المدرسة الهندسية البحرية.. وكان السلطان يُسرّ لإنشاء السفن الجديدة سروراً عظيماً ويخلع على طاقمها هباته وهداياه.. عُني محمود الثاني بتنظيم التعليم خاصةً اللغة التركية ومبادئ اللغة العربية وقراءة القرآن.. كما أنشأ مدارس تُعِدّ طلابها للالتحاق بمدارس البحرية والطب والزراعة والهندسة والمدفعية.. وأكثر محمود الثاني من إرسال البعثات العلمية إلى لندن وباريس لتحصيل الفنون والعلوم الحديثة.. وقام بتجديد المكتبة المحمودية بالمدينة المنورة.. كما حاول إصلاح أجهزة الدولة المركزية بالطريقة الأوروبية.. فوضع الأوقاف تحت إشرافه وألغى الأوقاف الصغيرة وضمها إلى أملاك السلطان.. وأجرى أول إحصاء للأراضي الزراعية التركية في العصر الحديث.. وأدخل تحسينات على شبكة المواصلات.. وأنشأ طرقاً جديدة وأدخل البرق.. وخطوط السكك الحديدية.. كما أنشأ جريدة رسمية للدولة.. شهد عصره نشاطاً كبيراً في حركة التعمير.. وصيانة المرافق القديمة التي أصابها الإهمال.. لكن في النهاية أنهكته الحروب مع روسيا.. وشغلته حروبه مع محمد علي.. ووقعت الجزائر تحت الاحتلال الفرنسي في سنة «١٢٤٥ هـ = ١٨٣٠م» فتعرض للإصابة بعدوى السل.. ولما اشتد به المرض نُقل إلى إحدى ضواحي إستانبول للاستشفاء بهوائها النقي.. ثم توفي في «٢ يوليو ١٨٣٩» وخلفه السلطان عبد المجيد.

ونتيجة لما حققه «محمد علي» من نجاح طلب السلطان العثماني في ١٦ يناير ١٨٢٤ من ««محمد علي»» إرسال جيشه لإخماد الثورة في اليونان على وعد أن تدخل تحت الحكم المصري في حالة نجاحه..

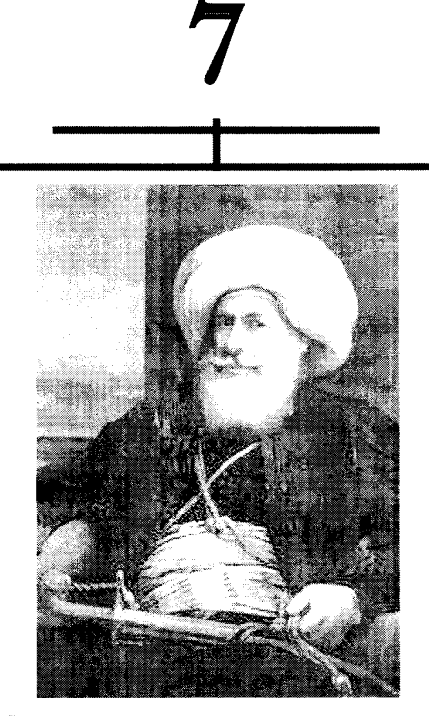
وفي ١٩ يوليو ١٨٢٤ غادرت الإسكندرية الحملة المصرية إلى اليونان بقيادة «إبراهيم باشا»

معركة استمباليا

وافتتح الأسطول المصري انتصاراته هناك بالانتصار الأول في معركة «استمباليا» البحرية في ٢٩ إبريل ١٨٢٥ وتمكن بعدها الأسطول المصري من السيطرة على كل السواحل البحرية اليونانية.. أما القوات البحرية فحققت أعظم الانتصارات باحتلال «ميسولونجى» معقل الثورة الرئيسي.. وضرب فيها الجيش المصري أروع أنواع البطولة والفداء وبسقوطها تم القضاء على الثورة في اليونان.

❖❖❖

7

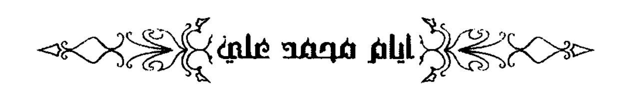


رجال حول محمد علي!!

من الخطأ تاريخياً وموضوعياً أن نُسند نجاح أو حتى فشل أية تجربة تاريخية للقائم عليها وحده.. فالتاريخ يقول أن التجارب يتقاسمها أشخاص متعددون.. أياً كانت التجربة.. وأياً كان شخصية القائم عليها.. حتى في الرسالات السماوية كان رب العزة دوماً يقيض لأنبيائه بشراً وأُناساً عاديين ليعضدوهم.. ويؤازروهم.. ومن هؤلاء تتكون ملامح التجربة.. وأحياناً كانت أدوارهم لا تقل أهمية - بل ربما تزيد - عن أصحاب التجربة أنفسهم.. وإذا ضربنا مثلاً بـ «كارل ماركس»[1] وهو واحد من أهم الفلاسفة المؤثرين في الحضارة الإنسانية في التاريخ المعاصر.. فسنقول أنه لو لم يكن بجواره «فريدريك إنجلز» لما حققت تجربته كل هذا الأثر العالمي المعروف.

ونعود لـ «محمد علي» لنقرأ تجربته من خلال من أحاط به من رجال.. نتعرف عليهم أولاً.. ثم نعرف مدى أثرهم في نجاح تجربته.. ومدى تأثرهم بها.. ونبدأ بأقرب المقربين إليه .. وهو..

(١) كارل ماركس «٥ مايو ١٨١٨» فيلسوف ألماني.. وصحفي ومنظر سياسي واجتماعي.. قام بتأليف العديد من المؤلفات إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية هو ما أكسبه شهرة عالمية.. وهو مؤسس للفلسفة التي ارتبطت باسمه «الماركسية».. ويعتبر مع صديقه فريدريك إنجلز المنظرين الرسميين الأساسيين للفكر الشيوعي.. شكل وقدم مع صديقه فريدريك إنجلز ما يدعى اليوم بالاشتراكية العلمية.. أو «الشيوعية المعاصرة» وقد وُلِدَ ماركس بمدينة «ترير» في ولاية «رينانيا» الألمانية سنة ١٨١٨ والتحق بجامعة بون عام ١٨٣٣ لدراسة القانون.. ثم أظهر اهتماماً بالفلسفة رغم معارضة والده الذي أراد له أن يصبح محامياً.. حصل على الدكتوراه في الفلسفة سنة ١٨٤٠ وعُرِفَ عنه أنه كان دائم النشاط لا يكل.. ولا ينام إلا أربع ساعات فقط في اليوم.. وتوفي في ١٤ مارس ١٨٨٣.



ماتيو دى ليسبس



دي ليسبس الابن

عـام١٨٠٢ أوفـد نـابليون مـاتيو ديليسـبس والـد فرديناندديليسـبس[1] كمبعـوثٍ شخصـيٍ لـه إلى مصـر.. وكـان دي ليسـبس ينتمـي لأسـرة عريقـة عمـل أكثـر أفرادها بالدبلوماسية واشتهرت بمواقفها المؤيدة لنابليون..

وفي مصـر تمكـن مـاتيو مـن التقـرب كـثيراً مـن شـيوخ الأزهـر خاصـة علمـاء الديوان الذي كان نابليون قد أسسه في القاهرة.

وفي أثنـاء فـترة الفـراغ السياسـي مـن١٨٠١ إلـي ١٨٠٥ استشـعر الطـابع الخـاص الـذي يميـز الضـابط الألبـاني «محمـد علـي» فتقـرب منـه.. ونشـأت بينهمـا صـداقة قوية كفلت لـه أن يكـون بالنسـبة لمحمـد علـي بمثابـة المستشـار الفعلـي السياسـي والعسكري والإداري لمحمد علي في رحلة صعوده نحو حكم مصر.

وبعـد فـترة اسـتدعي نـابليون مـاتيو ديليسـبس.. وكـان آخـر مـا طلبـه مـاتيو ديليسبس من محمد علي قبل رحيله هو الأخذ بيد ابنه الوليد فرديناند..

❖❖❖

(١) فرديناند دى ليسبس هو الدبلوماسي الفرنسي الشهير صاحب مشروع حفر قناة السويس التي ربطت البحرين المتوسط والأحمر لأول مرة عام ١٨٦٩وافتتحت في عهد الخديوي إسماعيل.. وُلِدَ فرد في ضاحية فرساي القريبة من باريس بفرنسا في ١٩ نوفمبر عام ١٨٠٥ وفي سن السابعة والعشرين اختير فرديناند دي ليسبس قنصلاً مساعداً لفرنسا بالإسكندرية عام ١٨٣٢.



«طوسون باشا

هـو أحمـد طوسـون باشـا بـن محمـد علـي باشـا.. كـان جميـل الطلعـة.. متوقـد الذهن.. ميّالاً للعلم.. ذا بأس وحزم.. وتركت وفاته وقعاً شديداً في قلب والده.

وُلِدَ عـام ١٧٩٥ وكـان مثـل أبيـه في عزمـه وحزمـه وطموحـه ولكـن لم يمهلـه القدر فمات شاباً.. استشعر فيه أبوه نبوغاً ورجولة مبكرة فأرسله وهـو فتـى لم يبلـغ العشـرين مـن عمـره في الحملـة الأولى لـبلاد الحجـاز.. فـأبحر عـام ١٨١١ مـن السـويس فنـزل في ينبـع وامتلكهـا.. وزحـف بجنـوده علـى السـعوديين.. وكـانوا شـديدي البـأس وفي قـوة عظيمـة فـردوه إلى ينبـع.. ولمّـا علـم والـده بـذلك.. أمـده بممده.. فتمالك قوته من جديد وتقدم إلى المدينة.. فاقتحمها.. وهـدم أسـوارها.. ثـم دخلها وأثخـن في حاميتهـا.. حتـى سلّمت.. فأرسـل مفاتيحهـا إلى والـده.. فبعـث بهـا إلى الآسـتانة.. وانتشـر خـبر فـتح المدينـة في الحجـاز.. فخـارت عـزائم المقـاتلين.. وتركـوا مكـة.. خوفـاً مـن أهلـها.. فأتاهـا طوسـون باشـا.. ودخلها.. وكـتب لوالـده بذلك.. فسُر كـثيراً لمـا أوتـي علـى يـد ولـده مـن الفـتح.. الـذي لم يتـأت لكـثير مـن القواد.. يومئذ.

وفي صيف١٨١٣ زحف السعوديون على طوسون باشا وجنـده.. لعلمهم أنـه لا قِبـل لهم بتحمـل حرّ تلك البقـاع.. فاسـتولوا علـى كـل مـا بـين الحـرمين.. فلمّـا بلـغ أبـاه ذلك.. سار بنفسـه لنجـدة ولـده.. فنـزل جـدة.. في ٣٠ شـعبان ١٢٢٨هــ وبعـد أن أقـام بمكـة مـدة يسـيرة وأدى فريضـة الحـج.. قضـت الأحـوال بعودتـه إلى مصـر.. فغـادر الحجـاز.. وظـل طوسـون يقاتـل السـعوديين.. فكـان الظفـر حليفـه في كـثير مـن المواقع.. وتقدم إلى نجد.. إلاّ أنه اضطر إلى التوقـف.. لقلة المؤن.. وهـو لم يبلـغ بعـد منطقـة الدرعيـة.. ثـم رجـع إلى المدينـة المنـورة.. واسـترد السـعوديون أكـثر المواقـع.. التي استولى عليها..

وبلغـه حـدوث قلاقـل في مصـر.. فخـف برجالـه إلى ينبـع.. واسـتبقى حاميـة في المدينـة.. ثـم أبحـر إلى السـويس.. وأتـى بموكـب عظـيم إلى القـاهرة.. فاحتفـل بـه

احتفالاً كبيراً.. ولم يلبث أن توجه إلى الإسكندرية.. حيث كان في انتظاره أبوه وابنه عباس بك الذي وُلد أثناء غيابه وبلغ سنتين من العمر.. وتولى فيما بعد حكم مصر.



صورة نادرة لطوسون باشا وهو طفل

ولم يقم طوسون باشا بالإسكندرية مدة يسيرة حتى فاجأته المنية وهو في ريعان شبابه.. وكان ذلك في ٧ ذي القعدة عام ١٢٣١هـ / ٣٠ سبتمبر ١٨١٦ وحُمِلَ جثمانه إلى القاهرة حيث دفن بها..

❖❖❖

إبراهيم باشا



سواء أكان «إبراهيم باشا» هو ابن محمد علي باشا أم ربيبه[1] كما سبق وقلنا من قبل فقد كان ذراعه اليمنى.. وكاتم أسراره.. وكان بشكل خاص قائداً عسكرياً فذاً.. استطاع قيادة الجيش المصري في حملات عسكرية ناجحة ومتعددة مكنت محمد علي من ترسيخ أعمدة حكمه الوليد.

وأشهر حملات «إبراهيم باشا» كانت ضد الوهابيين.. والعثمانيين.. وحقق انتصارات كبيرة.. ففتح مدن الحجاز.. والشام.. والأناضول.. وكان على وشك فتح إستانبول عاصمة الإمبراطورية العثمانية..

شبابه

في سنٍ مبكر.. وعندما بلغ الثمانية عشرة عاماً من عمره عينه محمد علي في الجيش المصري.. فأظهر من البداية قدرات عسكرية متميزة وأخذ يترقى إلى أن أصبح قائد فرقة..

ثم عينه محمد علي مدير مديرية.. فأظهر كفاءة إدارية متميزة.. وقلده فترة من الزمن ولاية الصعيد فكان عادلاً على عكس الوالي السابق (أحمد أغا) إذ

(١) الربيب هو ابن الزوجة الذي تولى تربيته زوج الأم كابنٍ له.

كان شديد الظلم لأهل الصعيد.. ويصف عبد الرحمن الرافعي إبراهيم باشا في توليه أمر الصعيد في كتابه (عصر محمد علي) فيقول:

(كان[١] يناقض المذكور[٢] في أفعاله ويمنعه التعدي على أطيان الناس وأرزاق الأوقاف والمساجد ويحل عقد إبراماته فيرسل إلى أبيه[٣] بالأخبار فيحقد ذلك في نفسه ويظهر خلافه ويتغافل.. وأحمد أغا المذكور على جليته[٤] وخوص نيته فلما وصلته الرسالة[٥] اعتقد صدقه وبادر بالحضور في قلة من أتباعه حسب إشارته وطلع إلى القلعة ليلة السبت وهي ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان فعبر عند الباشا وسلم عليه فحادثه وعاتبه ونقم عليه أشياء وهو يجاوبه ويرادده حتى ظهر عليه الغيظ فقام كتخدا بك وإبراهيم أغا وخرجا من عند الباشا ودخلا إلى مجلس إبراهيم أغا وجلسوا يتحدثون وصار الكتخدا[٦] وإبراهيم أغا يلطفان معه القول وأشاروا عليه بأن يستمر معهما إلى وقت السحور وسكون حدة الباشا فيدخلون إليه ويتسحرون معه فأجابهم إلى رأيهم وأمر من كان بصحبته من العسكر وهم نحو الخمسين بالنزول إلى محلهم فامتنع كبيرهم وقال لا نذهب ونتركك وحيدًا فقال الكتخدا وما الذي يصيبه وهو همشري ومن بلدي وإن أصيب بشيء كنت أنا قبله فعند ذلك نزلوا وفارقوه وبقي عنده من لا يستغني عنه في الخدمة فعند ذلك أتاه من يستدعيه إلى الباشا فلما كان خارج المجلس قبضوا عليه وأخذوا سيفه وسلاحه ونزلوا له إلى تحت سلم الركوب وأشعل الضوى المشعل وأداروا كتافه ورموا رقبته ورفعوه في الحال وغسلوه وكفنوه ودفنوه وذلك في سادس ساعة من الليل وأصبح الخبر شائعًا في المدينة وأحضر

(١) أي إبراهيم باشا.

(٢) يقصد أحمد أغا.

(٣) يقصد محمد علي باشا.

(٤) أي ماض في غيه.

(٥) أرسل محمد علي يستدعيه.

(٦) الكتخدا هو منصب يعادل نائب في هيكل التوظيف العثماني.

الباشا الخجا وطولب بالتعريف عن أمواله وودائعه وعين في الحال باشجاويش ليذهب إلى قنا ويختم على داره ما له من الغلال والأموال وطلبت الودائع ممن هي عنده التي استدلوا عليها بالأوراق فظهر له ودائع في عدة أماكن وصناديق مال وغير ذلك ولم يتعرض لمنزله ولا لحريمه..

وفي سنة ١٨١٣ ناب عن أبيه محمد علي في حكم مصر عندما ذهب إلى بلاد الحجاز لمحاربة الحركة الوهابية.. اللي كانت قد تمكنت وقتها من تأسيس الدولة السعودية الأولى.



الوهابيين.. وفتحه الحجاز

بعد ما استقر محمد علي باشا في حكمه كان يريد أن يحقق لمصر أمنها الإقليمي.. في وقتٍ أصبحت فيه بلاد الحجاز مصدر قلق لمصر بسبب ظهور مؤسس الدعوة الوهابية «محمد بن عبد الوهاب» الذي تحالف مع أمين الدرعية «محمد بن سعود»[1] لنصرة الأفكار الوهابية.. لما مات محمد بن عبد الوهاب

---

(١) الإمام محمد بن سعود بن محمد آل مقرن.. هو مؤسس الدولة السعودية الأولى زوج ابنه الإمام عبد العزيز من ابنة الإمام محمد بن عبد الوهاب.. ثم خلفه ابنه في تولى الحكم إلى أن اُغتيل في العشر الأواخر من رمضان

سنة ١٧٦٥ خلفه ابن عبد العزيز بن سعود اللي كان متحمس اكتر من أبوه لنشر الدعوة الوهابية فأرسل جيشه إلى كربلاء بالعراق سنة ١٨٠١ وأحدث هناك مذابح جمة بحجة أن أهل كربلاء كفار.. وقاموا بهدم مسجد «الحسن بن على».. وتمكن أحد الشيعة هناك من قتل «عبد العزيز بن سعود» وهو يصلى في مسجد الدرعية.. فخلفه ابنه سعود الذي واصل هجماته حتى حدود مسقط[1].. وشواطئ الخليج.. ثم فتح الحجاز.. ودخل مكة.. ووصلت الدعوة الوهابية لعسير باليمن.. وتعطلت مراسم الحج.. فاضطربت الدولة العثمانية وأوشكت هيبتها على أن تضيع لكونها غير قادرة على تأمين مراسم الحج.. في هذه الظروف لجأ السلطان العثماني لمحمد علي باشا طالباً مساعدته.. وأغراه بتحقيق حلمه في تحويل الحكم في مصر لنظام وراثي فاهتم محمد علي بالأمر.. وبدأ يحضر لحملته.. وعمل في البداية أولاً على تأمين طرق الموصلات بين مصر.. الحجاز.. وخرجت حملة محمد علي عن طريق البحر.. ونزل الجيش المصري في ينبع.. ووصل «طوسون» باشا ابن محمد علي عن طريق البر.. فقامت معركة بين الجيش المصري والوهابيين الذين كانوا معتادين على الكر والفر في الصحارى.. وبصعوبة شديدة استطاع الجيش المصري نهاية الأمر أن يفتح المدينة المنورة.. ويلحق الهزيمة بالوهابيين.. من هناك توجه «طوسون» باشا إلى جدة.. فاستولى عليها.. ومنها إلى الطائف.. ففتحها في ٢٩ يناير ١٨١٣.

عام ١٢١٨هـ ثم تولى بعده ابنه سعود إلى أن توفي عام ١٢٢٨ وكان يقود أحد جيوشه لصد الحملات العثمانية القادمة من مصر بقيادة طوسون باشا وبويع ابنه عبد الله الذي واصل حروب والده للحملات ولكنه فشل حيث أنه لم يلتزم بوصية والده الذي قال له لا تقاتل الترك بأرض مكشوفة.. وقد ستسلم عام ١٢٣٤هـ مقابل شروط منها عدم التعرض لأحد من المواطنين بأذى وعدم التعرض للمساكن والمزارع ولكن بعد ما تم استسلامه نكثوا بالعهود وقتلوا الكثير وقطعوا المزارع وأحرقوها وهدموا الكثير من المنازل على رؤوس ساكنيها ثم أخذوا معهم الإمام وقتل شهيدا باستانبول غدراً وخيانة وبهذا انتهت الدولة السعودية الأولى.. وسمي بآل مقرن نسبة إلى جده مقرن لأن الناس لم يسموا العائلة بآل سعود إلا في عهد الإمام سعود بن عبد العزيز آل سعود.. وتوفي الإمام محمد بن سعود بن محمد آل مقرن في عام ١٧٦٥.

(١) عاصمة سلطنة عمان حالياً.



بعدها هُزِمَ ««طوسون» باشا» في ترنه.. فانتشرت الأمراض بين العسكر فاتخذ «طوسون» موقف دفاعي.. وأرسل لمصر يطلب المساعدة.. فخرج محمد علي بنفسه على رأس جيش.. وانضم لجيش «طوسون».. فارتفعت المعنويات.. بدأ الموقف العسكري يتحسن.

وبينما تدور الأحداث على هذه الوتيرة توفي سعود الكبير قائد الوهابيين.. فخلفه ابنه عبد الله.. فأرسل محمد علي لنائبه في مصر «لاظوغلي» يطلب منه إرسال قوات.. وسلاح.. ومال..

واستطاع محمد علي أن يحقق انتصاراً كبيراً.. وواصل عسكر مصر زحفهم.. فعرض «عبد الله بن سعود» على المصريين الصلح أو الهدنة.

دور إبراهيم بك في الحرب الوهابية

في سنة ١٨١٨ أرسل محمد علي ابنه «إبراهيم باشا» على رأس جيش على الحجاز.. ليحقق هناك نجاحات عسكرية كبيرة.. فاقتحم نجد.. حاصر الرس.. عُنيزة.. الخُبر.. الدرعية.. فاضطر عبد الله بن سعود لطلب الصلح.. وسلم نفسه للجيش المصري فأسروه.. وذهبوا به إلى مصر في ١٦ نوفمبر ١٨١٨.

فأكرمه محمد علي.. بعد ها أرسله إلى السلطان العثماني في إستانبول.. وهناك أمر السلطان العثماني بإعدامه.. وعين محمد علي والياً على مكة.. والمدينة.. بينما عين «إبراهيم باشا» والياً على جدة.. فقرر «إبراهيم باشا» أن يدمر الدرعية بالكامل حتى يمنع عودة الوهابيين إليها.. أو التحصن فيها.. وهناك أنشأ «إبراهيم باشا» التكية المصرية في الحجاز.

عملياته في المورة

في سنة ١٨٢٤ عين السلطان العثماني محمود الثاني محمد علي حاكماً على شبه جزيرة المورة ببلاد اليونان.. حتى يساعده ضد الثوار اليونانيين في حرب الاستقلال اليونانية اللي كانت دائرة وقتها.

واستطاع «إبراهيم باشا» أن يحقق هناك انتصاراتٍ كبيرة بطريقة أذهلت الأوروبيين.

معركة نفارين

وفي ١٨٢٧ اتفقت روسيا مع كلٍ من إنجلترا.. فرنسا على عدم تبعية اليونان للسلطنة العثمانية.. فقرروا ضرب الأسطولين المصري والتركي.. فقامت معركة بحرية عُرِفَت باسم معركة نفارين (أو معركة ناوارين) انتهت بهزيمة أسطولي مصر.. تركيا.

كيف دارت أحداث المعركة؟

وقعت أحداث معركة نافارين وهي معركة بحرية في خليج ناوارين (فيلوس شرقي بيلوبونز) جنوب اليونان في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧م بين الأسطول العثماني مدعما بالأسطول المصري بقيادة إبراهيم باشا والأسطول الجزائري من جهة.. وأساطيل الحلفاء (بريطانيا.. فرنسا وروسيا) من جهة أخرى.

وبعد هزيمة العثمانيين فيها شر هزيمة كانت بداية الضعف في صفوف الإمبراطورية العثمانية.. وبدأت مرحلة استقلال اليونان من الحكم العثماني.

أسباب المعركة

- الخوف من التوسع العثماني في أوروبا الشرقية حيث استطاع الجيش العثماني الوصول إلى أسوار مدينة فيينا وأيضاً الفتوحات الإسلامية التي وصلت إلى منطقة القوقاز[١].
- رغبة التملك والتسلط التي كانت عند قياصرة روسيا (نيقولا الأول.. الكسندر الثاني)

كان وفقاً لاتفاقية لندن في ٦ يوليو ١٨٢٧ تصير كل من فرنسا.. بريطانيا العظمى وروسيا ضامني الحكم الذاتي لليونان في إطار الخلافة العثمانية.. وقبل

(١) ما يعرف اليوم بالشيشان وداغستان.

الثوار اليونانيون التسوية بسهولة.. لكن نظراً للوضع الصعب الذي كانوا فيه فإن العثمانيون رفضوا الحل.

فاتفقت القوات الأوروبية الثلاثة على إرسال أسطول بحري لمضايقة القوات المصرية بقيادة إبراهيم باشا وإجباره على إخلاء بيلوبونيز الحالية..

وقاد الأسطول نائب أمير البحر (الكونتر أدميرال) إدوارد قودرينكتن.. وتقرر فقط إظهار القوة لا المواجهة.

وكان هناك قسم من الأسطول البحري يبحر في المنطقة منذ أكثر من عام.. وكانت مهمتهم محاربة القرصنة البحرية.. وكان يخشى ألا يستطيع البحارة خوض معارك أخرى.

حتى قدم شهر أكتوبر وتعزز الأسطول صار من الواضح أن المهمة هي الضغط فقط على العثمانيين.. كما أن البحارين سمعوا عن أخبار ما كان يفعله العثمانيون في المنطقة للثوار اليونانيين من تعذيب لا داعي منه.. فازداد تحمسهم للقاء الأسطول العثماني ومواجهته بمناوشات أو أكثر..

وفي ذلك كان الأسطول العثماني راسياً في خليج نافارين وعُرِضَ عليه مرتين شروط إخلاء الخليج المقترحة من طرف القوات الثلاثة.. لكن إبراهيم باشا رفض شروط الإخلاء المقترحة.

ولم يحتمل الأدميرال قودرنكتن صبراً فقرر استعراض القوة في ٢٠ أكتوبر ١٨٢٧ مستغلاً فرصة هبوب رياح جنوبية غربية.. ودخل الخليج معززاً بـ ١١ سفينة بريطانية و٨ سفن روسية و٧ سفن فرنسية معها ١٢٧٠ مدفعاً.

أما القوات العثمانية فكانت مكونة من ٨٢ مركبا ٢٤٣٨ فوهة نارية و ١٦ ألف رجل.

دخلت سفينة آزيا الأولى في الخليج وكان الأسطول متكونا من صفين.. فقط بجانب بارجة أمير البحر البريطاني كانت بارجة أمير البحر الفرنسي لا سيران توقفت آزيا أمام قلعة نافرين.. التي تربع على سفحها المعسكر العثماني.. كانت

القوات الثلاثة على مدخل الكماشة العثمانية التي كانت لا تنتظر إلا قفل الفخة على الأسطول العثماني.. كانت المراكب متراصة بعضها البعض وعلى مرمى طلقة من العثمانيين..

وأرسل أمير البحر "قودرنكتن زورقاً للتفاوض مع إبراهيم باشا.. أطلقت رمية مدفعية بيضاء من القلعة ظنها الأسطول العثماني إشارة للاستعداد للعمليات.

وتوقفت الرياح.. فصارت السفن كلها تطفو بلا حراك حتى أنه تم وضع الأشرعة.. وكان جزءاً من الأسطول - خصوصاً الأسطول الروسي - لم يدخل بعد الخليج.. ولم يشارك في المعركة إلا في نهايتها.. وكان عليه مواجهة الطلقات الآتية من القلعة.. وكان أمير البحر "قودرنكتن واضحاً مع بحارته (لا طلقة مدفع.. أو سلاح آخر إلا إذا كانت رداً على طلقة عثمانية).

وكان هناك بارجة يقودها ملازم يُدعى (فيتزوري).. وطلب منه التنقل.. فقامت الحارقة الحارسة العثمانية بإطلاق النار على السفينة البريطانية.. فقتلت الملازم فيتزوري.. وكان أول ضحايا المعركة وكان معه عددٌ من مجدفيه.. فقامت البارجتان الدارثموت ولاسيران بالرد بالبنادق.

و بدأت المعركة بينما لم تبدأ بوارج الأمراء تبادل أي طلقة نارية كما جرت العادة من قبل..

وهكذا دارت رحى المعركة التي انتهت بالنهاية التي أشرنا إليها.

❖❖❖

حملاته في السودان

عمل محمد علي جاهداً على أن يوسع رقعة حكمه شرقاً إلى الحجاز.. وغرباً إلى ليبيا وجنوباً إلى السودان ليضم هذه البلدان تحت إمبراطوريته حتى أنه شمل في تهديده الإمبراطورية العثمانية شمالاً.. بدأ بأراضي الحجاز فهاجمها في السنوات ما بين ١٨١١ - ١٨١٨م وانتصر على السعوديين وبعدها اتجه غرباً فأمّنَ حدوده الغربية حتى واحة سيوه سنة ١٨٢٠.

لم يبق له سوى تأمين الحدود الجنوبية.. بعد أن شغلته حملاته ضد (الحجاز) عن ذلك حتى أرسل وفداً يحمل في ظاهره الصداقة والمودة إلى سلطان الفونج في ١٨١٣ وكانت مهمة الوفد استقصاء الحقائق حول الوضع العام في بلاد السودان سياسياً.. واجتماعياً.. واقتصادياً وكذلك عسكرياً.. وحمل الوفد هدايا إلى السلطان تقدر قيمتها بـ ٤ ألف ريال[1] فرد السلطان الهدية بما يتناسب ورغبات الباشا ولكن أهم ما حمله الوفد في طريق عودته كانت التقارير التي تفيد ضعف السلطنة خاصةً.. والسودانيين عامةً بالإضافة إلى خلو السودان من الأسلحة النارية.. رغم ذلك تأخر الغزو بعد ذلك عدة سنوات لأن الوهابيين لم تنكسر شوكتهم بعد.

أسباب أخرى لغزو محمد علي بلاد السودان

استقدامه الجنود من السودان

الجندي السوداني معروف عنه شجاعته.. وتكوينه الجسماني القوي.. لذلك أراد محمد علي أن يستقدم الجنود من السودان للمساعدة في تكوين جيشه الحديث وإمداده بعناصر متميزة.. وكان هذا من الأسباب التي دفعته إلى الاستيلاء على السودان.. اشتهر السودان منذ القدم بأن أراضيه غنية بالذهب

(١) كانت العملة السائدة في السودان في ذلك الوقت الريال النمساوي أو الإسباني أو المكسيكي.

وكان محمد علي في حاجة إليه لإنفاقه على بلاده عسكرياً وصناعياً وحتى زراعياً.

تأمين منابع المياه

خلال القرن الثامن عشر كانت الحبشة تشكل تهديداً للمصريين والسودانيين بتحويلها لمجرى النيل وخاصة بعد الأنباء التي أشاعت أن الإنجليز وأوروبا عامة يسعون لمساندة لفكرة التحويل.. فأراد محمد علي أن تأمين هذا لإدراكه قيمة وأهمية النيل بالنسبة للحياة في مصر.

زيادة الرقعة الزراعية

أراد محمد علي أيضاً باستيلائه على السودان إضافة المزيد من الرقعة الزراعية لأراضيه..

متابعة فلول المماليك

أراد محمد علي من تأمين السودان ضمان ملاحقة فلول ما تبقى من المماليك الذين هربوا من مذبحة القلعة.. وملاحقته إياهم في ربوع مصر.. مكائده اتخذوا من شمال السودان موطناً لهم بالقرب من مملكة الشايقية.. خاصةً أنهم أنشئوا هناك مملكة لهم كانت بمثابة طعنة في ظهر محمد علي.. لذلك قرر أن يقضي عليهم خوفاً من أن تزيد سلطتهم ويسيطروا على السودان فيشكلوا خطراً على حكمه.

الاستفادة من ثروات السودان الطبيعية

كان محمد علي يرمي إلى استغلال ثروات السودان الطبيعية.. واحتكار حاصلاتها وتسويقها في السوق العالمية عن طريق مصر.. وكان من أهم صادرات السودان آنذاك (العاج.. الأبنوس.. ريش النعام والجلود)..

السيطرة على مناجم الذهب

هذا بالإضافة للذهب الموجود في السودان بكميات مهولة.. وكون السودان كان سوقاً جيداً للصادرات المصرية.. وهو ما يسمح بالحصول على التمويل لدعم القطاعات المختلفة في مصر باستغلال الذهب والتجارة والحاصلات السودانية.

عودة الوفد المصري

بعد عودة الوفد المصري التركي الذي أرسله محمد علي باشا ما لبث أن قدم إلى مصر الشيخ (بشير ود عقيد)[1] من قرية أم الطيور قرب عطبرة في ١٨١٦ وطلب من محمد علي أن يعينه على خصمه ملك الجعليين الذي أقصاه من مشيخته.. اعتقد الشيخ أن الباشا سيساعده فأبقاه الباشا وأكرم وفادته حتى أعد العدة لفتح السودان وأرسله مع الجيش سنة ١٨٢٠ ثم عينه شيخاً على شندي في آخر الأمر بعد نزوح الملك نمر إلى الحبشة.. وأرسل أيضاً جيشاً آخر إلى سلطنة الفور ليستولي على كردفان ودارفور.

حملة محمد علي الأولى إلى السودان

الزحف إلى سنار يوليو ١٨٢٠

استخدم محمد علي ذكاءه حيث كان يعلم أن السودانيين يُجلون علماء الدين إجلالاً عظيماً فأرسل مع الجيش ثلاثة من أكبر العلماء وهم:

القاضي محمد الأسيوطي الحنفي..

السيد أحمد البقلي الشافعي..

والشيخ السلاوي المكي..

وكان عليهم أن يحثوا الناس على وجوب طاعة الوالي ويتجنبوا سفك الدماء (لحرمتها) ويطيعوا الخليفة العثماني وواليه في مصر..

(١) أحد زعماء بلاد السودان آنذاك.

وتولى قيادة الجيش الأول إسماعيل بن محمد علي باشا وضم الجيش ٤٥٠٠ من الجنود فيهم الأتراك والأرناؤوط والمغاربة.. ويُقال أن هذا الجيش لم يضم بين صفوفه أي جندي مصري.. وكان معهم بخلاف السلاح التقليدي (البنادق) ٢٤ مدفعاً.

الزحف براً.. وبحراً..

وما أن ارتفعت مياه النيل في فيضان يوليو ١٨٢٠ حتى اندفعت ٣٠٠٠ مركبة تشق النيل من أسوان متجهة جنوباً ومثل ذلك العدد من الجمال كان يسير على اليابسة تابعاً للحملة.

التسليم الفوري

وجد حكام شمال السودان أنفسهم ضعافاً أمام الحملة نظراً لتفرقهم إلى ممالك صغيرة.. فسلموا الأمر إلى إسماعيل باشا.. أما المماليك فهرب جزء منهم إلى الجعليين وسلم البعض الآخر نفسه إلى إسماعيل.

معركة كورتي نوفمبر ١٨٢١

لم يقابل جيش إسماعيل أية عقبة حتى وصل الديار الشايقية الذين اعتزوا بسطوتهم على جيرانهم وثورتهم على الفونج.. وآثر الشوايقة الخضوع للحكم على أن لا يتدخل الباشا في شؤونهم لكن إسماعيل وضع شروطاً كان أهمها هو تسليمهم الخيل والسلاح (الأبيض) وأن يفلحوا الأرض فلم يقبلوا بذلك وعزموا على القتال.. بدأ النصر يلوح للشوايقة حتى أنهم قطعوا أذان عدوهم بقيادة الملك صبير حاكم غرب الشايقية وانضموا إلى المقاومين الذين لحقوا بالمماليك في دار جعل.. بقيادة الملك جاويش حاكم عموم الشوايقة في مروي.. فمنح إسماعيل مكافأة لكل جندي يقتل شايقياً ويأتي بأذنيه دليلاً وكان من جراء ذلك أن عاد الجنود بعدد ضخم من آذان القتلى والأحياء لكن هذه القسوة محتها المعاملة الحسنة من عبدي كاشف أحد قادة جيوش إسماعيل حين أعاد فتاة تُدعى

(صفية) كانت بنت الشيخ (صبير) شيخ السوارب أحد ملوك الشوايقة وكانت تؤلب الرجال وتثير فيهم الحماس ليستميتوا في قتالهم ضد الغُزاة.. انضم رجال الملك صبير إلى جيش إسماعيل برغبتهم.. وساروا معه لإخضاع باقي المناطق.

وذهب الملك جاويش إلى المتمة حيث الملك نمر لكن الملك أبى أن يقبل التحالف معه فاتجه جنوباً إلى حلفاية الملوك الذين رفضوا أيضاً فهاجمهم بخيالته ثم اتجه شمالاً ليعلن عن رغبته في الانضمام إلى جيش إسماعيل.

وبانضمام الشايقية إلى الجيش الغازي كان لهم تاريخ جديد هو التعاون مع الأتراك والمصريين حتى قيام الثورة المهدية.. وكانت نزعتهم هي أن يكونوا سادة مع السادة مهما كان الأمر بدلاً من أن يعيشوا كسائر الرعية.. وربما كان حبهم للجندية هو أهم دافع لهم على السير في جيش إسماعيل.. قرر الملك نمر الإذعان للجيش الغازي فانضم للجيش وألحقه إسماعيل بجيشه ليضمن ولاءه.. وسار الجيش حتى بلغ الحلفايا (دار العبدلاب) حتى جاء ملكهم الشيخ ناصر بن الأمين خاضعاً للجيش فتركه سيداً على بلاده وأخذ ابنه ليضمن ولاء العبدلاب كما جعل من الملك نمر ضماناً لولاء الجعليين وكان ذلك في ١٨٢١.

اجتياح سنار

سار الجيش متجهاً نحو سنار عاصمة مملكة الفونج فأرسل إسماعيل إلى الوزير محمد ود عدلان الذين كان ممسكاً بزمام الحكم بدلاً من السلطان بادي السادس.. وطلب منه إسماعيل باشا الولاء للخليفة العثماني فكتب له ود عدلان رسالته المشهورة: (لا يغرنك انتصارك على الجعليين والشايقية.. فنحن هنا الملوك وهم الرعية.. أما علمت بأن سنار محروسة محمية.. بصوارم قواطع هندية.. وجياد جرد أدهمية.. ورجال صابرين على القتال بكرة وعشية).

كان ظاهراً أن ود عدلان لم يكن يعيش واقع عصره إذ أن جواسيسه أخبروه أن الجيش قوامه ١٨٦ ألف محارب (نلاحظ أن الجيش المتحرك من مصر كان

٤٥٠٠ جندي) حتى انه أخذ يطلب العون من الأولياء والصالحين بدلاً من تجنيد الجند من القبائل ومحالفة القبائل الأخرى ليستعد لمقابلة الجيش.

اغتيال ود عدلان

بعدها تم اغتيال ود عدلان بسبب مشاكله مع أبناء عمومته قبل أن يصل إلى اتفاق مع الفور بشأن توحيد الكلمة لمحاربة الغازي..

التفاوض مع إسماعيل

بدأ الوزير الجديد للسلطنة في السعي للتفاوض مع إسماعيل في ود مدني ونقل إليه رغبة السلطنة في الخضوع بعد أن أدرك أنه لا فائدة تُرجى من المقاومة.. لما اقترب إسماعيل من سنار خرج إليه بادي السادس (الذي كان شاباً في الخامسة والعشرين) مبايعاً وتنازل عن سلطانه لخليفة المسلمين في ١٣ يونيو ١٨٢١.

وهكذا انتهت سلطنة الفونج التي عاشت في ربوع السودان من عام ١٥٠٤ – ١٨٢١م.. بدخول الجيش المصري في اليوم التالي دخول الغزاة المنتصرين وهم يقصفون البر ومن خلفهم سار السلطان السابق بعد أن عينه إسماعيل شيخاً على سنار ليجمع الضرائب ويسلمها للإدارة التركية المصرية.

❖❖❖

الحملة الثانية
(حملة كردفان ودارفور)

ثم أرسل محمد علي جيشاً آخر بقيادة صهره محمد بك الدفتردار لضم غرب السودان إلى مصر.. ولقد أمد (قبيلة الكبابيش) [1] من تلك المناطق أمدت جيش الدفتردار بما يحتاج إليه من جمال لنقل العتاد إلى غرب السودان.. وكانوا خير دليل لتحديد أماكن الآبار ومناطق المعسكرات.

وسار جيش الدفتردار عقب انطلاق الجيش الأول وقبل أن يصل إلى الأبيّض عاصمة الفور أرسل إلى سلطانها محمد الفضل ينصحه بالتسليم.. فرد عليه الفضل:

(أما علمت أن عندنا العِباد والزُهاد.. والأقطاب والأولياء الصالحين ممن ظهرت لهم الكرامات في وقتنا هذا وهم بيننا يدفعون شر ناركم.. فتصير رماداً.. ويرجع إلى أهله والله يكفي شر الظالمين).

لكن الدفتردار تقدم إلى كردفان دون أن يعترضه أي معترض.. فلما علم الوالي خرج بعسكره متجهاً شمالاً إلى بارا ليواجه الجيش الغازي.

معركة بارا ١٦ أبريل ١٨٢١م

التقى الغزاة مع جيش المقدوم مسلم والي كردفان الذي عينه السلطان محمد الفضل وهو سلطان دارفور الذي ضم كردفان إلى مملكته وعين محمد الفضل حاكما على كردفان تحت سلطانه وعقبهم في كردفان يسمون بالمسبعات.. فاندفع جيش الأخير لا يتوقع سوى النصر.. لكنهم تفاجئوا بسقوط الجنود بالرصاص فعلموا أنه لا قِبل لهم بعدوهم وهم يحملون السيوف والرماح.

(١) هي القبيلة التي تقطن بين مصر والمناطق الغربية للسودان والتي كانت تحمل البضائع من وإلى مصر.

سقوط كردفان

وهكذا انتهت معركة بارا بهزيمة السودانيين وانتصار الجيش المصري.. فسقطت كردفان في يد الدفتردار قبل سقوط سنار في يد إسماعيل.. لم يحاول السلطان المقاومة بل نزح إلى الفاشر ينتظر تطورات الموقف.. لم يسر الدفتردار أبعد من الأبيّض لندرة المياه في تلك المناطق فأعلن محمد علي باشا عدم رغبته في فتح دارفور بل فكر في إخلاء كردفان والتنازل لأحد الملوك ليدفع الجزية إلا أن الدفتردار أقنعه بالعدول فعدل عن ذلك في ١٨٢٢م.

وبذلك سقطت كردفان من سلطنة الفور التي كانت تحت إمرة ملوك دارفور منذ عهد السلطان تيراب[١].

مقتل إسماعيل بن محمد علي باشا ١٨٢٢

بدأت الثورات تظهر في مختلف المناطق بسبب التصعيد المتواصل في الضرائب التي فرضها رجال محمد علي على السودانيين إذ أن الضرائب السنوية للممتلكات كانت تقدر بنصف الثمن.. فلما هدأت الثورات بعد أن زاد الولاة في قسوتهم وزادوا في ضرائب الجهات الثائرة إذ أن الجزيرة زيدت ضرائبها من ٣٥ألف ريال إلى ٥٠ ألف ريال وكذلك أراضي الجعليين.

بين إسماعيل باشا والملك نمر

وصل إسماعيل باشا إلى شندي في ديسمبر ١٨٢٢ وأمر الملك نمر والملك مساعد بالمثول أمامه.. وعند حضورهما بدأ الباشا بتأنيب الملك نمر واتهامه بإثارة القلاقل ومن ثم عاقبه بأن أمره بدفع غرامة فادحة.. قدرها (١٠٠٠ أوقية ذهب.. ألفي عبد ذكر.. ٤ آلاف من النساء والأطفال.. ألف جمل ومثلها من البقر والضأن) وهو بالطبع طلب شبه مستحيل.

---

(١) كانت عاصمة ملكه هي (شوبا) إحدى ضواحي مدينة كبكابيه الآن وبها آثار مسجده العتيق .

حكاية (سعيدة) زوجة الملك نمر

ثم رأى إسماعيل (سعيدة) زوجة الملك نمر فأُعجِبَ بجمالها وطلب أن يأخذها هي أيضاً.. رد الملك باستحالة الطلب فأهانه الباشا وضربه بغليونه التركي بإساءة بالغة أمام الحاضرين.. حتى أن الملك رفع سيفه فأوقفه الملك مساعد وتحدث إليه باللغة الهدندوية (التي عرفوها عن طريق التجارة مع سكان البحر الأحمر) فأبدى الملك رضوخه وأظهر خضوعه بأن دعا الباشا إلى العشاء وذبح له الضأن وهيأ له الحرس وأمعن في خدمته وأخبره أن الغرامة ستدفع في صباح اليوم التالي.. أثناء ذلك كان الجعليون يطوقون الحفل بالقش من كل مكان مخبرين رجال الباشا أنها للماشية التي ستحضر وقبيل انفضاض الحفل أطلق الجعليون النار في القش فمات إسماعيل ورجاله خنقاً وحرقاً.. نتيجة لذلك ساءت معاملة المغتصبين أشد الإساءة حتى أنهم قتلوا في إحدى المرات ٣٠ ألف من الجعليين العزل.. استمر الملك نمر في إغارته على الدفتردار حتى بلغت خسائر رجاله عدداً عظيما بفضل السلاح الناري فهاجر الملك ومعه عددٌ لا يستهان به من القبيلة إلى حدود الحبشة حيث خطط مدينة أسماها المتمة أسوة بعاصمة الجعليين في الشمال ومكث هناك عدة سنين حتى مات.

استمر الحكم الدفتردار العسكري للسودان واستمرت المجازر البربرية كما أن الجنود الذين لم يتسلموا مرتباتهم لمدة ثمانية أشهر بدءوا بالبطش والنهب ليجدوا متطلبات حياتهم.. إلى أن ثار الرأي العام الأوروبي.. فأمر محمد علي.. الدفتردار بالعودة سنة ١٨٢٤ محاولة منه إنهاء الحكم العسكري وإرساء نظام إداري أكثر إنسانية.

عند الدخول التركي عينت سنار عاصمة للسودان إلا أن أمطارها الخريفية وكثرت الأمراض فيها اضطرتهم إلى تغييرها إلى ود مدني إلى أن أتى عثمان باشا الذي خلف الدفتردار عقب عودته إلى مصر وأعجب بالمنطقة التي يقترن فيها النيل الأبيض بالأزرق فبنى قلعة ووضع فيها الجند سنة ١٨٢٤ واتخذها



عاصمة له.. تلك كانت بداية مدينة الخرطوم التي ازدهرت وسكنها ٦٠ ألف نصفهم من المصريين واليونان واللبنانيين والسوريين وأعداد من الأوروبيين.

حملاته في الشام.. الأناضول

كان محمد علي يريد تأسيس دولته بحيث تضم كل العرب من مصر إلى بلاد مابين النهرين.. فأرسل «إبراهيم باشا» بجيشه على الشام سنة ١٨٣٢ وهناك حقق «إبراهيم باشا» انتصارات ضخمة على الجيش العثماني كانت خسائره فيها أقل القليل.. واستولى على الشام بما فيها دمشق.. حمص.. غزة.. حيفا.. يافا.. واستمر إبراهيم يحقق انتصاراً وراء انتصار في بلاد الشام.. في بيلان.. قونيه.. وهزم العثمانيين في «معركة نزيب».. واستولى على كوتاهيه.. واقترب من دخول إستانبول نفسها عاصمة العثمانيين.. وأوشكت أن تقع في يده لولا تدخل الأوروبيين بمطامعهم الخاصة.. وبعد أن استنجد بهم السلطان العثماني وكان من بينهم روسيا نفسها التي كان يناصبها العداء بالأمس القريب.. ولكن وَحَدَت بينهم مشاعر الذعر والتخوف من مطامع محمد علي وطموحاته التوسعية.. واستجاب الروس فوراً.. وحركوا أسطولهم للساحل الأوروبي تجاه تركيا.. ولما علمت كل من فرنسا.. وإنجلترا بذلك اندلعت بينهم حُمى التنافس على التركة العثمانية.. وضغطوا على السلطان العثماني للاتفاق مع محمد علي.. وفي نفس الوقت واصلوا ضغطهم لإيقاف زحف «إبراهيم باشا».. ونجحوا بالفعل في ذلك.

محمد علي وثورة فلسطين ١٨٣٤

لم تقم في فلسطين على امتداد تاريخها الطويل ثورة أعم وأشمل وأكثر تنظيماً من ثورة ١٨٣٤ التي قام بها أهل البلد ضد حكم محمد علي باشا والي مصر.. وقد دخلت بلاد الشام ومن ضمنها فلسطين تحت حكم محمد علي باشا لمدة عشر سنوات بدأت في شهر نوفمبر ١٨٣١ وانتهت بنهاية عام ١٨٤٠ بعد الحملة العسكرية التي قادها إبراهيم باشا واكتسح خلالها قوى السلطان محمود الثاني وطاردها حتى مشارف الآستانة..

رأي محمد علي أنه يستطيع امتلاك عكا على الأقل لتأمين حدوده الشرقية.. وكان يراقب بارتياح تردي الأمور بين الولاة في الشام.. والولاة اقتتلوا حول دمشق ثم حاصروا عكا لمدة ٩ أشهر سنة ١٨٢٢ وثار الجنبلاطيون سنة ١٩٢٥ وتناعت الزعامات النابلسية في قضايا الولاية والضرائب.. وامتنعت القدس وبيت لحم عن دفع الضرائب.. وقامت ثورة في فلسطين رغم دكتاتورية (عبد الله باشا الجزار) والي عكا آنذاك.. وكان الملتزمون يتسلمون جمع المال في غزة بشكل أصبح عبئاً ثقيلاً على أهل غزة.. أما البدو في الأطراف فكانوا ينهبون من ثروات غزة مئات الآلاف من الليرات الذهبية كل عام.. لذا عندما سمع الناس بقدوم محمد علي.. شعروا بقرب الفرج.. فطردوا وكيل الجمرك وأعلنوا العصيان.. ولم يكن تهديد الجزار لهم يخيفهم لأن الجنود المصريون سبقوه إلى غزة.

أما القدس ونابلس فقد جرد عليهم الجزار حملة نكبت زعماءهم واضطر قسم منهم إلى الثورة واعتصموا بقلعة صانور فدمرها الجزار مما دفع من تبقى من الزعامات للتعاون مع محمد علي.

ولم يدفع عبد الله الجزار لمحمد علي ديونه.. وآوى إليه مجموعة كبيرة من الفارين من الضرائب في مصر.. فاتخذ محمد علي ذلك ذريعةً لمهاجمة فلسطين ومحاربة والي عكا.. وبسبب كثرة الحروب بين الولاة لم يكترث الباب العالي في البداية لهذه الحرب.

تحركت جيوش محمد علي براً وبحراً بقيادة إبراهيم باشا في ١٨٣١/١٠/٢٩ ولم تجد صعوبة في احتلال العريش ورفح وغزة.. وهربت قوى الجزار فتابع إبراهيم باشا مسيرة ووصل إلى يافا في ١٨٣١/١١/٨ ودخلها وتوجه إلى حيفا في ١١/١٣ وفي ١١/٢٦ بدأ حصاره لعكا.

قدم زعماء المناطق الفلسطينية الولاء لإبراهيم باشا وهو في حيفا.. وكانت كتائب من الجيش المصري قد احتلت بقية فلسطين.. ورفعت الضرائب التعسفية عن غير المسلمين مما زاد في تأييد محمد علي باشا.

بعد عدة أشهر من حصار عكا بدأ القلق يساور محمد علي.. خصوصاً أن الباب العالي أعلن عصيان محمد علي في ٢٣ إبريل ١٨٣٢ واستصدر ضده فتاوى دينية وجرده من الولاية مع ابنه وأباح دمهما.

لكن عكا سقطت في ٢٧ مايو ١٨٣٢ وأُسِرَ عبد الله باشا.. وأُرسِلَ إلى مصر.. وثارت بعد ذلك أزمة دولية خطيرة انتهت بصلح كوتاهية في ٦ مايو ١٨٣٣ الذي أعطى محمد علي ولاية فلسطين.

حاول إبراهيم باشا بعد ذلك دعم الإنتاج الزراعي في بلاد الشام.. وأدخل إصلاحات على نظام التعليم.. لكن مجموعة التدابير التي اتخذها جلبت النقمة عليه من قبل سكان فلسطين ومن أهم هذه التدابير:

- مصادرة المؤن لتموين الجيش.
- مصادرة حيوانات النقل.
- إجبار الناس على إقامة التحصينات العسكرية بالسخرة.
- نزع السلاح من الأهالي.
- التجنيد الإجباري.

وعندما صدر أمر إبراهيم باشا بطلب ٢٠٠٠ مجند من كل قضاء فلسطين وذلك في ٢٥ إبريل ١٨٣٤ تسب ذلك في الصدام المسلح مع الأهالي..

في منتصف مايو من نفس العام هاجم الفلاحون والبدو القوات المصرية في الكرك.. وذُبحَت حامية الخليل.

وفي ٢٥ مايو ١٩٣٤ التهب طريق باب الواد وتحركت الفتية في بيت جالا وبيت لحم.. والبيرة.. وقام الناس بحصار القدس.. واشتعلت نابلس فوصلت الثورة من صفد شمالاً إلى غزة جنوباً.

لم تكن الثورة مجرد انفجار شعبي عفوي.. بل اتخذت الشكل التنظيمي حين تسلمت الزعامات قيادتها.. فقد اجتمعوا وقرروا إعلان الثورة في ٢٨ إبريل ١٨٣٤

وسيطر ثوار القدس على المدينة في ١٤/ مايو من العام نفسه وكانت الخليل وغزة في يد الثوار والتحقت اللد وطبرية بالصورة أيضاً.

اتجه إبراهيم باشا بعدها إلى القدس يوم ٦ يونيو ١٨٣٤ وبعد ٣ أيام من المعارك الطاحنة دخلها في ٨ يونيو ١٨٣٤ وتحصن في قلعة القدس بانتظار نجدة أبيه..

حاول ثوار نابلس اقتحام القدس فصدهم إبراهيم باشا ٣ مرات.. ولم يجد بُداً من مفاوضتهم كي يكسب الوقت.. فأوقف التجنيد وألغى ضريبة الفِردة وعين (قاسم الأحمد) وهو قائد ثوار نابلس حاكماً علي البلاد في ٢٦ يونيو ١٨٣٤.. فانتهي بذلك الحصار الذي استمر شهراً ونصف.

جاء المدد من مصر بعد أيام.. ووصل محمد علي بنفسه إلى يافا.. أوائل يوليو.. وكلف الأمير (بشير الشهابي) بإخماد ثورة صفد.. وعاد إلى الإسكندرية.. وكان ثوار نابلس وهم الأكثر عدداً والأخطر في هذه الثورة قد منعوا القمح المفروض عن إبراهيم باشا.. فسار إليهم في ١٠ يوليو ١٨٣٤ووعد بالإعفاء من التجنيد والتسامح في الميري.. وأخذ يتفاوض مع آل أبو غوش.. فلما استجابوا له مقابل إطلاق زعيمهم إبراهيم أبو غوش.. قطع مفاوضاته مع قاسم الأحمد وسار إلى جبال نابلس وسحق في طريقه بلدة الطيبة وقاقون وهزم الثوار عند زيتا.. ولاقاهم عند دير الغصون في طولكرم يوم ١٦ يوليو ١٨٣٤ وتمكن من هزيمتهم هزيمة نهائية عاد بعدها إلى نابلس.. وخرج أهلها يطلبون الأمان.. فقتل من وقع في يده من الثوار وجرى تجريد السكان من السلاح.. أما بقية الزعماء فقد أخذوا عائلاتهم من نابلس وهربوا إلى الخليل.

في نفس الوقت سار الأمير بشير حسب أوامر محمد علي إلى صفد.. فلاقاه شيخها صالح الترشيحي معلناً الطاعة.. فدخلها الأمير.. وخضعت المناطق المجاورة وتلقى الأمير طاعة طبريا وقرى الجليل والساحل حتى عكا.. وانتهي من ذلك في ٢٥ يوليو ١٨٣٤.

دخل إبراهيم باشا القدس فقدم أهلها الطاعة.. وأرسل ثوار الخليل يطلبون الأمان ليدخلوا في الطاعة.. لكن إبراهيم باشا اشترط عليهم تسليم زعماء الثورة أحياء.. فرفض الثوار مطلبه.. فتحرك إليهم بقواته في ٥ أغسطس وهزمهم عند بيت جالا.. وأصرت الخليل على المقاومة.. فهاجمها واحتلها بعد بضع ساعات من المقاومة وأباحها للنهب والقتل والأسر.. وخسرت الخليل مالا يحصى من الأموال.. واعتقل علماءها ودراويشها وأبعدهم إلى مصر.. وأما مشايخ نابلس فقد فروا إلى الكرك شرقي الأردن.. ولما هاجمها إبراهيم باشا فر النابلسيون إلى غزة لكنهم وقعوا في الأسر لملاحقة إبراهيم باشا إياهم.. وقتل قاسم الأحمد والبرقاوي وقطع رؤوس أولادهما.

وإن كانت الثورة في فلسطين قد خمدت فإنها كلفت النظام المصري الكثير من الضحايا والجهد كما أنها جرأت عليه المناطق الأخرى وتركت الكثير من الأحقاد في فلسطين ستنفجر في وقت لاحق.

كما كانت هذه الثورة من أهم أسباب إجهاض مشروع محمد عي في إقامة مملكة عربية موحدة في مواجهة العثمانيين مما فرض علي محمد علي الانسحاب من بلاد الشام..

وقد ترك آخر جنود محمد علي غزة في اتجاه مصر في ١٩ فبراير١٨٤١م.

معاهدة كوتاهيه

وتوصلت جميع الأطراف إلى عقد «اتفاقية كوناهيه» في إبريل ١٨٣٣ الموافق ١٨ من ذي القعدة سنة ١٢٤٨هـ وهي الاتفاقية التي قضت بتثبيت «محمد علي» على ولاية مصر.. ومعها كريت.. وسوريا بكل نواحيها.. وتجديد ولاية «إبراهيم باشا» على جدة.. مع منحه إدارة الحجاز في مقابل خروج الجيش المصري من الأناضول.

وكان من أهم بنود معاهدة كوتاهية:

- أن ترجع جيوش محمد علي عن إقليم الأناضول إلى ما بعد جبال طوروس.
- أن يُعطى محمد علي ولاية مصر مدة حياته.
- يعين محمد علي واليًا من قبله على ولايات الشام «عكا - طرابلس - دمشق - حلب» وأيضاً جزيرة كريت.
- يعين إبراهيم باشا واليًا على إقليم أضنة.
- واضطر السلطان محمود الثاني لتوقيع الاتفاقية وهو يضمر في نفسه الاستعداد للحرب مرة أخرى ويؤدب واليه المتمرد محمد علي.

تفاصيل معركة نزيب

وقعت معركة نزيب يوم ٢٤ يونيو ١٨٣٩ بين مصر والدولة العثمانية.. وانتصر فيها الجيش المصري والذي كان تحت قيادة القائد إبراهيم باشا على الجيش العثماني الذي دمر بالكامل بقيادة «حافظ عثمان» باشا.

تعكس هذه الحرب حالة الانشقاق التي ضربت وحدة الدولة العثمانية مع مصر أكبر ولاياتها خلال القرن التاسع عشر.. والنابعة من وهن الدولة العثمانية والفارق في التطور بين ما أحدثه محمد علي في مصر مدنياً واقتصادياً وعسكرياً.. وما آلت إليه الدولة العثمانية من ضعف.. ووهن.

وكانت الرؤية السياسية بعيدة المدى التي امتاز بها محمد علي عاملاً مهماً في نشأة الخلاف بينه وبين الخليفة العثماني.

واستغل محمد علي حالة الترهل الشديدة التي كانت عليها الدولة العثمانية.. وأيضاً حالة الانقسام الواضحة بين القوى الأوروبية وبعضها البعض واختلال نظرية التوازنات السياسية الإقليمية والدولية في فرض قوته وتميزه.

كما دل هذا الانتصار على التخطيط الاستراتيجي الناجح وتفوق إبراهيم باشا كقائد عسكري ومهارته المشهودة في القتال بجيشه على أراضي مختلفة..

وتضاريس مجهولة.. وتحت ظروف جوية معقدة كانت غير معتادة للجندي المصري حديث العهد بالجندية آنذاك.. وذلك على حساب نظيره العثماني والمعزز آنذاك بخبرات عسكرية من أوروبا جاءت لمساعدته.

لذا لم تكن الانتصارات التي حققها إبراهيم باشا وليدة المصادفة.. فقد جاءت بعد نضج مهاراته القيادية والعسكرية عبر خوضه سلسلة معارك وفتوحات عديدة في كل من السودان والحجاز ونجد وفلسطين وسوريا وحرب المورة في اليونان.

لماذا تدخلت الدول الأوروبية؟

بشاير ضعف وتفكك الإمبراطورية العثمانية دفع بعض القوى الأوروبية الساعية للبحث عن مستعمرات جديدة للتدخل من أجل إحداث توازن إقليمي يحفظ سيطرتها على الشرق.. واستغلال حالة الترهل الواضحة للدولة العثمانية.. وأيضاً لإنهاء الخلافة الإسلامية العربية.

وكان من الضروري لتحقيق تلك الأهداف العمل على دحض أهداف محمد علي.. ولذا قامت كل من المملكة المتحدة والإمبراطورية النمساوية بالتدخل لصالح الإمبراطورية العثمانية لدعمها من خلال إرسالهم لقوات وأسطول بحري عبر المتوسط لقطع الطريق بين مصر من جهة ومواقع البحرية السورية والجيش المصري من جهة أخرى.. ونجحت في ذلك في نهاية المطاف واضطر إبراهيم باشا إلى العودة إلى مصر في فبراير ١٨٤١م.

ويبقى أن نذكر أن الجيش المصري نجح في الانتصار من قبل بقيادة إبراهيم باشا على العثمانيين في معركة كوتاهيه والتقدم في تركيا حتى مدينة قونية الحالية.. وكان القائد إبراهيم باشا قد أصر على والده محمد علي باشا في المواصلة حتى الآستانة – إسطنبول - وبالتالي لإسقاط الخلافة العثمانية.. ويدلل بعض المؤرخين على أنه كان قادراً على ذلك.. إلا أن تردد محمد علي وإسهابه في

الحسابات السياسية والمفاضلة مع أوروبا أدى إلى ضياع الفرصة على ولده إبراهيم ونشأة الخلاف بينهما.

مميزات «إبراهيم باشا» كحاكم

لم يكن «إبراهيم باشا» مجرد قائد عسكري متميز.. إنما كان أيضاً حاكماً ذكياً.. ومستنيراً.. ففي سنة ١٨٣١ وبعد أن فتح الشام استصدر فرماناً أمر فيه برفع الضرائب عن الكنائس.. وعن الرهبان المسيحيين في القدس.. ونابلس.. وجاء نص الفرمان كما يلي:

«نأمر أن تُلغى وإلى الأبد كل الضرائب التي تُجبى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس من يونانيين وفرنجة وأقباط وأرمن وغيرهم مهما كانت الذريعة أو التسمية التي تُؤخذ بها هذه الضرائب حتى وإن سُميت هدية عادية وطوعية.. أو سُلِمَت إلى خزينة الباشوات أو لمصلحة القضاة وما شابه ذلك فإنها جميعاً ممنوعة منعاً باتا.. وبعد إعلان هذا الأمر سيُعاقب بصرامة كل من يطلب أقل إتاوة من المعابد والأديرة المذكورة أو من الحجاج »

كما أصدر فرمان آخر يسمح للمسيحيين بترميم كنائسهم وأديرتهم وتجديدها.

وفاته

وفي أواخر حياة أبيه «محمد علي» تولى «إبراهيم باشا» حكم مصر بعد نجح في إبعاد أبيه عن الحكم بعد أن أصابته - أي محمد علي - ما سمته كتب التاريخ بأعراض التخريف المرتبطة بكبر سنه وشيخوخته.. أي أنه لم يتآمر على أبيه.. بل بالعكس أنزله بأحد قصوره بالإسكندرية.. وعاش هناك معززاً مُكرماً حتى وافته المنية.. لكن الغريب أن «إبراهيم باشا» هو من توفي في ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ أولاً قبل أبيه محمد علي.. وكان قد مرَ عليه في حكم مصر أحد عشر شهراً فقط.. بعدها تولى حكم مصر ابن أخيه.. وحفيد محمد علي باشا عباس حلمي الأول.

❖❖❖

خورشيد باشا

يُعُدُّ من كبار قادة محمد علي باشا..

اسمه بالكامل (محمد خورشيد باشا).كان مملوكاً من أصل ألباني غير معروف الأب.. قدِم إلى مصر صغيرًا وتعلّم بها.. وبرز قائدًا من قواد محمد علي.. فعيّنه محافظًا لمكة في أوائل سنة ١٢٤٨هـ.. فثار عليه الجند فيما يعرف بحركة تركجة بيلمز.. فاستْدعي إلى مصر.. وعُيِّن قائدًا لكتيبتين فتوجه إلى الحجاز في ١٢٥١ هـ حيث كلفه محمد علي بقيادة فرقتين تعسكران في الحجاز.

بعد فشل حملة إسماعيل.. كُلف خورشيد بحملة قوية.. انطلقت من المدينة المنورة.. فوصلت نجدًا في شهر صفر.. ثم عيّنه محمد علي باشا محافظًا للمدينة المنورة.. ثم قائدًا للحملة المصرية على نجد التي انتهت برحيل الإمام فيصل.. وأصبح خالد بن سعود الكبير حاكمًا اسميًا.. فيما كان خورشيد هو الحاكم الفعلي.. أخباره في نجد تؤكد أنه كان حكيمًا.. غير مبادر إلى سفك الدماء.. يوقّر العلماء لم يتعرض لهم بسوء.

من سنة ١٢٥٤ هـ استطاعت أن تبعث بالإمام فيصل بن تركي إلى القاهرة.. وتنهي الدولة السعودية.. وتسيطر على أراضيها..

طلب محمد علي منه تحديد الواردات التي يمكن أن تستخلص من تلك الأراضي.. والطريقة المثلى للسيطرة عليها.. وإدارة الجنود فيها..

وفي ذلك يقول خورشيد في رسالة لمحمد علي باشا:

(وصلت لي إرادة ولي النعمة ذي المكارم المعتادة في ١٩ ربيع الأول ١٢٥٥هـ الآمرة بأن نبيّن ما يحصل من الواردات من المَحال.. التي ينصب لها أمراء.. وكيف يمكن إدارة العساكر.. وما هي الفائدة التي تعود على الحكم) ومن مقره لذي اتخذه في ثرمداء.

وفي سنة ١٢٥٦هـ صدرت الأوامر إليه بالرحيل.. وإخلاء نجد طبقًا لبنود معاهدة لندن.. حيث عُيِّن وكيلاً للجهادية.. ثم مديرًا للدقهلية.. حتى توفي في المنصورة سنة ١٢٦٥هـ.

وثيقة نادرة مرتبطة بخورشيد باشا

ومن منظور آخر وفي سياق حديثنا (خورشيد باشا) يمكننا القول أن التقارير الرسمية التي كتبها قواد الحملات المصرية على الدولتين السعوديتين الأولى والثانية.. تعدّ من أهم المصادر التي تصور تاريخ تلك الفترة وما جرى فيها من أحداث تصويرًا دقيقًا.. قائمًا على المعاينة والرصد.. كما أنها تتناول أمورًا لا نجد مثلها في المصادر التاريخية التي اهتمت بالأحداث والوقائع التاريخية.. وعلى الرغم من أنها ربما كُتِبَت من وجهة نظر القوى الغازية وهو الجانب المصري.. إلا أنها تبقى مادة خصبة.. تمدنا بالكثير عن أحوال تلك الحملات وغيرها من أمور قيادة الجيش وخلافه.. وبالرغم من كوننا قد استعرضنا مجمل أحداث الحملات المصرية على بلاد الحجاز.. إلا أننا لابد أن نتوقف عند مضمون تلك الوثيقة فهي بلا شك تساعدنا كثيراً على فهم ملامح الصورة لركن من أهم أركان تجربة (محمد علي)..

الوثيقة عبارة عن تقرير كتبه خورشيد باشا بصفته قائد الحملة المصرية التي أنهت الدولة السعودية الثانية.. في طورها الأول.. والتقرير أو الوثيقة[1] محفوظة حالياً في دار الوثائق القومية بالقاهرة.. تحمل رقم (١٦٣) في المحفظة رقم (٢٦٧)..

الوثيقة مؤرخة بتاريخ ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٥هـ الموافق ١٠ أغسطس ١٨٣٩م..

---

(١) نشرها الدكتور عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم في كتابه (محمد علي وشبه الجزيرة العربية) وننقل مضمون الوثيقة عن كتاب "من وثائق الأرشيف المصري في تاريخ الخليج والجزيرة العربية" للدكتور عبد العزيز عبد الغني إبراهيم.. التقرير أو الوثيقة الأصلية كُتِبَت باللغة العثمانية.. وتمت ترجمته وقتها للغة العربية وإن كان أسلوب مترجمها ضعيفاً وركيك كما هو واضح من كثرة أخطاءه في بديهيات اللغة.. وتحتاج ي مجملها المزيد من التأمل لفهم المعنى المقصود.

فبعد اندحار القوات العثمانية أمام جيوش محمد علي.. توصل الطرفان إلى معاهدة كوهاتيه كما ذكرنا من قبل.. وبعد المعاهدة أخذ محمد علي يوسع نفوذه ومواقع سيطرته.. تمهيدًا لمفاوضات أخرى.. يقضم فيها قضماتٍ أخرى من أراضي الدولة العثمانية.. لذلك شمر عن ساعد الجد.. وأرسل حملة عسكرية يقودها إسماعيل بك.. وبصحبته الأمير خالد بن سعود.. لتُحكم سيطرتها على أراضي الدولة السعودية الثانية.. ثم جرت المفاوضات التي كان محمد علي يؤملها.. في أوائل سنة ١٢٥٣هـ.. اتفق الطرفان فيها على أن تكون مصر.. والجزيرة العربية لمحمد علي وراثةً.. والشام مدة حياته.. أي أنه بذلك وصل لمبتغاه الأول.

نص الوثيقة:

إنّ بلاد نجد القصيم.. ويتبعها ثلاثة وأربعون قرية.. وجبل شمر ويتبعه تسع عشرة قرية.. الوشم ويتبعه اثنتا عشر قرية.. والسدير ويتبعه عشرون قرية.. فجميع بلاد نجد عبارة عن مئة وثمان وستين قرية..

والأحساء يتبعها أربع وأربعون قرية.. والقطيف يتبعها سبع عشرة قرية.. وعاداتهم القديمة أنهم يعطون من السنة إلى السنة عن كل مئة صاع خمسة صيعان من الغلال.. وعن كل مئة آقة[1] من التمر آقة.. والصاع معناه أنّ كل صاعين ونصف يساوي ربع مصري..

وإيرادات الأحساء والقطيف من الجمرك أسبوعيًا هو ثلاث مئة فرانسة إلى أربع مئة..

وقد لاحظنا أنّ البلاد وإن كانت تحت استيلائنا.. والأمان مخيِّم عليها.. ولكن كل شخص وسلاحه معه حتى اليوم.. وبما أنّ في كل بلد بعضًا من الرجال المعتمدين.. الذين خدموا في أيام عبد العزيز.. وسعود.. وعبد الله.. وتركي..

(١) أي أوقية وهي وحدة الوزن المعروفة.

وفيصل.. فإنّ إبطال عاداتهم القديمة.. وإيجاد ترتيب آخر.. يغيّر الحالة متعذر.. ولذا رأينا أن نُبقي عاداتهم القديمة كما هي عليه..

البند الثاني

ولقد أرسلنا لكم كشفًا ضمن كتابنا هذا بالزكاة التي أخذت منهم حسب عاداتهم القديمة.. وكشفًا آخر بالغلال التي اشتريت.. ومتى ما ضبطنا الأمور على الوجه اللائق فيما بعد.. وصار ترتيبها على الوجه المناسب.. وأخذنا البدو تحت الطاعة بكل ضبط وربط.. المظنون أنه يحصل من نجد مئة ألف.. أو مئتيي ألف فرانسة.. أو أقل أو أكثر.. وهذا محتاج لعدة سنوات.

البند الثالث

إيرادات حكام نجد.. هو ما يدفعه أكثر البدو من الزكاة.. على الوجه الحق.. من العوائد التي تؤخذ من القوافل القادمة والرائحة بينها وبين العراق.. والبصرة.. وبغداد.. والكويت.. وسوق الشيوخ.. وبلاد الحرمين.. واليمن.. هذا وإذا لم يحصل عدوان في طريق نجد..

أمّا في عهد سعود فكان أكثر مكسبه من حجاج العجم.. بقدومهم من طريق بغداد.. فلا يتعرض لهم احد بسبب سعود.. فإذا حجوا وأرادوا العودة فإنهم يدفعون لسعود عن كل شخص عشرة أو خمسة عشر ذهب (٣٥) يلديز.. وهي العوائد التي سيدفعونها للبدو.. فكان يربح سعود من هذه العوائد شيئًا كثيرًا..

ولكن عرب نجد متفرقون اليوم.. وكل واحد منهم في جهة.. لعدم اطمئنانهم إلينا وبالرغم من ادعائهم باللسان والتحذير أنهم خدم لنا.. إلا أنهم يقفون منا بعيدًا.. فلذلك لم يدفعوا الزكاة بعد.. ونحن لم نطلبها.. وإذا فرضنا أنّ حجاج العجم جاءوا على عوائدهم القديمة فربما قتلهم العُربان في الطريق.. وإذا ضربوا أو قتلوا يزول ما هو عائد للدولة المصرية.. وأنّ بعض العجم ولو أنهم طلبوا منّا أن يذهبوا للحج من الجهة التي تحت حكمنا.. ولكننا لاحظنا هذه النقطة فلم نرخص لوكلاء العجم الذين هم من أولاد العرب لذلك.. وأنّ هذه المنفعة الميرية..

المذكورة أعلاه منوطة بتأمين الطرق وإصلاح حال العرب.. وإننا من الآن فصاعدًا ناظرون لتوطيد الأمن في الطرق ومتابعة النظر..

وهذا منوط بوقته وزمانه بمشيئة الله تعالى..

البند الرابع

إنّ سبب إرسال الفداويين من أهل نجد إلى بلادهم هو أنه كما ذكرناه آنفًا.. والحالة هذه أنّ أهل نجد تحت السلاح.. وهؤلاء الفداويون كانوا يستخدمون من طرف حكام نجد لأجل أخذ الرسوم من البدو الذين لا يعطون الزكاة.. ولأجل تسكين البلاد.. ولمنع البدو الذين لا يسوقون الرواحل المطلوبة منهم.. من أخذ ما هو مدار لقوتهم.. وبما أنهم يعرفون عادات بعضهم بعضًا.. فإنهم يألفونهم.. ومادام الحال كما ذكر إذا وضعنا عسكرًا.. فنظرًا لخشونة طباع الطرفين نحن وهم.. فإنه ينشب القتال فيما بينهم ـ كما هو الواضح ـ والآن نحن على أهبة التخلص من أولئك الفداويين.. وإنّ ما يقتضي لأولئك الفداويين يأخذون جانبًا من مدار معيشتهم منا وجانبًا منه من البلدان.. وهذا هو سبب استخدامهم..

البند الخامس

إنّ من البلاد العامرة في نجد عنيزة.. وسبب عمرانها لكون أهلها رجال تجارة.. وهم على الدوام في حالة سفر.. ما بين بغداد.. والبصرة.. والكويت.. والبحرين.. وأرض الحرمين.. لأجل التجارة.. ووادي الفُرع هو عبارة عن: الحوطة.. والحريق.. وحلوة.. ونعام.. وكل هذه البلاد عامرة.. ولكن طرقها حرون.. وعن يمينها ويسارها الجبال الشامخة.. ونخلها مقارب لنخل الأحساء.. وأهاليها كثيرون ومحاربون.. ونظرًا لقوّتهم وكثرة أسلحتهم.. وأنهم وإن كانوا أُدخلوا تحت الطاعة والانقياد ولكنهم لا يثقون بنا ـ مع أنهم تحت الأمان ـ .. وسبب عدم ثقتهم بنا وقعة إسماعيل بك.. فهم على خوف منّا.. لذلك فإن كان يؤمل منهم منفعة ما فإنما ليكون بمعاونتهم.. لسبب ما ذكرناه آنفًا.. ولكوننا نصبنا زويدًا



أميرًا عليهم.. وأرسلنا معه مقدارًا من الفداوية.. وإن شاء الله يحصل لنا منهم النفع..

البند السادس

إنّ حضرة صاحب الدولة والسر عسكر عنوان الظفر لما شرَّف أراضي نجد أدب أهل نجد بالسيف.. وقتل منهم رجالاً كثيرة.. ولكن أهل نجد ـ والحال على ما ذكر ـ راضون عن أفندينا السر عسكر.. وشاكرون له.. وبينما أهل نجد في هذه الحيرة وإذا بالمرحوم حسين بك وحسن بك جاءا وجعلا نجدًا خرابًا.. وكان يعطي الأمان لبعضهم فإذا جاءوا عنده قتلهم.. فلهذا كان من وراء ذلك خسائر كثيرة.. ولم يكتف بما فعله بالرجال.. بل تجاوز في عدوانه حتى وصل إلى النساء.. ومن أجل ذلك أصبح أهل نجد مسلوبي الأمان والاطمئنان لنا.. ولم يزالوا في خوف.. وإنّ منهم من هو حتى اليوم في أطراف العراق.. فإذا كلفناهم اليوم بشيء خارج عن حدود القانون فإنّ فرارهم قريب مُحقق بعد المقاتلة.. وإنّ تحصيل المنفعة منهم محتاج لوقت طويل.. وكما أنّ جزيرة العرب بيد الحكومة المصرية فإنّ الاستيلاء على نجد أمر لا بد منه..

البند السابع

إنّ آل سعود لما حكموا نجدًا حكموها باسم الدين.. فإنهم نظموا الإيرادات وفق الشريعة.. فكانوا يأخذون الزكاة عن الغلال خمسة أرادب عن مئة إردب.. وخمسة قناطير من التمر.. عن مئة قنطار..

وإذا كان في بلدة رجل غني فقد كانوا يطلبون منه زكاة المال.. ويعبّرون عنه بزكاة العروض.. وذلك الغني يعطيهم ما تسمح به نفسه.. فإذا ذهبوا لغزوة فانتصروا فيها أخذوا عن كل خمسة من الإبل جملاً.. وعن كل خمس رؤوس من الغنم.. خروفًا.. فأمّا في أيام سعود فقد كان وارده من البحرين.. وعمان.. ومسقط.. وصنعا.. وغيرها من مختلف الجهات.. ومن الشريف حمود أبي مسمار في اليمن ما بين خمسين ألفًا إلى ستين ألفًا من الفرانسة في السنة.. كما كان

يأخذ من الجهات المذكورة نقودًا كما ذكرنا.. وكان وارده من الأحساء ومن البدو يبلغ تارة مئة وخمسين ألفًا من الفرانسة.. وتارة مئتي ألف.. وكان يحصل له وارد من حُجّاج العجم كلي وجزئي.. بحسب كثرتهم وقلتهم.. وما ذكرناه فهو بعد التحقيق فلا كذب فيه.. لأنّ هذه الوضعية شيء من الظهورات.

وبسبب العصيان الذي يحصل في نجد في بعض الأحيان.. فقد كان له قانون يسمى بيت المال والنكال.. فتارة يطبّق.. وتارة لا يطبّق.. وهذا من جملة الظهورات.. فلا يمكن إعطاء الجواب القطعي عنه..

أمّا قرى نجد فإنّ وارداتها ما ذكرنا آنفًا.. وهو الرسوم التي تؤخذ من التجار المتمردين.. وذلك شيء جزئي.. ولم توضع على قرى نجد مطلوبات بجميع أنواعها.. لأنها ضعيفة الحال من جهة.. ومن جهة أخرى أنّ إدارة تلك الجهات الكثيرة إنما يكون إذا صارت نجد حضرية.. فمن أجل ذلك أنّ آل السعود لم يضعوا عليها تكاليف.. ولا وضعوا لها قوانين غير دعوتهم للخدمة العسكرية.. وهم يعاملون حسب عاداتهم القديمة على هذا المنوال..

البند الثامن

إنّ بسبب ما ذكرناه عما كان في أيام حسين بك.. وحسن بك.. من الأمور.. فإنّ أكثر أهل نجد منهم من سرح إلى بغداد.. ومنهم من ذهب إلى البصرة.. ومنهم من قصد سوق الشيوخ.. ومنهم من توجه نحو الكويت.. والبحرين.. وعمان.. إمّا بأهله وعياله.. وإمّا بمفرده.. ليس معه غير سلاحه.. وإنّ أكثر أهل نجد اليوم في تلك الجهات.. وأمّا من ترك أهله في نجد فإنه إن بلغه أنه حدث حادث في نجد أخذ سلاحه ويمم نجدًا للقتال.. حتى إذا فرغ منه عاد من حيث أتى.. حتى إنه في محاربة فيصل حدث أنّ الذين حاربوا جاء فريق منهم من هنالك.. وبعد ما انتهي القتال عادوا راجعين.. وإنّ الموجودين منهم في نجد من مدة هم على هذا المنوال.. إلا أنهم خارج بلادهم.. والقسم الآخر يده على أذنه وأذنه على يده (كناية عن سرعة التأهب للتروح).. فإذا رأى أنه لا طاقة له بالمقاومة

انسحب.. وذهب إلى إحدى تلك الجهات.. مترقبًا الفرص.. فإذا كان الأمر أي كأنه دار ذات بابين.. فإنّ الأمور التي يراد إجراؤها حكوميًا ليست بالسهلة.. بل هي أمور تحتاج إلى وقت كما لا يخفي..

البند التاسع

عمران نجد وخرابها منوط بكثرة الأمطار وقلتها.. فإن هطلت بكثرة كان العمران.. وإلاّ كان الجدب والقحط.. حيث تنضب الآبار فلا يبقى فيها ماء.. ومن عجائب قدرة الله تعالى أنّ الأمطار التي توالى هطلها منذ ست سنوات أو سبع.. لم ترو الأرض ريًّا كافيًا.. فزاد الحال سوءًا.. سنة بعد سنة.. وفي هذه السنة لم يبق ماء بالكلية في قرية عيينة من قرى العارض.. ولا في القرى الثلاث التي في طرف السدير.. فتركها أهلها.. وذهبوا إلى الجهة السفلى منها..

فلمّا يكون الرخاء والخصب تكثر الزكاة.. ويكثر الأخذ والعطاء.. لكثرة المتعاطين.. لذلك تكثر المنفعة الميرية من ذلك..

البند العاشر

بما أنه لم يمكن العلم إلى يومنا هذا بقدر الإيراد الذي يحصل من نجد فإذا جاء الكتبة الذين طلبناهم من مصر خصيصًا كتابًا لهذه المسائل.. وأقمنا عليهم مباشرة فيقيد الخراج الذي يؤخذ من البدو.. ومن الغلال والتمر الناتجة.. وما يؤخذ من أهل نجد في دفاتر الحسابات.. ثم يقدم شهرًا فشهرًا حيث يعلم مقدار الإيراد.

البند الحادي عشر

معنى نجد قوة البدوي وقدرته.. لأنّ أولئك البدو إذا صار إدخالهم تحت إطاعة الحكومة.. كما يجب أن يجبى منهم الزكاة.. مبلغ سبعين إلى ثمانين ألف فرانسة.. وإذا سلمت القرى من شرهم زادت عمرانًا.. ويحصل مقدار من الإيراد من الحضر ومن البدو..

وإنّ البدو جميعهم وإن كانوا اليوم تحت الأمان بصورة رسمية ولكن الحقيقة أنهم يعطون المقدار الذي يريدونه.. وما لا يريدونه يرفضونه.. قائلين: لا يكون هذا.. وهذا جوابهم الشافي.. وهذه مناطة على ضبط وربط المصالح المذكورة.. كما أنّ ضبط أمور البدو وربطها تحتاج إلى القوة والوقت..لأنّ عرب قحطان عبارة عن عدة قبائل كبيرة.. ومساكنهم من الرس حتى وادي الدواسر إلى أن تصل إلى عسير.. وهو المعبّر عنه عندهم بالجنوب أي الطرف القبلي لنجد.

ويشاركون جهات: الرانية.. والخرما.. وتربة.. وبيشة.. وطرف نجد القبلي.. الذي هو الدلم.. والعارض.. ووادي الخرج.. والحريق.. والأفلاج.. ووادي الدواسر.. فإذا لم يدخل أولئك العرب تحت طاعة الحكومة الدخول اللائق.. فلا يرجى منهم أيّ منفعة.. فضلاً عن الضرر الذي يعود على تلك الجهات.. وهذا أمر معلوم..

وعتيبة أيضًا قبيلة كبيرة.. ولها توغل وتوسع حتى جهات مكة.. والطائف.. والمدينة.. ومن جنوب نجد.. إلى الرس.. والشقراء.. والشعراء.. وقرى الدوادمي.. وحتى ما يجاور مكة.. والطائف.. والمدينة.. لهم اشتراك مع أهلها في كل أمر.. فضبط أمرهم وأمور قحطان وربطها لا يمكن أن يكون بقوة نجد فحسب.. بل هو متوقف على معاونة أرض الحريق.. فإذا حصلت المعاونة فإنّ المتعة التي تحصل سواء من جهة استخدام أهلها.. أو كانت من جهة أخذ الزكوات منهم..

وقبيلة مطير قبيلة كبيرة أيضًا.. وهي وإن لم يكن لهم جهة معينة في أرض نجد ولكنها بسبب كونها من القبائل الكبيرة القوية.. فإنها بقوة سواعدها تسيِّر أنعامها ومواشيها.. في مراعي ديار قحطان.. وعتيبة.. وعنزة.. وتأخذ الكيل من قرى نجد ومن الأحساء والبصرة.. وتروح وتغدو ما بينها.. وهم يتقاتلون ويتضاربون مع أولئك القبائل.. من أجل المراعي.. والكيل.. بمعاونة حكام نجد.. فتارة يتغلّبون وتارة يُغلبون.. وكلاهما بمعاونة حاكم نجد.. وهذا هو حالهم..

أمّا عنزة فهي عبارة عن قبائل كثيرة.. فيها من هو في جهة الشام.. وفيها من هو بجهة بغداد.. وقسم منها في نجد.. ومساكن هذا القسم خيبر القريب من

المدينة المنورة.. والحناكية.. ومن حدود جبل شمر حتى القصيم.. ولهم اشتراك في القصيم.. لأنّ الحضريين يدَّعون أنهم من عنزة.. وقاعدة قانونهم على هذا الوجه.. وهم ينتقلون ما بين الجزيرة التي بجوار بغداد.. حتى تلك النواحي.. على هذا المنوال.. ويسمح لهم بذلك.. وأحوالهم هي عبارة عما ذكر.. وحصول الفائدة منهم متوقفة على استيلائنا على الشام والعراق بتعب زائد..

وقبيلة شمر قبيلة كبيرة أيضًا.. وهي أكثر عددًا من عنزة.. وموطنهم الأصلي جبل شمر.. ويسكنون في الطرف الشمالي من الجزيرة.. المسماة سفوف.. في جوار بغداد.. وهم معدودون أنهم في حكم بغداد.. والتابعون إلى نجد هم أهل جبل شمر.. ويبعد عن ذلك المحل (سفوف الجربة) مسافة أربع عشرة مرحلة.

وحيث إنّ الساكنين حتى منتصف الطريق هم من عرب جبل شمر.. فإنهم تحت حكم عبد الله بن رشيد.. والنصف الآخر تحت حكم شيخ سفوف الجربة.. وهو الذي جاء في هذه السنة من إستانبول.. وبما أنّ العرب المذكورين ينقسمون إلى قسمين لا يصعب الهجوم عليهم..

وحيث إنّ عبد الله ابن رشيد منهم فإنه يأخذ منهم مقدار الزكاة بمساعيه.. ويستفاد من استخدامه نوعًا ما.. وأولئك العرب (عرب شمر) وإن كان يؤمل منهم منافع جمة.. وفوائد كلية.. ولكن من حيث إنّ ديارهم مقسومة قسمين.. فإذا طبّقنا عليهم من هذا الطرف.. انصرفوا ذاهبين إلى سفوف الجربة.. في الجزيرة المذكورة.. وإذا ضُيّقوا من تلك الجهة.. شدّوا رحالهم.. وجاءوا إلى جبل شمر.. وإنّ مشيخة سفوف الجربة بسبب حصولها من إستانبول كما كانت عليه من قبل فقد عاهد شيخها الدولة (العثمانية) على أن يخدمها بعشرة آلاف جمل.. وألف رأس من الخيل.. يقدّمها.. وبقي شيخًا كما كان عليه من قبل.. وجاء إلى محله وطلب من عرب شمر المقدار المطلوب.. فلم تجب العرب طلبه.. وقامت ثلاث قبائل منهم وجاءوا إلى جبل شمر.. الذي هو بطرفنا.. وشرذمة منهم نزلوا على عيسى..

حاكم سوق الشيوخ.. ومن أجل ذلك ما أمكن غير الحصول على ألف أو ألفي جمل.. ومئة رأس من الخيل.. من أصل المطلوب.. وسبب ذلك ما قلنا آنفًا..

وإنّ قبيلة عنزة قريبة منهم.. فإذا ضيّقنا عليهم لا يمكن أن نحصل منهم على فائدة تذكر.. نظرًا لعلاقتهم بالشام والعراق..

وقبيلة السبيع.. والعجمان.. وسهول.. وبني خالد.. والدواسر.. وبنو هاجر.. هم من العارض إلى وادي الخرج والأفلاج في الطرف الشمالي من وادي الدواسر.. وهم متقلبون غادين رائحين في الوديان والجهات.. التي في نهاية جزيرة البصرة.. منتهين إلى الأحساء.. والقطيف والكويت.. وهم معدودون من أهل تلك الجهات.. وتعدّ تلك الديار ديارهم.. وهؤلاء قبائل كبيرة.. وهم أقوياء.. ولكن جفاة غلاظ.. ومحل معيشتهم في الأكثر الأحساء.. والقطيف.. وهم قائمون بالخدمة في تلك الجهات.. ومنفعتهم لنجد قليلة.. ولكن ضررهم كثير..

وبما أنّ لهذه الأجناس المتباينة حكومات مختلفة ما أمكن أخذهم تحت الطاعة.. كما يجب.. فإذا أمكن الاستيلاء على تلك الجهات التي يحتلونها.. فإنّ الأمل أن تكون الفائدة منهم كثيرة.. ونحن نعاملهم بالمراوغة والحيلة.. نظرًا للمحذورات التي ذكرناها..

سيدي سني الهمم.. صاحب الدولة والعاطفة:

بناءً على المحذورات التي ذكرناها في هذا التقرير عن البدو والحضر.. فإنها وإن تكن كلية.. إلا أنّ إيراد نجد منهم وبمعرفتهم حاصلة.. وحيث إنّ أحوالهم كما بسطناها ما أمكن إعطاء تقدير حقيقي عن الإيراد.. لأنه بسبب بعض الضرورات محتاجة للوقت.. وبعض الجهات يلزم إدخالها تحت إدارة الحكومة المصرية.. وحيث هذا محتاج للوقت.. وعندها تحصل المنفعة..

وهذا ما بادرت لعرضه ملاحظًا ما ذكرته سيدي.

في ٢٩ جمادى الأولى ١٢٥٥ — ١٠ أغسطس ١٨٣٩

مير ميران.. خورشيد

ملاحظات على حملة محمد علي على الحجاز

ومن تقرير خورشيد باشا تتجلى كثير من ملامح صفحة الوجود العلوي لمصر وللجيش المصري في بلاد الحجاز يمكن أن نجملها في النقاط التالية:

- لم تكن تلك الحملة حملة تدمير.. أو إجهاض قيام دولة وسلطة.. مثل الحملات السابقة..
- كانت الحملة تضع نصب عينيها إنشاء كيان يرتبط بسلطة محمد علي باشا..

ومن أجل ذلك نرى خورشيد باشا يقوم بسبر الأحوال النجدية.. ليتمكن من إقامة حكومة مستقرة.. تجني المنفعة المرجوة من نجد.. ولا تكون عبئًا ثقيلاً على حكومة مصر..

- واضح أن معرفة خورشيد باشا بأوضاع نجد كانت جيّدة رغم قصر المدة التي قضاها فيها.. ولاشك أنّ تلك المعلومات التي ذكرها في الوثيقة استقاها ممن أخلص له من رجال نجد.
- يدل سرده الصحيح لحكام الدولتين السعوديتين.. الأولى.. والثانية.. على إطلاع ومعرفة تامّة.. بالأحوال السياسية النجدية.. مما يعطي المصداقية لكثير من المعلومات الواردة في التقرير..
- اهتم خورشيد باشا في تقريره بالإيرادات التي يمكن أن تُجبى من نجد.. حتى يتسنى له تقدير الفائدة المرجوة من الاستيلاء عليها.. وضمها إلى مملكة محمد علي باشا..

كانت سياسة خورشيد في حكم نجد هي الاحتفاظ ببعض الأمراء والقادة والفداوية.. الذين عملوا في الدولتين السعوديتين.. وقد ذكر منهم زويد مملوك الإمام تركي.. الذي عُيِّن أميراً على بلدان وادي الفرع.. وكان ذلك الإجراء ضروريًا بالنسبة لخورشيد لعدة أسباب هي:

- معرفتهم التامة بالمناطق النجدية التي يديرونها.. فلا يخفي عليهم شيء من أمورها وأمور أهلها.. في الشدة والرخاء..
- إنّ لديهم القدرة على التعامل مع أهل نجد.. فهم منهم.. وقد خبروا طباعهم.. وطرق عيشهم.
- إنّ ذلك يعطي أهل نجد الأمان والثقة.. في حكم خورشيد.. فتقلّ القلاقل والاضطرابات.. وتنعدم الممانعة والرفض لهذا الحكم ..
- إنّ الحكم الجديد الذي يقف خورشيد على رأسه يُرجى له الاستمرار.. لذلك لا بد من الاعتماد على رجال يبدون تعاونًا مع خورشيد وقواده.. من أهل البلاد الأصليين.
- الاعتراف الصريح بأنّ القتل.. والغدر.. والخيانة.. والتعدّي على الأعراض هي أهم أسباب مقاومة الحكم الجديد.. لأنّ الثقة معدومة في قادة وجنود محمد علي.. والخوف من تعدّيهم وظلمهم قائم مستمر..
- القناعة التامة لدى خورشيد باشا بأنّ أهل نجد لن يتركوا سلاحهم.. حتى لو استتب الأمن.. وأنهم على استعداد دائم للقتال.. سواء من هُم في داخل نجد.. أو الذين يعيشون خارجها.. في المناطق المجاورة.. وبرر ذلك بانعدام ثقتهم بقادة وجند محمد علي.. بناء على ما سبق منهم.. من غدر.. وخيانة للعهود والمواثيق.. وإسراف في سفك الدماء..
- بيَّن خورشيد أهمية الدين في الحياة النجدية.. وأنّ أهل نجد لا يمكن أن ينقادوا إلا لمن يحكم بالدين.. ويتخذه شعارًا ودثارًا له.. فيُسيِّر الحياة النجدية به.. ولهذا السبب أظهر تقديرًا واحترامًا للعلماء.. وحرص على متابعة الشؤون الدينية في نجد مثل تعيين خطباء الجمع في البلدان النجدية.. كما في الوثيقة المرفقة..

شغلت شؤون القبائل حيزًا كبيرًا من التقرير.. لأسباب عدة هي:

- أنّ القبائل سبب رئيس من أسباب اضطراب الأمن في نجد.. وأنها متى ما دخلت في الطاعة.. زاد عمران البلدان وزاد إيرادها للخزينة..
- أنّ زكاتها من الإبل توفر وسيلة النقل التي يحتاجها جيش خورشيد.. فإذا تم إخضاعها تم توفير الإبل من تلك القبائل.. التي تؤدّي الزكاة على إبلها.. وتبيع قسمًا آخر منها على خورشيد.
- الخطورة الكبيرة على الحجاج من هذه القبائل.. فهي إن لم تدخل في الطاعة فسوف تضرب إتاوة على الحجاج المارين بأراضيها.. وقد يعتدون عليهم.. أمّا إذا دخلوا في الطاعة.. فسوف تكون تلك الإيرادات من نصيب حكومة خورشيد.. وتوفر دخلا كبيراً لها..
- أنّ القبائل دائمة التنقل.. شديدة المراس.. مما يجعل قتالها عسيرًا.. ومكلفًا.. وذا خطر كبير.. وقد كانت التجارب السابقة للجند المصري مع قبائل نجد ماثلة أمام خورشيد..
- قدَّر إيرادات نجد بأنها ما بين مئة.. ومئتي ألف فرانسة.. وهو مبلغ ليس بالكبير.. بل إنه لن يفي بتكاليف حكومة خورشيد.. وخالد بن سعود..
- حرص خورشيد على التخلص من الفداويين.. نظرًا لما يسببونه من مشاكل مع جنوده.. ولكن ذلك يحتاج إلى وقت.. لأنّ الحاجة إليهم ماسة.. وضرورية..
- أقرّ خورشيد بأنّ حكومته في نجد تكلّف أهل نجد بما هو خارج عن حدود القانون.. أي بأعمال السخرة.. وأنّ ذلك سبب عصيانهم.. وقتالهم لجيوش محمد علي.. وتركهم أرض نجد هربًا من ذلك..
- حاول خورشيد أن يوهم سيّده محمد علي أنّ أهل نجد راضون عنه كل الرضا.. وأنّ سبب خراب نجد حسن بك.. وحسين بك.. اللذان جعلا نجدًا خرابًا يبابا.. ولم يملك الشجاعة.. ويكن جريئًا.. ليقول إنّ أوامر محمد

علـي لهمـا هـي أتـى سـبّبتْ ذلـك الخـراب والـدمار.. وسـببت انعـدام الثقـة بقادته.. وجنده..

- بيّن التقرير أنّ انقياد القبيلة لشيخها غير متحقق في كل الظروف.. كما في التزام صفوق الجرباء للدولة العثمانية.. حيث لم ينقد له أفراد القبيلة.. بل تفرّقوا عنه.. وقصد بعضهم موطنهم الأصلي.. في جبل شمر.. وقليل قصدوا سوق الشيوخ.. جيرانًا لقبيلة المنتفق..
- ركز خورشيد في ثنايا تقريره على أنه يحتاج إلى مدة طويلة.. ليتمكن من تثبيت حكومته.. وتحديد إيراداتها.. ومصروفاتها..وذلك يدل على أمرين هما:
  - تقدير خورشيد للمقاومة التي سيواجهها.. من حاضرة نجد.. ومن القبائل.. وأنّ أهل نجد لن يذعنوا بسهولة لحكمه.. وقد أطنب في ذكر ذلك في ثنايا التقرير..

وفي مجمل التقرير كان من الواضح تخوف خورشيد باشا الشديد من أن تلحقه لائمة ما من محمد علي.. على طول المدة.. وذلك قد يجلب له المتاعب.. إن لم يكن القتل كما كان ذلك سائدًا في ذلك الزمان..

❖❖❖

سليمان باشا الفرنسي



أو الكولونيل سيف.. اسمه الحقيقي قبل إشهار إسلامه «جوزيف انتيلمى سيف».. وُلِدَ بمدينة «ليون» بفرنسا.. في إبريل سنة ١٧٨٧.

كان راجل عسكرياً من الطراز الأول.. جاداً.. لم يكن يهتم في حياته إلا بعمله وعسكريته فقط.. وُصِفَ بأنه كان عريض المنكبين.. ضخم الجثة.. مفتول العضلات.. عنيد.. خشن الطباع.. يرجع إليه الفضل الأول في تطوير الجيش المصري.. وتحويله من جيش تقليدي لا يعرف سوى النُظم القديمة لجيش نظامي حديث.

يُروى عنه أنه ذات مرة خرج مع جنوده في رحلة ترفيهية.. وفي وقت الغذاء أرسل إليهم عباس حلمي الأول ما لذ وطاب من أصناف الطعام.. فلما رأى سليمان باشا أصناف الطعام أصر على إعادته للخديوي.. وقال: هو عباس باشا ما يعرفش أننا عسكر.. لا نأكل سوى أكل العسكر !.

انضم للجيش المصري سنة ١٨١٩ كمدرب للمُشاة في أسوان.. وهناك كما قلنا من قبل عهد إليه محمد علي بتأسيس أول مدرسة حربية.. نظام العسكرية النظامية في مصر الحديثة.. وشارك في معظم حملات محمد علي باشا العسكرية.

كان قبل مجيئه لمصر ينتمي لأسرة متوسطة.. وكان الابن الثاني بين خمسة أشقاء.. التحق بالبحرية الفرنسية سنة ١٨٩٩ دون أن يكمل عامه الثالث عشر.

وكان متميزاً في سلك العسكرية.. وذات مرة اشتبك مع ضابط من رؤسائه واعتدي عليه بالضرب.. فقُبضَ عليه.. وقُدِمَ للمحاكمة العسكرية.. وحُكِمَ عليه بالإعدام.. لكن لحسن حظه تدخل أحد النبلاء وكان اسمه «الكونت بول دلاى سيجور» يُقالُ إن سيف كان قد أنقذ حياته ذات مرة.. فتوسط له.. وأخرجه من تلك الورطة.. وعمل على إلحاقه بالجيش الفرنسي وكان وقتها في إيطاليا.

وعندما قامت الحرب بين فرنسا.. والنمسا وقع «سيف» في الأسر.. ثم أُطلاقَ سراحه.. وقضى حوالي سنتين خارج فرنسا حيث شارك في حملة نابليون بونابرت على روسيا سنة ١٨١٢ وأظهر شجاعة كبيرة جعلت نابوليون يلتفت إليه منه.. فتمت ترقيته سريعاً حتى أصبح «كولونيل».

وبعد فشل حملة نابليون على روسيا عاد الجيش إلى فرنسا.. وقُبضَ على نابليون.. وتم نفيه.. فخرج سيف من الجيش.. وعمِلَ بالتجارة لكنه فشل في ذلك.

ولما سمع الكولونيل سيف أن شاه «بلاد فارس»(١) يطلب مدربين لجنود جيشه.. فأرسل لصاحبه كونت دى سيجور.. وطلب منه أنه يتوسط له عند الشاه فنصحه صديقه بأن يذهب إلى مصر عند محمد علي باشا.

الكولونيل سيف في مصر

وصل الكولونيل سيف مصر سنة ١٨١٩ ومعه خطاب توصية فاستقبله محمد علي.. وأُعجِبَ به.. وطلب منه أن يذهب إلى السودان لينقب عن الفحم الحجري فذهب إلى هناك لكنه لم يفلح في العثور على مناجم للفحم هناك.. فعاد ثانيةً إلى القاهرة.. وتصادف يوم رجوعه احتفالات الجيش المصري بفتح الحجاز.

---

(١) كانت وقتها تُعرف ببلاد فارس وليس إيران كما هو معروف حالياً.

وكان محمد علي باشا يفكر وقتها في توسيع مملكته.. ويحتاج بطبيعة الحال إلى تكوين جيش كبير منظم.. وكان محمد علي معجباً بتنظيم الجيش الفرنسي في مصر أثناء الحملة الفرنسية.. فتشاور محمد علي مع الكولونيل سيف.. وطلب منه أن يدرب الجنود المصريين على تلك النظم الفرنسية.. وطرق التحركات العسكرية الحديثة..

لكن هذا النظام الجديد لم يُعجب الجنود الأتراك واعتبروه بدعةً.. فتمردوا.. وتجمهروا عند قلعة القاهرة.. مطالبين محمد علي بإلغاء هذه النُظم.. فتعامل محمد علي مع الأمر بعقلانية شديدة.. ولم يضغط عليهم.. واكتفى بتدريب العساكر المصريين على النظم دي لوحدهم.

وعندما بدأ محمد علي في إنشاء مجموعة المدارس الحربية كل ذلك تحت إشراف الكولونيل سيف الذي كان قد غير اسمه إلى سليمان بعد إسلامه.. وأصبح يُعرف باسم «سليمان بك الفرنسي»..

ونظم سليمان بك جيش من العسكر النظامي قوامه ٢٥,٠٠٠ عسكري استخدمهم محمد علي فيما بعد في حروب الموره.. والشام.. وغيرها.

ولما قامت حرب الموره سنة ١٨٢١ كان سليمان بك الفرنسي هو الذراع اليمنى المصري لـ«إبراهيم باشا».. واستطاعوا الاستيلاء على جزيرة ميسولنجى سنة ١٨٢٥ فعينه إبراهيم حاكماً على تريبويتزا..

وبعد حرب الموره التي أنهكت الجيش المصري عاد سليمان الفرنسي إلى مصر مصطحباً معه فتاةً يونانية قيل أنه تزوجها هناك.

وبعد العودة لمصر عمل محمد علي إعادة ترتيب.. وإدخال إصلاحات جديدة في الجيش أوكلها جميعها إلى سليمان..

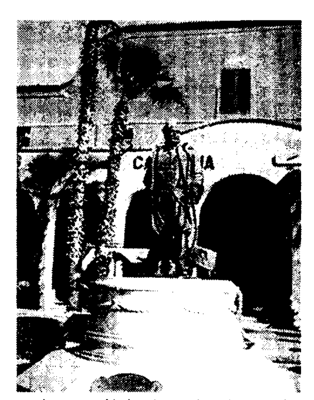
وفي سنة ١٨٣١ جرد محمد علي حملة عسكرية إلى عكا بقيادة «إبراهيم باشا».. فقاد سليمان بك الطوبجية.. وبعد محاصرة الجيش المصري لعكا تمكن من فتحها.. وتم القبض على واليها «عبد الله باشا» وترحيله إلى الإسكندرية.

وتوغل الجيش المصري في بلاد الشام.. دخل في معارك متعددة في أكثر من جبهة.. وأخذ سليمان بك جزءاً من القوات.. ودخل بهم في معارك ضارية.. لكنه انتصر فيها جميعاً على الأتراك خاصةً في معركتي ببلان بالقرب من حِمص.. ثم في الإسكندرونة.. وبعدها في قونية.

أُعجِبَ «إبراهيم باشا» ببراعة سليمان بك الفرنسي فمنحه رتبة باشا وأصبح اسمه «سليمان باشا الفرنسي»..

وتم تعيينه قائداً عاماً للجيش المصري.

وعندما سافر «إبراهيم باشا» للعلاج في فرنسا ذهب معه سليمان باشا ليزور بلده الأصلي ليون المدينة التي وُلِدَ بها.. وقضى عدة أيام مع أهله.. وأقاربه بعد أن غاب عنهم سنيناً طوال.. وعندما سافر «إبراهيم باشا» إلى لندن انتهز سليمان باشا الفرصة.. وأخذ يتجول في أوروبا.. من باريس إلى بلجيكا.. ثم هولندا.. ليطلع على أحدث التطورات الجديدة في المجال العسكري.. بعدها رجع إلى مصر.. ليرفع لمحمد علي باشا تقريراً عما رآه وعاينه من نظم وتطورات عسكرية حديثة في أوروبا.



تمثال سليمان باشا الفرنساوي
أمام المتحف الحربي في قلعة القاهرة.

وبعد انتهاء تلك الحرب عاد سليمان بك إلى القاهرة ليواصل دوره بجوار محمد علي باشا.. ثم ابنه إبراهيم.. ومن بعده حفيده «عباس حلمي الأول» حتى توفي بالقاهرة في ١١ مارس سنة ١٨٦٠ بعد وفاة محمد علي بإثنتى عشرة عاماً.. ودُفِنَ في جبانة خاصة بمصر القديمة.

هو والخديوي.. وعرابي

في عهد الخديوي سعيد عُقِدت امتحانات ترقية للظباط تفوق فيها أحمد عرابي.. وكان ترتيبه الأول.. فطلب الخديوي من سليمان باشا أن يمتحنه بنفسه.. مرةً أخرى.. وبعد أن امتحنه وتيقن من تفوقه طلب من الخديوي ترقية عرابي لرتبة أميرالاي لأنه يعرف في العسكرية أكثر ممن يحملون هذه الرتبة.. فرفض الخديوي.. فقال له سليمان الفرنسي نرقيه على الأقل لرتبة بكباشي.. لكن رفض الخديوي أيضاً.. قال له يجب عليه أن يتدرج في الرتب حتى يعرف واجبات كل رتبة.

تزوجت ابنته من «شريف باشا»[1] رئيس النظارة المصرية.. وأنجب منها بنتاً تزوجت فيما بعد «عبد الرحيم باشا صبري» ناظر الزراعة.. وأنجبا الملكة «نازلي صبري» أم الملك فاروق.

تكريم سليمان باشا

كرمت مصر سليمان باشا بوضع[2] تمثال له في أشهر ميادين وسط القاهرة وعُرِفَ الميدان باسمه «ميدان سليمان باشا» كما سُمِيَ الشارع المؤدي للميدان أيضاً باسمه.. كما قامت حكومة بلده الأصلي «فرنسا» أيضاً بتكريمه.. وأطلقت اسمه على أحد شوارع باسمه «ليون» اسمه «شارع الجنرال سيف..



(١) محمد شريف باشا سياسي مصري بارز ومن أصول شركسية.. تولى رئاسة الوزراء في مصر أربعة مرات.

(٢) للأسف الشديد بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ تم رفع التمثال مع غيره من تماثيل أسرة محمد علي باشا.. وكذلك تغيير اسم الشارع والميدان بشكل رسمي.. وإن بقي المصريون جميعهم يطلقون على الشارع والميدان مسماهما الأصلي مقترناً باسم «سليمان باشا» حتى اليوم.. وتم وضع التمثال أمام المتحف الحربي المصري في قلعة القاهرة.

عمر مكرم



اسمه بالكامل عمر مكرم حسين السيوطي.. زعيم شعبي مصري.. وُلِدَ في أسيوط بصعيد مصر سنة ١٧٥٠ وتعلم في الأزهر الشريف.. تولي نقابة الأشراف في مصر سنة ١٧٩٣ وقاوم الفرنسيين في ثورة القاهرة الثانية سنة ١٨٠٠ كان له دور بارز في تولية محمد علي شؤون البلاد.. حيث قام هو وكبار رجال الدين المسلمين بخلع خورشيد باشا في مايو سنة ١٨٠٥ ..

وكان عمر مكرم يتمتع بمكانة عالية عند العامة والخاصة.. وظهر عمر مكرم.. كقائد شعبي عندما قاد حركة شعبية ضد ظلم الحاكمين المملوكيين «إبراهيم بك» و«مراد بك».. عام «١٧٩٥م» ورفع لواء المطالبة بالشريعة والتحاكم إليها كمطلب أساسي كما طالب برفع الضرائب عن كاهل الفقراء وإقامة العدل في الرعية.

تميزت حياته بالجهاد المستمر ضد الاحتلال الأجنبي.. والنضال الدءوب ضد استبداد الولاة وظلمهم.. وكان ينطلق في هذا وذاك من وعي إسلامي عميق وفذ وإيجابي.

وإليه يرجع الفضل الأول في تولى «محمد علي» حكم مصر بزعامته الشعبية التي قادها وفق مبادئ معينة في إقامة العدل والرفق بالرعية.. وكان من نتيجة

ذلك أن تحملت الزعامة المسئوليات والأخطار التي واجهت نظام «محمد علي» الوليد.. ومنها:

- أزمة الفرمان السلطاني بنقل محمد علي إلى «سالونيك».. فاحتمى «محمد علي» به من سطوة العثمانيين
- الحملة الإنجليزية على مصر سنة «١٨٠٧» حيث قام «عمر مكرم» بتحصين القاهرة.. واستنفر الناس للجهاد.. وكانت الكتب والرسائل تصدر منه وتأتي إليه.. أما «محمد علي» فكان وقتها في الصعيد يتلكأ.. وينتظر ما ستسفر عنه الأحداث.
- إجهاض الحركة المملوكية للسيطرة على الحكم في مصر.. إذ رفض مساندة المماليك في تأليب الشعب ضد «محمد علي».

وفي هذه الأزمات الثلاث الكبرى كانت زعامة «عمر مكرم» تترسخ في وجدان المصريين.. وفي حملة «فريزر»

وعندما استقرت الأمور لمحمد علي خاف من نفوذ رجال الدين فنفاه إلى دمياط في ٩ أغسطس ١٨٠٩ وأقام بها أربعة أعوام ثم نُقِلَ إلى طنطا.. وتوفي بها عام ١٨٢٢.

وعن انتقال عمر مكرم من دمياط إلى طنطا يقول الرافعي:

(في أواخره شهر ربيع الأول ١٢٢٧ هـ - ٢٩ مارس ١٨١٢ انتقل السيد عمر مكرم النقيب من دمياط إلى طندتا[1] وسكن بها.. وسبب ذلك أنه لما طالت إقامته بدمياط وهو ينتظر الفرج[2] وقد أبطأ عليه وهو ينتقل من المكان الذي هو فيه إلى مكان آخر على شاطئ البحر وتشاغل بعمارة خان أنشأه هناك والحرس ملازمون له فلم يزل حتى ورد عليه صديق أفندي قاضي العسكر فكلمه بأن يتشفع له عند الباشا في انتقاله إلى طندتا ففعل وأجاب الباشا إلى ذلك)..



(١) يقصد طنطا.

(٢) أي ينتظر موافقة محمد علي على رجوعه للقاهرة

كلوت بك



اسمه الحقيقي: أنطوان كلوت..

وُلِدَ في «٧ نوفمبر سنة ١٧٩٣» بمدينة جرينوبل في فرنسا..

كان طبيباً فرنسياً عاش فترات طويلة من حياته في مصر بعد ما طلب منه محمد علي باشا تنظيم الإدارة الصحية للجيش المصري.. وبقى رئيساً لأطباء الجيش.. ومنحه رتبة البكوية تكريماً لجهوده التي نقلت مصر لتنهض طبياً بشكل كبير.

مدرسة الطب

كان من طليعة المدارس التي أسسها محمد علي مدرسة الطب.. وكان مقرها في منطقة «أبو زعبل» وكان ذلك سنة ١٨٢٧ وتولى إدارتها منذ بداية تأسيسها الدكتور «كلوت بك» وكانت تعتبر آنذاك أولى مدارس الطب في العصر الحديث بالشرق كله.. وكان معظم الأساتذة الذين اشتغلوا بالتدريس فيها فرنسيين أو أسبان أو طليان.. أما الكتب والمراجع اللي استخدموها فكانت جميعها باللغة الفرنسية.. وكانت المحاضرات تترجم للغة العربية.. وشملت الدراسة بالمدرسة أقسام «التشريح.. الجراحة.. الأمراض الباطنية.. علم الصحة العامة.. الصيدلة.. الطب الشرعي.. الفيزياء.. الكيمياء».

مدرسة الصيدلة

ثم أمر محمد علي ببناء مدرسة أخرى خاصة بالصيدلة بجوار مدرسة الطب.. وكان بيتبعها حديقة لزرع كافة النباتات الطبية.

وفي البداية تم اختيار ١٠٠ طالب للدراسة بالمدرسة كان كل واحد فيهم يتقاضى راتباً شهرياً قيمته ١٠٠ قرش بالإضافة لنفقات الطعام الذي كان يأتيهم من الأزهر.

مستشفي أبو زعبل

ثم تم إنشاء مستشفي تعليمي خاص تابع للمدرسة حمل اسم «مستشفي أبو زعبل» كان يضم ٧٢٠ سرير..

القصر العيني

ثم تم نقل المدرسة والمستشفي من أبو زعبل للقاهرة سنة ١٨٣٧ لمقرها الجديد بالقصر العيني.



كان كل ذلك وراءه كلوت بك.. تفكيراً.. وتخطيطاً.. وإدارة.. وكان الرجل مخلصاً ومتميزاً تماماً في عمله فأبدع فيه.. واستطاع في سنوات وجيزة أن يخرج للنور أول دفعات من المصريين تحمل لقب أطباء بمعناه العلمي في العصر الحديث.

كما قام كلوت بك بوضع مؤلفات طبية كثيرة.. وكان يتخذ من طبيب اسمه محمد الشافعي مترجماً دائماً له.. ومن أشهر كتبه الطبية التي وضعها بمساعدة مترجمه الخاص باللغة العربية:

- «بواكير الطب الحديث» وهو من أهم الكتب الطبية ويحتوى على معلومات في مختلف فروع الطب
- «القول الصريح في علم التشريح» طُبعَ لأول مرة سنة ١٨٧٢
- «مبلغ البراح في علم الجراح»
- «نبذة عن التشريح المرضى» طبع سنة ١٨٧٦

بعد وفاة محمد علي آثر العودة إلى بلاده فرنسا.. حيث تُوفُى هناك بمارسيليا في ٢٨ أغسطس ١٨٦٨..

❖❖❖

رفاعة الطهطاوي



من لا يعرف هذا الاسم؟

لا أحد..

فهو من أشهر رجالات عصره.. ومن أهم من ساعدوا على نجاح تجربة محمد علي.. ومن أهم رموز النهضة المصرية الحديثة.. وأحد جسور عصر التنوير في مصر.

اسمه بالكامل: رفاعة رافع الطهطاوي.. من مواليد ١٥أكتوبر ١٨٠١ بطهطا محافظة سوهاج.. تخرج من الأزهر الشريف.. وسافر سنة ١٨٢٦ في أول بعثة تعليمية مصرية ذهبت إلى فرنسا كإمام ورجل دين مرافق لطلبة البعثة.

لكنه كان صاحب علم ورغبة طموحة في اللحاق بركب زملاءه وأخذ حظه هو الآخر من التعليم.. فتعلم الفرنسية.. وتفتحت أفاقه على الثقافة الأوروبية بكل ما تتميز به من تقدم علمي.. وثقافي واجتماعي..

وبعد أن عاد إلى مصر تم تعيينه سنة ١٨٤٢ مديراً لقلم الترجمة الذي أنشأه محمد علي.. ثم أصبح ناظراً لمدرسة الألسن.

وغلبه شغفه بالترجمة.. فترجم كتباً متعددة في مجالات وعلوم مختلفة عديدة مثل الجغرافيا.. التاريخ.. وكتب في فروع علمية أخرى.

ولم يكتفِ بالترجمة.. بل وضع وألَّفَ كتباً عِدة.. من أشهرها:

- «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» ظهر فيه شدة انبهاره وتأثره الكبيرين بالحضارة والثقافة الفرنسية.
- «مباهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية»..

ولعب دوراً كبيراً في إصدار جريدة «الوقائع المصرية» وشارك في تحرير مجلة «روضة المدارس» التي تولى إصدارها «على باشا مبارك»[1] وزير المعارف.

❖❖❖

(١) علي باشا مبارك « من مواليد مديرية الدقهلية سنة ١٨٢٣» لُقب بـ«أبو التعليم» وهو مؤرخ ومن أعمدة النهضة المصرية الحديثة.. تعلم في القاهرة وفرنسا.. وعندما عاد من فرنسا لمصر تدرج بين المناصب حتى أصبح رئيساً لديوان الأشغال والمدارس.. فبذل جهداً كبيراً في تجميل القاهرة وتطوير التعليم وتوسيعه.. وأنشأ «الكتبخانه الخديوية» اللى سُميَت فيما بعد بدار الكتب ودار الوثائق القومية.. ودار العلوم.. ألف كتاباً مهماً من عشرين مجلد عنوانه «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر والقاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة كاستكمال لخطط المقريزى الشهيرة.. وكتب رواية واحدة هي«علم الدين».. توفي بالقاهرة في ١٤ نوفمبر ١٨٩٣.

محمد لاظوغلي باشا



هـو أول وزيـر في القـوات المسلحة.. كمـا تـولى وزارة المالية في عهـد محمـد علـي ومن أشهر وأهم الوزراء المعاونين له في تجربته.. كذلك شغل منصب رئيس وزراء مصر عام ١٨٠٨ وظل في منصبه هذا ١٥ عاماً.

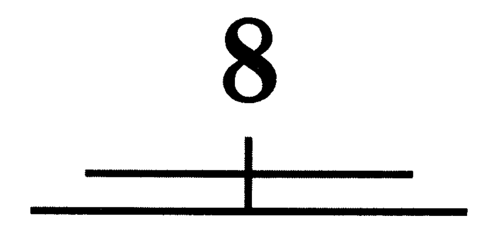
اسمه الحقيقى "محمد لاظـ" أما كلمة "أوغلى" فهي تعنى "ابن" أي أنه «ابن لاظ» جاء إلى مصر برفقة محمد علي في أواخر القرن الثامن عشر.. وكما سبق وقلنا كان هو صاحب فكرة مذبحة القلعة.

أُطلِقَ اسمه على واحد من أهم ميادين القاهرة أمام وزارتي العدل والداخلية ويتوسط الميدان تمثالٌ له صنعه المثال الفرنسي الشهير «جاك مار»عام ١٨٧٢ بعد أن قررت الحكومة المصرية عمل تماثيل لكبار الشخصيات في الدولة في عهد محمد علي.

وللتمثال قصة طريفة.. فبالرغم من تعدد وأهمية المناصب التي تولاها لاظوغلي إلا أنه لم يكن يهتم بذكر اسمه أو تمجيد أعماله وإنجازاته إلى درجة أوقعت المثال الفرنسي في مشكلة كبيرة حيث لم يجد له صورة واحدة يصنع منها التمثال.. فأخذ يبحث مستعيناً بأحد أصدقاء لاظوغلى عن شخص يشبهه تماماً

واستمر البحث طويلاً حتى تم العثور على سقاء يحمل قربة بها ماء يشبه لاظوغلى إلى حد مدهش.. فصنعوا له ملابس تشبه ملابس رئيس الوزراء ووقف الرجل البسيط الفقير وقفة الأمراء لأول وآخر مرة في حياته وقام المثال بصنع التمثال متخذاً من السقاء بديلاً عن لاظوغلى باشا.

❖❖❖





ماذا تبقى من أسرة محمد علي؟

يتقى لنا سؤالٌ آخر لاستكمال باقي أركان الصورة بالنسبة لتجربة محمد علي.. وهو:

ماذا تبقى من الأسرة العلوية بعد «محمد علي» ؟

في البداية يجب أن نعرف البعد الأخير في حياة محمد علي نفسه.. والذي نستطيع أن نطلق عليه:

حريم مولانا



تزوج محمد علي باشا من زوجتين وكان ملك يمينه عشر جواري.. وأنجب منهن محمد علي ثلاثين طفلاً.. ١٣ بنتاً.. و١٧ ولداً.. مات معظمهم أطفالاً وعاش منهم ١٠ فقط.. ونبدأ بالحديث عن زوجتيه:

أمينة هانم

وهي بنت علي باشا الشهير بمصرلي من أهالي قرية نصرتلي.. ورُزِقَ منها بخمسة أولاد ثلاثة أنجال وبنتين وهم (الأمير إبراهيم باشا – الأمير أحمد طوسون باشا - الأمير إسماعيل كامل باشا - الأميرة توحيدة هانم - الأميرة نازلي هانم)[1].

(١) بحسب ما ذكرته الدكتورة عفاف لطفي السيد بجريدة الأخبار في عدد ٢٣ديسمبر ٢٠٠٨م أن نازلي ثانية كبري بنات محمد علي والتي تزوجت من محمد الدفتردار.. كانت ذات سمعة سيئة.. وغير سوية من الناحية الأخلاقية لدرجة أنها أمرت بقتل أحد ندمائها ذات مرة.

ماه دوران هانم

وهي الزوجة الثانية.. وكانت تُسمى أيضاً (قمش قادين) ولم يرزق منها محمد علي بأبناء.. ولم تذكر عنها كتب التاريخ أكثر من اسمها..



أما جواريه فهن:

- أم نعمان وقد رزق منها الأمير نعمان بك.
- عين حياة قادين وقد رزق منها محمد سعيد باشا (والي مصر).
- ممتاز قادين وقد رزق منها الأمير حسين بك.
- ماهوش قادين وقد رزق منها الأمير علي صديق بك.
- نام شاز قادين وقد رزق منها الأمير محمد عبد الحليم أمينة في شبابها.
- زيبة خديجة قادين وقد رزق منها الأمير محمد علي باشا الصغير.
- شمس صفا قادين وقد رزق منها بنتين الأميرة فاطمة هانم، الأميرة رقية هانم.
- شمع نور قادين وقد رزق منها الأميرة زينب هانم.
- نايلة قادين لم يرزق منها أولاداً.
- كلفدان قادين لم يرزق منها أولاداً.
- قمر قادين لم يرزق منها أولاداً.

❖❖❖

واستمرت أسرة «محمد علي» في حكم مصر حوالي ١٥٠ سنة.. تولى الحكم خلالها أحد عشر ابناً من أبناء الأسرة.. وحملوا ألقاباً مختلفة كعنوان للحكم.. ما بين «والى» و«خديوى» و«سلطان» ثم «ملك»..

وهم على الترتيب بعد «محمد علي باشا».. كما يلي:

«إبراهيم باشا»

وقد تحدثنا عنه بإسهاب في الفصول السابقة.. ثم جاء بعده..

عباس حلمى الأول



هو ابن أحمد «طوسون» باشا أي حفيد «محمد علي باشا».. وُلِدَ في جدة سنة «١٨١٣» ونشأ في مصر.. تولى الحكم بعد وفاة عمه «إبراهيم باشا» من ١٠ نوفمبر ١٨٤٨ حتى وفاته اغتيالاً في بنها سنة ١٨٥٤ عُرِفَ عنه ميله لحياة البذخ.. وإهماله لشئون الدولة.

يعتبر عهده عهد رجعية شديدة.. ففيه توقفت حركة التقدم والنهضة التي ظهرت في عهد جده محمد علي باشا.

لم يرث عن جده مواهبه وعبقريته.. ولم يشبه عمه إبراهيم في عظمته وبطولته.. بل كان قبل ولايته الحكم وبعد أن تولاه يفتقر إلى المزايا والصفات التي تجعل منه ملكًا مميزًا يضطلع بأعباء الحكم ويسلك البلاد سبيل التقدم والنهضة.

وكان جده محمد علي قد بذل جهوداً كبيرة في إعداده لولاية الحكم إذ كان أكبر أفراد الأسرة العلوية سنًا وبالتالي أحقهم بولاية الحكم بعد عمه إبراهيم باشا.. فعهد إليه بالمناصب الإدارية والحربية.. وتقلد من المناصب الإدارية منصب مدير الغربية.. ثم منصب الكتخدائية التي كانت بمنزلة رئاسة النُظار.. ولم يكن في إدارته مثلًا للحاكم العادل.. بل كان له من التصرفات ما ينم عن القسوة.. وكان يبلغ جده نبأ بعض هذه التصرفات فينهاه عنها ويحذره من عواقبها ولكن طبيعته كانت تتغلب على نصائح جده وأوامره.

ومن الجهة الحربية اشترك مع عمه إبراهيم باشا في الحرب في الشام.. وقاد فيها إحدى الفيالق.. ولكنه لم يتميز فيها بعمل يدل على البطولة أو الكفاءة الممتازة.. وبالتالي لم تكن له ميزة تلفت النظر.. سوى أنه حفيد رجل أسس ملكًا كبيرًا فصار إليه هذا الملك.. دون أن تؤول إليه مواهب مؤسسة.. فكان شأنه شأن الوارث لتركة ضخمة جمعها مورثه بكفاءته وحسن تدبيره وتركها لمن هو خلو من المواهب والمزايا.. وكان عمه إبراهيم باشا لا يرضيه منه سلوكه وميله إلى القسوة.. وكثيرًا ما نقم عليه نزعته إلى إرهاق الآهلين.. حتى اضطره إلى الهجرة للحجاز وبقى هناك إلى أن داهم الموت عمه إبراهيم باشا.

توليه الحكم

كان في الحجاز عندما توفي عمه إبراهيم باشا.. فعاد إلى مصر ليخلفه في الحكم تنفيذًا لنظام التوارث القديم الذي يجعل ولاية الحكم للأرشد فالأرشد من نسل محمد علي.. و تولى الحكم في ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٤٨.

وتولى الحكم لمدة خمس سنوات ونصف العام.. وكان يبدو خلالها غريب الأطوار.. شاذًا في حياته.. كثير التطير.. فيه ميل إلى القسوة.. سيئ الظن بالناس.. ولهذا كان كثير ما يأوي إلى العزلة.. ويحتجب بين جدران قصوره.. وكان يتخير لبنائها الجهات الموغلة في الصحراء أو البعيدة عن الأنس.. ففيما عدا سراي الخرنفش وسراي الحلمية بالقاهرة.. حيث بني قصرًا بصحراء

الريدانية التي تحولت إلى العباسية أحد أشهر أحياء القاهرة والتي سميت من ذلك الحين باسمه.. وكانت في ذالك الوقت في جوف الصحراء.

وقد شاهد «فرديناند دي ليسبس» هذا القصر سنة ١٨٥٥ فأذهلته روعته وضخامته وذكر أن نوافذه بلغت ٢٠٠٠ نافذة.. وهذا وحده يعطينا فكرة عن عظمة القصر واتساعه.. فكأنه بني لنفسه مدينة في الصحراء.. كما بني قصرًا قصر آخر نائيًا في الدار البيضاء الواقعة بالجبل على طريق السويس ولا تزال أثاره باقية إلى اليوم.. وقصر بالعطف.. كما بني قصرًا في بنها على ضفاف النيل بعيداً عن المدينة.. وهو القصر الذي قُتِلَ فيه.

و قد أساء الظن بأفراد أسرته وبكثير من رجالات محمد علي باشا وإبراهيم باشا وخيل له الوهم أنهم يتآمرون عليه.. فأساء معاملتهم وخشي الكثير منهم على حياتهم فرحل بعضهم إلى الأستانة والبعض إلى أوروبا خوفًا من بطشه.. واشتد العداء بين الفريقين طول مدة حكمه..

وبلغ به حقده على من يستهدفون غضبه أنه حاول قتل عمته «الأميرة نازلي هان» واشتدت العداوة بينهما حتى هاجرت إلى الآستانة خوفًا من بطشه.. وقد سعي لتغيير نظام وراثة العرش ليجعل ابنه «إبراهيم إلهامي باشا» خليفته في الحكم بدلاً من عمه «محمد سعيد باشا» ولكنه لم يفلح في مسعاه ونقم على عمه سعيد الذي كان بحكم سنه وليًا للعهد واتهمه بالتآمر عليه.. واشتدت بينهم العداوة حتى اضطره أن يلزم الإسكندرية وأقام هناك بسراي القباري.

وانتشرت الجاسوسية في عهده انتشارًا مخيفًا.. فصار الرجل لا يأمن على نفسه من صاحبه وصديقه.. وكان من يغضب عليه ينفيه إلى السودان ويصادر أملاكه.. وكان نفي المغضوب عليهم إلى أقصى السودان من الأمور المألوفة في ذلك العصر.. وكان مولعًا بركوب الخيل والهجن.. ويقطع بها المسافات البعيدة في الصحراء.. وله ولع شديد باقتناء الجياد الكريمة حيث كان يجلبها من مختلف البلاد ويعني بتربيتها عناية كبرى.. وبني لها الإصطبلات الضخمة وأنفق عليها بسخاء شأنه شأن هواة الخيل.

بين العهدين

وبشكل عام يختلف عهده عن عصر محمد علي.. فإن حركة النهضة والتقدم والنشاط التي امتاز بها هذا العصر قد تراجعت في عهده.. وهناك ظاهرة أخرى للفرق بين العهدين.. إذ أن محمد علي كان يستعين بذوي العلم والخبرة من الفرنسيين في معظم مشاريع الإصلاح لكنه لكونه لم يفكر في تعهد هذه الإصلاحات قام بإقصاء معظم هؤلاء الخبراء واستغنى عنهم.. وقد تضائل النفوذ الفرنسي في عهده ولم يعد إلى الظهور إلا في عهد محمد سعيد باشا..

وعلى العكس من انحسار النفوذ الفرنسي.. فقد بدأ النفوذ الإنجليزي في عهده على يد القنصل البريطاني في مصر «مستر مري».. حيث كان له تأثير كبير عليه وله عنده كلمة مسموعة.. ولا يعرف السبب الحقيقي لهذه المنزلة سوي أنه نتيجة المصادفة.. إلا إنه قيل إنه كان يستعين به في السعي لدى الحكومة العثمانية بواسطة سفير إنجلترا لتغيير نظام وراثته العرش كي يؤول إلى ابنه "إلهامي".. وفي رواية أخرى إنه كان يستعين به وبالحكومة الإنجليزية ليمنع تدخل الدولة العثمانية في شئون مصر.. إذ كانت تريد تطبيق القانون الأساسي المعروف بالتنظيمات على مصر.

علاقته بالوهابيين

كان مؤيدًا للشيخ محمد بن عبد الوهاب.. وقام بتهريب أحد أبنائه أثناء وجوده في السجون المصرية بعد أسره في المعركة التي خاضها إبراهيم باشا مع الحركة الوهابية.. كما قام بتنفيذ نظام الحسبة في مصر.. فكانت الشرطة تتطوف بالناس في الأسواق أثناء الصلاة لتغلق المحال.. وكانوا يستعملون السياط لمن لا يغلق محله.

كانت وفاته اغتيالاً وذلك في قصره في بنها.

❖❖❖

محمد سعيد باشا



محمد سعيد باشا.. تولى الحكم من ٢٤ يوليو ١٨٥٤ إلى ١٨ يناير ١٨٦٣ تحت حكم الدولة العثمانية.. و كان الابن الرابع لمحمد علي.. تلقى تعليمه في باريس وكان ذو نزعة وميل للتوجه الغربي.

أهم سمات عهده

- تأسيس البنك المصري عام ١٨٥٤..
- إعطاء فرديناند دي ليسبس الموافقة على حفر قناة السويس..
- قام بإغلاق المدارس العليا «الكليات» التي أنشأها والده محمد علي باشا.. وقال بعد إغلاقها كلمته المأثورة «أمة جاهلة أسلس قيادة من أمة متعلمة»..
- قام بتخفيض الضرائب على الأراضي الزراعية.. وأسقط المتأخرات عن الفلاحين ومنحهم حق تملك الأرض وذلك طبقاً للقانون الذي أصدره في ٥ أغسطس ١٨٥٨..
- قام بتطهير ترعة المحمودية..
- أتم مشروع سكة حديد القاهرة - الإسكندرية والذي بدأ العمل به في فترة حكم عباس حلمي الأول..
- اهتم بالملاحة التجارية الداخلية والخارجية.. فأنشأ شركتين للملاحة أحداهما نيلية أسسها عام ١٨٥٤ والأخرى بحرية أسسها عام ١٨٥٧..

- قصر مدة الخدمة العسكرية ثم عممها على جميع الشبان على اختلاف طبقاتهم.. فجعل متوسط الخدمة سنة واحدة وبذلك أدخل في نفوس الناس الطمأنينة على مصير أبنائهم المجندين..
- أصدر لائحة المعاشات للموظفين المتقاعدين..
- أصلح مجلس الأحكام وقام بعدة تغييرات في هيكله..
- أصلح القضاء الشرعي..
- منع نقل الآثار المصرية وأمر بجمعها في مخازن أعدت لها في بولاق..
- أنهى الاختلاط الذي كان متبعًا في التقويم.. حيث كان هناك التقويم الهجري والميلادي والقبطي فحدد لكل وظيفته..

وخاضت مصر في عهده حربين:

حرب القرم: حيث أرسل نجدة إلى الجيش المصري.. واستطاعت الدولة العثمانية وحلفائها التفوق على الروس وإبرام معاهدة باريس عام ١٨٥٦.

حرب المكسيك: بسبب ميوله نحو إمبراطور فرنسا نابليون الثالث جعلته يلبي دعوته حينما طلب منه أن يمده بقوة حربية مصرية لتعاون الجيش الفرنسي بهذه الحرب.

قناة السويس أبرز مشروعاته وأهم إنجازات أسرة محمد علي

في عهد جده محمد علي.. وبالتحديد عام ١٨٤٠ وضع المهندس الفرنسي «لينان دى بلفون بك» مشروعاً لشق قناة مستقيمة تصل بين البحرين الأحمر والأبيض.. وأزال التخوف السائد من علو منسوب مياه البحر الأحمر على البحر المتوسط وأكد أن ذلك لا ضرر منه..

وفي ١٥ أبريل ١٨٤٦ أنشأ سان سيمونيون بباريس جمعية لدراسات قناة السويس وأصدر المهندس الفرنسي بولان تالابو تقريراً في أواخر عام ١٨٤٧ مبنياً على تقرير لينان دى بلفون أكد فيه إمكانية حفر قناة تصل بين البحرين دون حدوث أي طغيان بحري.

وبعد أن تولى «سعيد باشا» حكم مصر في ١٤ يوليو ١٨٥٤ تمكن مسيو دى لسبس والذي كان مقرباً منه من الحصول على فرمان عقد امتياز قناة السويس الأول وكان مكونا من ١٢ بنداً أهمها حفر قناة تصل بين البحرين.. على أن تكون مدة الامتياز ٩٩ عاماً من تاريخ تشغيل القناة.

وقام دى لسبس برفقة المهندسين لينان دى بلفون بك وموجل بك بزيارة منطقة برزخ السويس في ١٠ يناير ١٨٥٥ لبيان جدوى حفر القناة.. وأصدر المهندسان تقريرهما في ٢٠ مارس ١٨٥٥ والذي أثبت سهولة إنشاء قناة تصل بين البحرين.

وقام مسيو دى لسبس بتشكيل لجنة هندسية دولية لدراسة تقرير المهندسين وزارت اللجنة أيضاً منطقة برزخ السويس وبورسعيد وأصدرت تقريرها في ديسمبر ١٨٥٥ مؤكدةً إمكانية شق القناة وأنه لا خوف من منسوب المياه لأن البحرين متساويين في المنسوب وأنه لا خوف من طمي النيل لأن بورسعيد شاطئها رملي.

وفي ٥ يناير ١٨٥٦ صدرت وثيقتين هما عقد الامتياز الثاني.. وقانون الشركة الأساسي وكان من أهم بنوده هو قيام الشركة بكافة أعمال الحفر.. وأن يكون حجم العمالة المصرية أربعة أخماس العمالة الكلية المستخدمة في الحفر.

و تم إنجاز المشروع بين عامي ١٨٥٩ - ١٨٦٩..

❖❖❖

اسماعيل باشا

تحدثنا عنه باستفاضة في الفصل السابق..

الخديوي محمد توفيق



هو سادس حكام مصر من الأسرة العلوية... تولى حكم مصر في ٢٦ يوليو ١٨٧٩ بعد عزل أبيه إسماعيل باشا..

وهو من مواليد «١٥ نوفمبر ١٨٥٢» ..

والابن الأكبر للخديوي إسماعيل من مستولدته «نور هانم شفق» التي لم تكن ضمن زوجاته الأربع.. وربما كان ذلك سبب عدم إرساله مع باقي أبنائه للدراسة في أوروبا.. كما يفسر ذلك العلاقة السيئة بينه وبين أبيه والتي تجلت بعد عزل إسماعيل في نأيه عنه وإقصاء كل رجاله.

شهد عهده الأحداث التالية:

- اندلاع الثورة العرابية بقيادة أحمد عرابي..
- وقوع حادثتي قصر النيل..
- ميدان عابدين في سبتمبر «١٨٨١»..
- بداية الاحتلال الإنجليزي لمصر سنة ١٨٨٢ الذي حظي بتأييده..
- سقوط الخرطوم في يد الثورة المهدية..
- قتل الحاكم المصري للسودان «تشارلز جورج جوردون» وفقدان مصر حكم السودان..

- أصدر في ١ مايو ١٨٨٣ القانون النظامي.. والذي بمقتضاه شكل مجلس شورى القوانين..

تزوج من قريبته الأميرة أمينة هانم إلهامي ابنة إبراهيم إلهامي باشا ابن عباس حلمي الأول بن أحمد «طوسون» باشا بن محمد علي باشا وذلك عام ١٨٧٣.. وأنجب منها كلّ من:

- عباس حلمي..
- محمد علي..
- نازلي هانم..
- خديجة هانم..
- نعمة الله..

وفاته

تُوفي في قصر حلوان بالقاهرة في ٧ يناير ١٨٩٢.

❖❖❖

عباس حلمي الثاني



هو ابن الخديوي محمد توفيق.. تولى حكم مصر في ٨ يناير ١٨٩٢ لكونه أكبر أولاد الخديوي توفيق.. وحكم مصر حتى عزله في ١٠ سبتمبر ١٩١٤..

وكان آخر خديوي لمصر والسودان.

حاول أن ينتهج سياسة إصلاحية ويتقرب إلى المصريين ويقاوم الاحتلال البريطاني.. فانتهز الإنجليز فرصة بوادر نشوب الحرب العالمية الأولى وكان وقتها خارج مصر.. فخلعوه من الحكم وطلبوا منه عدم العودة ونصبوا عمه «حسين كامل» سلطانًا على مصر بدلاً من أن يكون خديوي كابن شقيقه.. وفرضوا على مصر الحماية رسميًا.. ويوجد في القاهرة كوبري باسمه وهو كوبري عباس الذي يربط بين جزيرة منيل الروضة والجيزة.

من أهم أعماله:

بعد عام من توليه الحكم أقال وزارة «مصطفي فهمي باشا»[1].. فوقعت أزمة مع إنجلترا.. وتحدى المندوب السامي البريطاني «لورد كرومر»[2] فأدى ذلك إلى زيادة شعبيته..

وعندما ذهب لصلاة الجمعة في مسجد الحسين في ١١ يناير ١٨٩٣ دوت الهتافات بحياته وارتفع صوت الدعاء له وعبر الجميع عن حبهم له..

وأرسل لورد كرومر لوزارة الخارجية في إنجلترا بأن الخديوي في حوار معه قال له إن إنجلترا وعدت بترك مصر وشرفها مقيد بهذا الوعد.. وظهر هذا في تصاريح الوزراء في مجلس النواب.. بل وفي خطب الملك..

وسافر الخديوي للآستانة ليشكر السلطان «عبد المجيد» على الثقة التي أولاها له وليناله تأيده على الخطوات العودة المصرية لحضن الخلافة.. وقد ذكر الخديوي في مذكراته أن السلطان «عبد الحميد الثاني»[3] شجعه على معارضة إنجلترا..

---

(١) مصطفي فهمي باشا من مواليد كريت«١٨٤٠ - سبتمبر ١٩١٤».. تسلم منصب رئيس وزراء مصر على مرحلين الأولى من ١٨٩١ إلى ١٨٩٣ وذلك خلفاً لرياض باشا.. والثانية من ١٨٩٥ إلى ١٩٠٨خلفا لرئيس الوزراء بوجس نوبار باشا.. اعتبره كثير من المصريين رجل الإنجليز في مصر..

(٢) اللورد كرومر كان رجل دولة ودبلوماسي وإداري مستعمرات بريطاني.. وكان من كبار دعاة التغريب والاستعماريين في العالم الإسلامي.. وواحد من الذين وضعوا مخطط السياسة التي جرى عليها الاستعمار ولا يزال في محاولة القضاء على مقومات العالم الإسلامي والأمة العربية.. وتمثل كتاباته في تقاريره وفي كتابه «مصر الحديثة» خطة عمل كاملة وأيدلوجيا شاملة للقضاء على مقومات الفكر العربي الإسلامي وتمزيق وحدة العالم الإسلامي.. ومقاومة القيم والمفاهيم العربية والإسلامية.. أمضى لورد كرومر في مصر ما لا يقل عن ربع قرن قابضًا على زمام السلطات «١٨٨٢-١٩٠٦» وأتيح له قبل أن يقضي وقتًا في الهند.. درس في خلالها مناهج الاستعمار البريطاني هناك.. وعمل أول مرة في مصر مندوبًا لصندوق الدين المصري ١٨٧٧ ثم ما لبث أن عُينَ بعد الاحتلال البريطاني مباشرة مندوبًا ساميًا.. ومعتمدًا لبريطانيا.

(٣) السلطان عبد الحميد الثاني هو السلطان الرابع والثلاثين من سلاطين الدولة العثمانية.. وآخر من امتلك سلطة فعلية منهم.. وُلِدَ في ٢١ سبتمبر ١٨٤٢ وتولى الحكم عام ١٨٧٦ أبعد عن العرش عام ١٩٠٩ بتهمة الرجعية.. وأقام تحت الإقامة الجبرية حتى وفاته في ١٠ فبراير ١٩١٨.

وعندما عاد الخديوي واصل سياسة التحدي للاحتلال.. وبإيعاز منه قررت لجنة مجلس شورى القوانين رفض زيادة الاعتماد المخصص للجيش البريطاني.. وتخفيض ضرائب الأطيان وتعميم التعليم.. فاتهمه الإنجليز بأنه نسق مع نظارة «مصطفي رياض باشا»[1] ولجنة المجلس.. ولهذا اضطرت نظارة مصطفي رياض باشا للرضوخ لرغبة الإنجليز وزيادة الاعتمادات.

على الرغم من الهزيمة السياسية له في هذه المعركة فانه سرعان ما قرر خوض معركة جديدة.. ففي ١٥ يناير ١٨٩٤ زار أسوان ودعا ٣٣ ضابطاً لتناول الطعام معه.. ثم أبدى للقائد العسكري الإنجليزي «هربرت كتشنر»[2] بعض الملاحظات حول عدم كفاءة الجيش البريطاني.. ولكن كتشنر لم يقبل هذه الملاحظات واعتبرها إهانة.. وأبلغ المندوب السامي لورد كرومر الذي بدوره أبلغ إنجلترا فثارت ضجة هناك.. وقالت الصحف إن الخديوي يعاملنا معاملة الأعداء.. وهددت بخلعه.. وطلب لورد كرومر منه أن يصدر أمرًا عسكريًا يثنى فيه على الجيش.. فاضطر للاذعان في ٢١ يناير ١٨٩٤.. وإمعانًا في إذلاله طلبوا منه تغير النظارة الحالية بأخرى بزعامة «نوبار باشا»[3].

وكنتيجة للشعور الوطني لدى الشعب اشتبك الأهالي مع بعض البحارة الإنجليز فطلب لورد كرومر منه تشكيل محكمة خاصة.. وأنشأت المحكمة وأصدرت أحكامها عليهم تتراوح بين الحبس ٣ إلى ٨ شهور..

(١) وُلِدَ مصطفي رياض بالقاهرة عام ١٨٣٤ واختلف المؤرخون في جنسيته.. يقول البعض أنه كان يهودياً من سميرنا وينتمي لأسرة من المرابين ووزاني الذهب تعرف باسم الوزان.. ١٨٩١».

(٢) هوراشيو هربرت كتشنر أو اللورد كتشنر «٢٤ يونيو ١٨٥٠ أيرلندا - ٥ يونيو ١٩١٦» كان القائد الأعلى للجيش البريطاني ورجل دولة.. بدأ كضابط بسلاح المهندسين الملكي.. ثم عُينَ حاكماً على المستعمرات البريطانية بمنطقة البحر الأحمر في عام ١٨٨٦ ومن ثم أصبح القائد الأعلى للقوات المسلحة بالجيش المصري في عام ١٨٩٢ م.

(٣) بوغوص نوبار باشا من مواليد سنة «١٨٢٥» وهو أول رئيس لوزراء مصر.. شغل هذا المنصب ثلاث مرات.. الأولى كانت من ٢٨ أغسطس ١٨٧٨ وحتى ٢٣ فبراير ١٨٧٩ والثانية من ١٠ يناير ١٨٨٤ إلى ٩ يونيو ١٨٨٨. وآخر وزاراته كانت من ١٥ أبريل ١٨٩٤ حتى ١٢ نوفمبر ١٨٩٥.

ومع توالى الهزائم السياسية اضطر لإيقاف الصدام مع الإنجليز مؤقتًا والتحول لميدان آخر وهو إصلاح الأزهر وتنصيب شيخ جديد وإرسال كسوة الكعبة.. كما إن الحظ وقف معه باستقالة نوبار باشا لظروفه الصحية..

وفي ١٩ سبتمبر ١٨٩٧ عاد الصدام حيث اشتبك الأهالي في قليوب مع فصيل إنجليزي.. فحاصر الإنجليز البلدة.

فتح السودان

طلب الإنجليز من مصر إعادة فتح السودان بأموال مصرية ورجال من مصر.. ومع هذا استولى الإنجليز عليها مما زاد من كراهية المصريين للإنجليز خاصة مع ظهور «مصطفي كامل»[1] وبدأه سلسلة مقالاته في جريدة اللواء ودعوته لوحدة مصر مع دولة الخلافة.

الحرب بين إنجلترا والعثمانيين في مصر

حاول الإنجليز دق إسفين بين مصر والدولة العثمانية.. وفكروا في إقالة قاضي القضاة العثماني وتعين قاضي مصري.. فصرح أن تعين قاضي شرعي في مصر ليس من سلطته.. ولكن من سلطة الخليفة الأعظم.. وفي لقائه مع لورد كرومر تمكن الخديوي عباس من فرض وجهة نظرة ليحقق انتصار سياسي بعد عدة هزائم.

وفي ١٩٠٤ وقع اتفاق ودي بين إنجلترا وفرنسا بمقتضاه تطلق إنجلترا يد فرنسا في مراكش وتطلق فرنسا يد إنجلترا في مصر.. وبهذا خسرت مصر النقد اللاذع من الفرنسيين للإنجليز.. فاضطر لمهادنتهم.

---

(١) مصطفي كامل باشا من مواليد «١٨٧٤» وهو زعيم سياسي وكاتب مصري.. أسس الحزب الوطني وجريدة المؤيد.. كان من المنادين بإنشاء «إعادة إنشاء» الجامعة المصرية.. وكان حزبه ينادي برابطة أوثق بالدولة العثمانية.. توفي عن عمر يناهز ٣٤ عاماً.. بصماته الوطنية ما زالت ممتدة وحاضرة حتى اليوم بالرغم من قصر عمره.. توفي في ١٠ فبراير ١٩٠٨.

حادثة دنشواي

في عام ١٩٠٦ وقعت حادثة دنشواي الشهيرة[١].. وعقدت محاكمة للأهالي وصدر ضدهم أحكام قاسية.. وسافر مصطفي كامل لإنجلترا وشرح المأساة حتى نجح في خلق رأى عام ضد سياسة لورد كرومر في مصر.. واستجابت الحكومة البريطانية ومجلس النواب.. وهاجم الأديب أيرلندي شهير هو «جورج برنارد شو»[٢] الاحتلال الإنجليزي لمصر.. فأعفي لورد كرومر من منصبه في ١٢ أبريل ١٩٠٧.

---

(١) حادثة دنشواي هو اسم الواقعة الشهيرة التي حدثت عام ١٩٠٦ في بلدة دنشواي بمركز الشهداء بمحافظة المنوفية.. حيث كان خمسة جنود بريطانيين يصطادون الحمام بالبلدة المشهورة بكثرة أسراب الحمام بها .. ولسوء الحظ كان الحمام عند أجران الغلال يلتقط الحب.. وشاهدهم مؤذن البلدة فأخذ يصيح فيهم حتى لا يحترق التبن في جرنه.. ولكن أحد الضباط لم يفهم منه ما يقول وأطلق عياره فأخطاء الهدف وأصاب زوجة شقيق ذلك الرجل.. واشتعلت النار في التبن.. فهجم الرجل على الضابط وأخذ يجذب البندقية وهو يستغيث بأهل البلد صارخاً «الخواجة قتل المرأة وحرق الجرن».. وهرع بقية الضباط الإنجليز لإنقاذ صاحبهم.. وفي هذا الوقت وصل خفراء البلدة لاستطلاع الأمر.. فتوهم الضباط بأنهم سيفتكون بهم فأطلقوا عليهم الأعيرة النارية وأصابوا بعضهم .. فقذفهم أهالي القرية بالطوب والعصي.. فقبض عليهم الخفراء وأخذوا منهم الأسلحة إلا اثنان منهم وهم كابتن الفرقة وطبيبها أخذا يعدوان تاركان ميدان الواقعة وقطعا نحو ثمانية كيلومترات في الحر الشديد حتى وصلوا إلى بلدة سرسنا فوقع الكابتن على الأرض ومات بعد ذلك.. فتركه الطبيب وأخذ يعدو حتى وصل إلى المعسكر وصاح بالعساكر فركضوا حيث وجدوا الكابتن قتيلاً وحوله بعض الأهالي.. فلما رأوهم الأهالي فروا فاقتفوا العساكر أثرهم وقبضوا عليهم إلا أحدهم هرب قبل أن يشد وثاقه واختبأ في فجوة طاحونة تحت الأرض فقتله الإنجليز شر قتلة.. وكان رد الفعل البريطاني قاس وسريع فقد قدم ٥٢ من أبناء القرية للمحاكمة بجريمة القتل المتعمد وتم إثبات التهمة على ٣٢ منهم في ٢٧ يونيو ١٩٠٦ وتفاوتت الأحكام فيما بينهم وكانت معظم الأحكام بالجلد والبعض حكم عليه بالأشغال الشاقة وتم إعدام ٤ منهم.. وللأسف الشديد ترأس القضاة كلٌ من بطرس غالي وأحمد فتحي زغلول باشا الأخ الأكبر لسعد زغلول والذي كان في أثناء المحاكمة في فرنسا لدراسة القانون الفرنسي فقاطع أخاه بسبب ترأسه لتلك المحكمة وكان مدعي النيابة مصري أيضاً يُدعى «الهلباوى باشا» وكان اللورد كرومر هو الحاكم الإنجليزي في مصر في ذلك الوقت.. وفيما بعد تم اغتيال بطرس غالي بعد ذلك علي يد شاب يُدعى إبراهيم الورداني.

(٢) جورج برنارد شو مؤلف أيرلندي شهير.. يعد أحد أشهر الكتاب المسرحيين في العالم.. وهو الوحيد الذي حاز على جائزة نوبل في الأدب للعام ١٩٢٥ وجائزة الأوسكار لأحسن سيناريو «عن سيناريو بيجماليون» في العام ١٩٣٨ توفي ٢ نوفمبر ١٩٥٠.

رحيل كرومر

في حفل وداع لورد كرومر أثنى على الخديوي توفيق وعلى نوبار باشا وتجاهله.. وأعلن أن الاحتلال البريطاني سيدوم وذلك في تحد له وللمصرين..

وفي ٧ يناير ١٩٠٨ أعلن العفو عن ٩ من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة في حادثة دنشواي.

وفي عام ١٩٠٨ أرسل وفد يطلب من وزارة الخارجية البريطانية منح مصر الحق في حكومة نيابية ذات سلطات معينة.. وفي محاولة لإعادة سياسة الصدام وبإيعاز منه رفض البرلمان والحكومة مد امتياز قناة السويس على أساس أن هناك غبن وقع على مصر مقداره ١٣٠ مليون جنيه.

وفي ٢٧ سبتمبر ١٩١١ وصل المندوب السامي الجديد هربرت كتشنر وحاول إجراء إصلاح محدود.. فضم مجلس الشورى مع الجمعية العمومية في هيئة واحدة تسمى الجمعية التشريعية.. وفي ٢٢ يناير ١٩١٤ قام الخديوي بإصدار قرار بإنشاء الجمعية الجديدة وتعين «سعد زغلول»[1] رئيسًا لها.

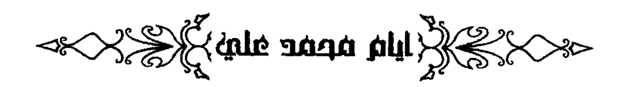
وصل إليه أن هناك رشوة للنظار وإفسادهم ضد ولي الأمر.. فقال له «هربرت كتشنر» أن رغبت في تغير النظارة فلن نرضى إلا أن تكون تحت رئاسة مصطفي فهمي باشا.. وتم ذلك وطلب من الخديوي القضاء على الرشوة.. وإمعانًا في إذلاله طلب هربرت كتشنر بتغيير مصطفي فهمي باشا فعين حسين رشدي باشا.

وفي ٢١ مايو ١٩١٤ استقل يخت «المحروسة»[2] في رحلة للخارج.. وكان هذا آخر عهده في مصر.. وكان آخر ما فعله توقيع أمرين بتنقلات وترقيات لرجال القضاء الأهلي ووضع سلطاته لرئيس الوزراء.

---

(١) وُلِدَ سعد زغلول في قرية إبيانة التابعة لمديرية الغربية سابقًا «محافظة كفر الشيخ حاليًا».. تضاربت الآراء حول تحديد تاريخ ميلاده الحقيقي ما بين يوليو ١٨٥٧ أو يوليو ١٨٥٨.

(٢) هو نفسه اليخت الذي استقله الملك فاروق فيما بعد وهو يغادر مصر.



أيامه في فرنسا ومحاولة اغتياله

أقام بعد مغادرته مصر في فرنسا متنكرًا.. ثم غادرها لتركيا.. وفي ٢٥ مايو بينما كان خارج من الباب العالي قام شاب مصري يدعى «محمود مظهر» بإطلاق الرصاص عليه.. وقال عن الحادثة:

شعرت بانقباض صدر قبلها.. وعندما رأيت الشاب يصوب المسدس نحوي تمكنت من الإمساك بيده الممسكة بالمسدس ودفعه بعيدًا في الوقت الذي لم يتحرك فيه الحرس إلا متأخرًا.. وأصابني بعض الرصاص ولكن في مناطق غير مميتة.. وتناثرت الدماء على ملابسي وكيس نقودي ولكنها لم تصل إلى المصحف الذي كنت أحمله.. وهذا من لطف الله وحتى لو وصلت إليه لما مس هذا من قداسته..

وتسبب هذا الحادث في تأخير عودته لمصر في الوقت الذي نشبت فيه الحرب العالمية الأولى ولم يعد السفر عبر البحار مأمونًا.. وطلب السفير الإنجليزي في تركيا من الخديوي العودة إلى مصر.. إلا إنه تردد فطلب منه أن يرحل إلى إيطاليا إلى أن تسمح الظروف بالعودة إلى مصر.. إلا إنه رفض..

وكانت الحرب حتى ذلك الوقت بين إنجلترا وألمانيا.. إلا أن إنجلترا تعرف إنه كان هناك عداء تركي للإنجليز جعلهم يتشككون في نواياه.

خلعه من الحكم

كانت كل الجهات في إنجلترا عدا الخارجية تطالب بخلعه.. وفي ١٠ ديسمبر ١٩١٤ صدر القرار بعزله وجاء فيه:

«يعلن وزير الخارجية لدى جلالة ملك بريطانيا العظمى أنه بالنظر لإقدام سمو عباس حلمي باشا خديوي مصر السابق على الانضمام لأعداء جلالة الملك رأت حكومة جلالته خلعه من منصب الخديوي»..

عباس جاي

وظل الشعب المصري لفترة طويلة من ١٩١٤ إلى ١٩٣١ يهتف في مظاهراته ضد الاستعمار بـ«عباس جاي» وذلك على أساس أنه هو رمز لعودة مصر للحكم العثماني ونهاية الحكم الإنجليزي..

ولكنه تنازل عن كافة حقوقه في عرش مصر بعد مفاوضات أجراها معه «إسماعيل صدقي باشا»[1] مقابل ثلاثين ألف جنيه دفعتها حكومة مصر..

ويرى البعض إنه لعب على حسابات خاطئة.. إذ رأى أن تركيا تعادى روسيا حليفة إنجلترا.. وأنه لو انتصر الأتراك في الحرب فسيعود مع الأتراك إلى القاهرة رافعًا رايات النصر.. ولكن بعد أربع سنوات احتل الإنجليز الشام وخسر الأتراك الحرب وتصدعت دولة الخلافة.

زوجاته وأبنائه

تزوج مرتين.. الأولى من إقبال هانم.. وأنجب منها:

- الأمير محمد عبد المنعم «الوصي على العرش بعد ثورة يوليو»..
- الأمير محمد عبد القادر..
- الأميرة أمينة..
- الأميرة عطية الله..
- الأميرة فتحية..
- الأميرة لطيفة شوكت..

كما تزوج من جاويدان هانم ولم ينجب منها.



(١) إسماعيل صدقي باشا من مواليد الإسكندرية.. تولى رئاسة الوزراء في عهد الملك فؤاد الأول.. وواضع دستور عام ١٩٣٣ الذي ازداد فيه نفوذ الملك ولكنه أثار ضجة كبرى فاضطر إلى أن يعيد دستور ١٩٢٣ ثم تولى الوزارة المصرية فيما بين ١٩٤٦ ـ ١٩٤٧ للمرة الثانية.. وشارك في هذه الفترة بالمفاوضات التي جرت مع البريطانيين برئاسة وزير الخارجية البريطاني بيفن.. وتمّ التوصل إلى وضع مشروع عُرف بمشروع صدقي ـ بيفن.. إلا أن أكثرية المفاوضين المصريين رفضوا ذلك المشروع.. الأمر الذي اضطره لتقديم استقالته إثر فشل مشروعه التفاوضي ذاك.. وغادر مصر إلى أوروبا.. ولكن وافاه الأجل في باريس.. ونقل جثمانه للقاهرة حيث دفن بها.

السلطان حسين كامل



هو الابن الثانى لإسماعيل باشا.. حكم مصر باسم «سلطان مصر وملك السودان» من ١٩ سبتمبر ١٩١٤ وحتى وفاته في ٩ أكتوبر.. ويلاحظ أن لقب «سلطان» هو نفس اللقب لرأس الدولة العثمانية.

في عهده خرجت مصر من تحت عباءة التبعية لتركيا.. ودخلت تحت الحماية الإنجليزية.. وتنازل ابنه الأمير «كمال الدين حسين»[1] عن حقوقه في تولى السلطنة المصرية..

تم تنصيبه سلطانًا بعد أن عزل الإنجليز ابن أخيه الخديوي عباس حلمي الثاني وأعلنوا مصر محمية بريطانية في عام ١٩١٤ وذلك في بداية الحرب العالمية الأولى.. وكانت تلك الخطوة قد أنهت السيادة الإسمية للعثمانيين على مصر..

وقبل توليه السلطة في مصر سبق له أن تولى نظارة الأشغال العمومية.. فأنشأ سكة حديد القاهرة - حلوان.. ثم نظارة المالية فرئاسة مجلس شورى القوانين.

ومن أبنائه الأميرة سميحة حسين.. وهي صاحبة القصر الرائع المطل علي نيل الزمالك.. والذي تحول لمكتبة القاهرة منذ عدة سنوات.. وكانت مشهورة ومعروفة بحبها للثقافة والفنون والآداب.. وكذلك لأميرة كاظيمة.. وهي صاحبة

---

(١) الأمير «كمال الدين حسين» شخصية فريدة من نوعها بالرغم من تجاهل كتب التاريخ له.. فهو الشخص الوحيد الذي عرض عليه عرش مصر ورفضه كان ذلك عام ١٩١٧ والمثير أن الأمير كمال الدين حسين كامل رفض عرش مصر بعد رحيل والده السلطان حسين كامل.. ليتولي الحكم الملك فؤاد الأول.. ومن بعده نجله فاروق آخر ملوك مصر.. وكمال الدين حسين تزوج ومات دون أن ينجب.

أجمل قصر ملكي علي الإطلاق.. والذي استغرق أنشاؤه عدة سنوات طويلة.. وللأسف لم تطأ قدم «كاظيمة» أرض هذا القصر علي الإطلاق.. بالرغم من الديكورات والزخرفة الهائلة وآلاف الجنيهات الذهبية التي أنفقت علي أنشائه.. واختارت تركيا هذا القصر بالذات ليكون مقراً لسفارتها بالجيزة.. نظراً لفخامته وروعته..

❖❖❖

فؤاد الأول



ابن اسماعيل باشا.. تولى عرش مصر في ٩ أكتوبر ١٩١٧.. وفي مارس ١٩٢٢ لُقِبَ بملك مصر.. حكم حتى تُوُفي في ٢٨ ابريل ١٩٣٦ في عهده قامت ثورة ١٩١٩ بزعامة سعد زغلول.. وتم تشكيل أول وزاره شعبية وكانت برئاسة سعد زغلول..

أى أنه كان سلطاناً.. فأصبح ملكاً بعد تغيير اللقب..

ثم أصبح ينادى مصر وسيد النوبة وكردفان ودارفور.. وذلك منذ إعلان استقلال مصر في ١٢ مارس ١٩٢٢ بعد تصريح ٢٢ فبراير ١٩٢٢ برفع الحماية عن مصر.

وُلِدَ بقصر والده الخديوي إسماعيل بالجيزة.. ووالدته هي الزوجة الثالثة للخديوي وكانت تسمى «الأميرة فريال» هانم..

وعند بلوغه السابعة من عمره ألحقه والده بالمدرسة الخاصة في قصر عابدين والتي كان قد أنشاها لتعليم أنجاله.. واستمر بها ثلاث سنوات.. وفيها أتقن مبادئ العلوم والتربية العالية..

وبعد عزل والده الخديوي إسماعيل سنة ١٨٧٩ صحبه معه إلى المنفي في إيطاليا... فالتحق بالمدرسة الإعدادية الملكية في مدينة تورينو الإيطالية.. واستمر بها حتى أتم دراسته.. ثم انتقل إلى تورين الحربية.. وحصل على رتبة ملازم في الجيش الإيطالي.. والتحق بالفرقة الثالثة عشر «مدفعية الميدان».. وانتقل بعد ذلك مع والده إلى الآستانة بعد شرائه لسراي مطلة هناك على البوسفور.. وعين ياورًا

فخريًا للسلطان عبد الحميد الثاني.. ثم انتُدِبَ بعد ذلك ليكون ملحقًا حربيًا لسفارة الدولة العليا في العاصمة النمساوية فيينا..

ثم عاد إلى مصر سنة ١٨٩٠ وتولى منصب كبير الياورن في عهد الخديوي عباس حلمي الثاني.. وتدرج في المنصب حتى أصبح ياورًا للخديوي واستمر في هذا المنصب ثلاث سنوات متتالية.. كما عني بشؤون الثقافة فرأس اللجنة التي قامت بتأسيس وتنظيم الجامعة المصرية الأهلية.

وعند وفاة السلطان حسين كامل رفض ابنه الأمير «كمال الدين حسين» أن يخلفه.. فاعتلى عرش مصر بدلاً منه..

وفي عهده قامت ثورة ١٩١٩ واضطر الإنجليز إلى رفع حمايتهم عن مصر والاعتراف بها مملكة مستقلة ذات سيادة.. فأعلن الاستقلال في ١٢ مارس ١٩٢٢.. وتم في عهده تأليف أول وزارة شعبية برئاسة سعد زغلول وذلك في يناير من عام ١٩٢٤ وفي صيف ١٩٣٦ عقدت معاهدة بين مصر والمملكة المتحدة اعترفت الأخيرة بمصر دولة مستقلة.

محاولة قتله

في مايو من عام ١٨٩٨ تعرض لاعتداء من الأمير «أحمد سيف الدين» الذي أطلق عليه النار في نادي محمد علي بسبب نزاع بينه وبين زوجته الأميرة شويكار هانم أفندي فاستنجدت بأخيها أحمد سيف الدين.. الذي قام بإطلاق النار عليه.. لكنه لم يمت وإنما سببت له بعض المشاكل في حنجرته وسببت له ضخامة في الصوت.

- أسس الجمعية السلطانية للاقتصاد والإحصاء والتشريع.. وقام بافتتاحها في ٨ أبريل ١٩٠٩..
- أسس جمعية لترغيب السياح في زيارة البلاد المصرية ومشاهدة إثارها وذلك في عام ١٩٠٩..
- رأس جمعية الهلال الأحمر في مصر في ٢ مارس ١٩١٦..

- أمر بتشييد مبنى البرلمان.. وإصدار الدستور..
- نتيجة لمساعيه قبلت المملكة المتحدة وفرنسا وإيطاليا أن يتعلم بعض الطلبة المصريين مجانًا في جامعات لندن وباريس وروما..

توفي في ٢٨ أبريل ١٩٣٦ بقصر القبة.. ودفن في مسجد الرفاعي.

❖❖❖

فاروق الأول



هو آخر ملوك الأسرة العلوية الفعليين..

تبعه ابنه «أحمد فؤاد» لكن كملك على الورق فقط.. حيث قام رجال ثورة يوليو بإلغاء الملكية.

وُلِدَ فاروق في ١١ فبراير ١٩٢٠

وتولى عرش مصر في ٢٨ أبريل ١٩٣٦ بعد وفاة أبيه فؤاد الأول..

وكان وقتها قاصراً فتولى الحكم تحت وصاية مجلس وصاية ضم الأمير «محمد علي»[1] باشا.. و«عزيز عزت باشا».. و«شريف صبري باشا»[2].. حتى تسلم سلطاته الدستورية كاملةً في ٢٩ يوليو ١٩٣٧ واستمر في الحكم حتى أطاحت به ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وأُجبرَ على التنازل عن عرش مصر لابنه الطفل «أحمد فؤاد

(١) الأمير محمد علي هو ابن الخديوي محمد توفيق.. وأمه هي السيدة أمينة هانم شقيقة الخديوي عباس حلمي الثاني الذي عزله الإنجليز عام ١٩١٤م وعينوا بدلاً منه شقيقه السلطان حسين كامل .. لكن الأمير محمد علي لازمه سوء حظ غريب في تولي مقاليد الحكم كملك على عرش مصر.. فقد كان ولياً على عرش مصر قبل ميلاد الملك السابق فاروق وعاش زمناً يراوده الحلم لولا مجئ الفاروق ليتولي الحكم بعد أبيه فؤاد الأول.. ولكنه أُزيحَ من ولاية العرش بعد أن تولي فاروق العرش ثم إنجابه ولي العهد الأمير أحمد فؤاد الثاني الذي تنازل له فاروق عقب قيام ثورة ٢٣ يوليو١٩٥٢ ثم أُلغيَت الملكية بعد ذلك وتم إعلان الجمهورية في مصر.. كان الأمير محمد علي قد أقام في قصره قاعة للعرش استعداداً لتولي الحكم وهو قاب قوسين أو أدنى من تحقيق حلم عمره.. ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن .. وأميرنا الفنان محمد علي.

(٢) كان مديرًا لمديرية المنوفية.. ثم عين بعد زواج ابنته الملكة نازلي من الملك فؤاد وزيرًا للزراعة.

الثانى» والذي كان عمره آنذاك ستة شهور وانتقل للإقامة في إيطاليا وتُوُفِّيَ فيها في ١٨ مارس ١٩٦٥ ودُفن بمسجد الرفاعى بالقلعة بالقاهرة..

وبذلك أصبح فاروق كما قلنا هو آخر ملوك المملكة المصرية وآخر من حكم مصر من الأسرة العلوية.

وقد استمر حكمه مدة سته عشر سنة.

شهدت خلالها مصر موجات متتالية من المد والجزر السياسي خاصةً في علاقتها ببريطانيا.. كما شهد عهده تنامي تيار الوطنية بشكل كبير.. وبرزت من خلاله أسماءٌ كبيرة احتلت صدارة المشهد السياسي في مصر واستمر حضورها باقياً في ذاكرة التاريخ المصري مثل النحاس باشا.. وأنور السادات.. وجمال عبد الناصر.. وأحمد حسين.. وفؤاد سراج الدين.. وأحمد حسنين.. وغيرهم كثيرون.

وهو من أكثر الأسماء التي يُثارُ حولها الجدل بمجرد ذكرها.. وتنقسم الآراء حوله بشدة بين متعاطف معه.. وناقم عليه.

❖❖❖

أحمد فؤاد الثاني



أحمد فؤاد الثاني الملك الطفل نائم في مهده

ابن فاروق الأول.. نُصِبَ ملكاً على عرش مصر في ٢٦ يوليو ١٩٥٢ ولأنه كان طفلاً صغيراً تشكل مجلس وصاية عليه كان يضم الأمير «محمد عبد المنعم[١]».. و«بهي الدين بركات باشا»[٢].. والقائم مقام «رشاد مهنا»[٣].. حتى تم إعلان الجمهورية المصرية في ١٨ يونيه ١٩٥٣

وهو ابن الملك فاروق من زوجته الثانية الملكة «ناريمان»[٤].. وتحقق بمولده أمنية والده بإنجاب ولد ذكر لكي يرث العرش.. وقام بمنح الطبيب الذي أشرف على عملية الولادة لقب الباشوية..

---

(١) الأمير محمد عبد المنعم من مواليد سنة «١٨٩٩» وهو الابن الأكبر للخديوي عباس حلمي الثاني ابن الخديوي توفيق .. وُلِدَ في قصر عابدين بالقاهرة وكان ولي عهد أبيه وله قصر شهير بالمنيل.. تولى رئاسة مجلس الوصاية علي الملك أحمد فؤاد الثاني من ٢٦ يوليو ١٩٥٢ من ١٨ يونيو ١٩٥٣ عندما تم اعلان الجمهورية برئاسة محمد نجيب.. وعاش ومات في مصر في ١٩٧٩ عن ٨٠ عاماً.

(٢) بهي الدين بركات وزير زراعة سابق وابن اخت الزعيم سعد زغلول.

(٣) محمد رشاد مهنا ضابط مصري عاصر ثورة يوليو ١٩٥٢ وقال عنه اللواء محمد نجيب أنه الأب الروحى لثورة يوليو ١٩٥٢ وهو أول ضابط مصري يتخصص في الدفاع الجوى..

(٤) ناريمان حسين فهمي صادق وشهرتها الملكة ناريمان من مواليد «٣١ أكتوبر ١٩٣٣» هي الزوجة الثانية للملك فاروق الأول وكانت حينها في سن السادسة عشر حين أنجبت له ولى العهد أحمد فؤاد الثاني الذي تولى العرش بعد تنازل الملك فاروق عن العرش مجبراً تحت رغبة الجيش المصري بقيادة الضباط الاحرار.. توفيت في ١٦ فبراير ٢٠٠٥.

وبعد ميلاده دوت في ليل القاهرة طلقات المدفعية إعلانًا عن مولد أول طفل ذكر للملك فاروق قبل موعد ولادته الطبيعية بشهر واحد.. وأعلنه وليًا للعهد.. وهذا ما جعل من الأمير «محمد علي» باشا توفيق يبكي بعد أن سمع طلقات المدفع وعرف أن عرش مصر ذهب بعيداً عنه بعد أن كان وليًا للعهد منذ تولي فاروق الحكم.

كما إن الأمير محمد عبد المنعم شعر بنفس المشاعر خصوصًا إنه كان يُعتبر الثالث في ترتيب العرش بسبب السن حيث كان حينها بالثانية والخمسين من العمر.. بينما كان محمد علي باشا توفيق بعمر الخامسة والسبعين.

وبعد عشرة أيام من مولده اندلعت أحداث القناة وذلك من خلال مواجهات شرسة بين القوات البريطانية ورجال الشرطة المصريين في الإسماعيلية.. وفي اليوم التالي اندلع «حريق القاهرة»[1].. وبعد خمسة شهور فقط من مولده قامت ثورة يوليو والتي أدت إلى خلع والده الملك فاروق.

---

(١) حريق القاهرة هو حريق كبير اندلع في ٢٦ يناير ١٩٥٢ في يوم واحد في عدة منشأت في القاهرة.. وفي ساعات قلائل التهمت النار نحو ٧٠٠ محل وسينما وكازينو وفندق ومكتب ونادٍ في شوارع وميادين وسط المدينة.. ففي الفترة ما بين الساعة الثانية عشرة والنصف ظهرًا والساعة الحادية عشرة مساءً التهمت النار نحو ٣٠٠ محل بينها أكبر وأشهر المحلات التجارية في مصر مثل شيكوريل وعمر أفندي وصالون فيردي.. و ٣٠ مكتبًا لشركات كبرى.. و١١٧ مكتب أعمال وشققاً سكنية.. و١٣ فندقًا كبيرًا منها: شبرد.. ومتروبوليتان وفيكتوريا.. و٤٠ دار سينما بينها ريفولي وراديو ومترو وديانا وميامي.. و ٨ محلات ومعارض كبرى للسيارات.. و ١٠ متاجر للسلاح.. و ٧٣ مقهى ومطعمًا وصالة منها جروبي والأمريكين.. و ٩٢ حانة.. و ١٦ ناديًا. وقد أسفرت حوادث ذلك اليوم عن مقتل ٢٦ شخصًا.. وبلغ عدد المصابين بالحروق والكسور المئات.كما أدت إلى تشريد عدة آلاف من العاملين في المنشآت التي احترقت.. وقد أجمعت المصادر الرسمية وشهود العيان على أن الحادث كان مُدبرًا وأن المجموعات التي قامت بتنفيذه كانت على مستوى عالٍ من التدريب والمهارة.. وأنهم كانوا على درجة عالية من الدقة والسرعة في تنفيذ العمليات التي كُلفوا بها.. كما كانوا يحملون معهم أدوات لفتح الأبواب المغلقة ومواقد إستيلين لصهر الحواجز الصلبة على النوافذ والأبواب.. وقد استخدموا نحو ٣٠ سيارة لتنفيذ عملياتهم في وقت قياسي.. كما أن اختيار التوقيت يُعد دليلاً آخر على مدى دقة التنظيم والتخطيط لتلك العمليات.. فقد اختارت هذه العناصر بعد ظهر يوم السبت حيث تكون المكاتب والمحلات الكبرى مغلقة بمناسبة عطلة نهاية الأسبوع.. وتكون دور السينما مغلقة بعد الحفلة الصباحية.

ملك على الورق

تنازل له والده الملك فاروق عن العرش تحت ضغط الضباط الأحرار قادة ثورة يوليو.. وكان ذلك بعد قيام الثورة بثلاثة أيام فقط.. أى في ٢٦ يوليو ١٩٥ وغادر مصر بصحبة والده مصر إلى إيطاليا على متن يخت المحروسة..

وشكلت لجنة الوصاية على العرش المكونة من الأمير محمد عبد المنعم وبهي الدين باشا بركات والقائمقام رشاد مهنا وذلك إلى تاريخ إعلان الجمهورية في ١٨ يونيو ١٩٥٣.

عاش مع أخواته الثلاث في سويسرا.. وتلقى تعليمه الابتدائي في إحدى المدرسة العامة هناك.. وحصل على شهادة الثانوية الفرنسية من مؤسسة روزي في سويسرا.. أكمل بعدها دراسته الجامعية في جامعة جنيف في تخصص العلوم السياسية والاقتصاد.. وانتقل بعد زواجه إلى العاصمة الفرنسية باريس وعمل مستشارًا ماليًا واقتصاديًا لعدة شركات فرنسية وأجنبية.

بعد وصوله للحكم قام الرئيس المصري محمد أنور السادات بإعادة جوازات السفر المصرية له ولعائلته بعد أن نزعت عنهم الجنسية المصرية لفترة طويلة.. وهكذا تمكن من زيارة مصر بعدها مرات عديدة.

تزوج من فرنسية يهودية الأصل تُدعى «دومينيك فرانس بيكار».. وبعد زواجها منه اعتنقت الإسلام.. ولُقبت بالملكة فضيلة.. وأنجبت له ابنه الأكبر الذي أسماه على اسم جده الكبير «محمد علي» وتمت ولادته في القاهرة عام ١٩٧٩ بناء على طلب خاص من «أحمد فؤاد» وافق عليه وقتها فوراً الرئيس محمد أنور السادات.. وجاء هو وزوجته وتمت ولادة الابن في إحدى مستشفيات القاهرة..

ثم أنجب بعده ابنتيه فوزية في موناكو عام ١٩٨٢ ..

ثم فخر الدين ووُلِدَ عام ١٩٨٧ في الدار البيضاء بالمغرب بدعوة شخصية من ملك المغرب «الحسن الثاني»[1].

وبعد أن دبت الخلافات بينه وبين زوجته أصدرت محكمة سويسرية حكمًا بطلاقهما في ٩ مايو ٢٠٠٦ إلا أن فضيلة استئنفت الحكم وطالبت ببطلان حكم الطلاق.. ورفضت محكمة الاستئناف السويسرية الطلب.. وأكد ذلك قرار المحكمة الفيدرالية الذي صدر في ١٦ يوليو ٢٠٠٧ وفي ١٨ أغسطس ٢٠٠٨ صدر القرار النهائي للطلاق حيث تم تأكيده أصبح ملزمًا.



(١) الحسن بن محمد بن يوسف بن الحسن أو الحسن الثاني «٩ يوليو ١٩٢٩ - ٢٣ يوليو ١٩٩٩» هو ملك المملكة المغربية تمتد جذوره للأسرة العلوية بمصر.. حكم المغرب بين ١٩٦١ و١٩٩٩ وساهم رفقة والده الملك محمد الخامس في تحرير المغرب من الاحتلال الفرنسي حيث عُرِفَ بحنكته ودهائه السياسي منذ ريعان شبابه.

فروع أسرة «محمد علي».. وماذا تبقى منها

بعد قيام ثورة يوليو تم سحب الجنسية المصرية من كثيرٍ من أبناء الأسرة العلوية.. وسافر معظمهم إلى خارج مصر.. وأقاموا في مختلف دول العالم خاصةً الدول الأوروبية... وفي عهد الرئيس الراحل أنور السادات أُعيدت الجنسية المصرية لكثيرٍ منهم..

فرع «طوسون»



ومن الفروع الكبيرة في أسرة «محمد علي» هو فرع ««طوسون»» الشهير.. وهناك فرع الأمير «طوسون» باشا.. وهو ابن «محمد علي» واندثر هذا الفرع مبكراً جداً قبل بداية القرن العشرين..

وهناك فرع آخر لبيت ««طوسون»» وهو فرع الأمير «محمد «طوسون»» حفيد «محمد علي» باشا.. وابن الخديو سعيد والي مصر..

وهذا الفرع قدم خدمات جليلة لمصر.. بعدما تبرعت الأميرة فاطمة بحُليها وبمجوهراتها لإنشاء ال مسجدة الأهلية في مصر والتي أصبحت فيما بعد تحمل اسم مسجدة القاهرة.. كما أن أحدهم أيضاً تبرع بقصره الذي أصبح مسجد «أون» في البداية ثم فيما بعد حملت اسم «عين شمس».. ويلاحظ أن كثيراً من القصور الملكية الخاصة بأسرة «محمد علي» تحولت فيما بعد إلى مسجدات ومدارس ومعاهد ومتاحف..

والـذي تبقـي مـن هـذا الفـرع ويعـيش في مصـر هـم النـبلاء «محمـد حسـين «طوسـون»» وفي بـاريس «حسـن سـعيد «طوسـون» وشـقيقه «عزيـز».. كمـا يعـيش معهم في باريس ابنة عمهم النبيلة «ملك بيير «طوسون» وابن عمهـم النبيل «توفيق محمد «طوسون».

وفي باريس يعيش النبيل «محمد حسن «طوسون» مع ابنتيه كريمة وياسمين.. ويأتي لزيارة القاهرة من حينٍ لآخر..

فرع داود

وهذا الفرع يعود نسبه إلي إسماعيل داود ابن «محمد علي» باشا الصغير.. وهو أصغر أبناء «محمد علي» باشا ولم يتبق من هذا الفرع إلا «إسماعيل داود» وهو ابن النبيل عبدالعزيز عزت.. والذي توفي منذ سنوات طويلة إثر سكتة قلبية..

وهـذا الفـرع يعـيش أفـراده في الزمالـك.. في هـدوء شـديد ويتميـز أفـراده بـأنهم أكثر أفراد أسرة «محمد علي» تواضعاً وهدوءاً.. ويحظون بحب الجميع حتي بما فيهم أقاربهم من أسرة «محمد علي» نفسها.

فرع حليم

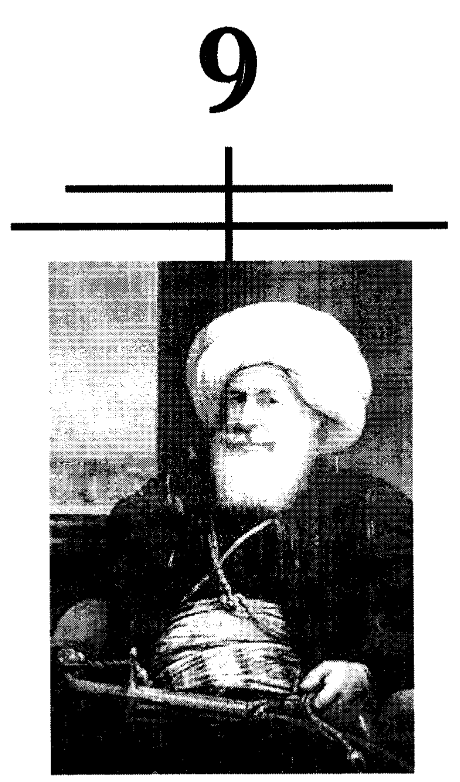
ينتمي لفرع محمد عبدالحليم باشا أحد أبناء «محمد علي» باشا الكبير.. والـذي أنجب ابنـا وابنـة واحـدة.. وآخـر الرجـال في هـذا الفـرع هـو «محمـد علـي» حليم» ويعيش في باريس ولم يتزوج ولم ينجب..

ومـن النبيلات المتبقيات من هـذا الفـرع أوليفيا حليم.. وبكيزة حليم.. وفادية حليم.. ويعشن جميعاً في القاهرة..

وهكذا انتهت مرحلة حكم أسرة «محمد علي باشا»..

❖❖❖

9



(الدين) سر الأسرار في أسرة محمد علي؟

D A Y S OF M O H A M M E D A L I

البعد الدينى في تكوين أسرة محمد علي يمثل أحد أهم ألغاز هذه الأسرة..

فمؤسسها (محمد علي باشا) كما استعرضنا ورأينا في الفصول السابقة كان شديد الاهتمام بمظاهر الدين الإسلامي.. ولمُ يُعرف عنه استهانته به إطلاقاً.. أو تجاهله لرجاله.. بل بالعكس كان يحرص باعتدال على أن يُظهر دائماً الصبغة الدينية في مراسالاته التي استعرضنا بعضاً منها.

لكن ماذا حدث لأسرته من بعده؟

لماذا رأينا كثيرين منهم على النقيض من ذلك؟

فمنهم من تنصر.. ومنهم من ارتبط كثيراً بيهود..

سؤال يطرح نفسه ونحن نقرأ من بعيد صورة وملامح تلك الأسرة ذات التأثير الشديد في بلد هي درع الإسلام الحامي.. والواقي له دوماً عبر كل تاريخه..

وإذا بدأنا بمحمد علي نفسه فماذا سنجد؟

يقول الكاتب الصحفي (محمد القدوسي) [1]:

(بين ألقاب "الأمير رينيه" أمير موناكو الراحل لقب عجيب فقد كان يحمل لقباً معناه (حامل صليب أخوية[2] محمد علي) لكننا لم نعرف لماذا يحتاج (محمد علي) وعائلته إلي "أخوية" لها "صليب" يحمله "الأمير رينيه"؟

كيف لمسلم أن تكون له (أخوية) مسيحية؟ ولماذا؟

وإذا كان "محمد علي" رأس الأسرة العلوية كانت له أخوية..

فإن آخر ملوكها وآخر أحفاد محمد علي من الحُكام الفعليين وهو (الملك فاروق) وَدَعَ الدنيا عبر كنيسة.. ففي ٢٠ من مارس ١٩٦٥ تم نقل جثمان الملك فاروق من دار حفظ الموتي بروما إلي كنيسة صغيرة.. قبل أن يُنقل إلي القاهرة..

(١) جريدة صوت الأمة عدد ١٤ نوفمبر ٢٠٠٩

(٢) الأخوية هي كنيسة صغيرة.. تشبه "الزاوية" عند المسلمين من حيث طبيعتها وموقعها بين دور العبادة المسيحية.. وكلتاهما الأخوية والزاوية صغيرة المساحة.. والمصلون فيها هم عادة أبناء عائلة أو مهنة واحدة.. وربما سكان قرية أو حي أو شارع واحد.

فهل كان مكان النهاية (الكنيسة الصغيرة) مصادفة.. أم أنه كان إشارة إلي تلك العلاقة الغامضة بين الأسرة العلوية والمسيحية؟

فاروق مات مسلماً[1].. لا شك في هذا.. بل ظل حريصاً حتي آخر يوم في حياته ألا يشرب الخمر.. يقول مؤلف[2] كتاب (الملف السري للملك فاروق) عن وجبة فاروق الأخيرة أنه: (أكل دستة من المحار وجراد البحر.. وشريحتين من لحم الحمل.. مع بطاطس محمرة وبقول فرنسية.. ورفض أكل الفطائر المُحلاة لأنهم كانوا قد وضعوا خموراً بها).

بعد هذه الوجبة سقط فاروق وقد احمر وجهه ويداه مرفوعتان إلي حلقه.. ولم تفلح محاولات إسعافه.. وكانت الكنيسة الصغيرة في روما هي محطته الأخيرة قبل أن يُنقل الجثمان إلي مصر.. فهل كانت مصادفة بحتة.. أم أنها إشارة إلي (علاقة ما) يشوبها الغموض بين أسرة محمد علي وبين المسيحية..

بين الإعلان.. والكتمان

إذا كان معروفاً أن عددا من أبناء هذه الأسرة أعلن تحوله إلي المسيحية.. فالسؤال هو: هل هناك من تحول إليها دون أن يُعلن عن ذلك؟

هل كانت هناك "مسيحية سرية" بين أفراد أسرة "محمد علي"؟

سؤال عجيب.. ربما.. لكن هناك ما يستدعي طرحه لا لنصل إلي إجابة ولو وجدناها لكان حدثاً رائعاً وفريداً بل لنتحرر من عبء الهواجس والوساوس التي تكمن بين عبارات المؤرخين.. وربما يجدر بنا أن نطرح السؤال..

من حقائق التاريخ التي تفتح باب الوساوس أن (فتحية) شقيقة الملك (فاروق) تزوجت (رياض غالي) وهو مسيحي مصري في ٢٥ إبريل١٩٥٠ مستهينة بلقبها الملكي الذي جردها شقيقها الملك منه.. فلم تعد أميرة وصادر ثروتها أيضاً.

---

(١) الكلام هنا ولآخر الفصل ما زال للكاتب محمد القدوسي.. ولكننا نقله عنه بتصرف.

(٢) المؤلف يُدعى (هيوج ماكليف).

وكانت مغرمة تماماً برجل كان مجرد موظف بالسفارة المصرية بمارسيليا في فرنسا.. هو الرجل نفسه الذي استولي على ثروتها.. وعندما طالبته برد بعض ما نهبه.. أنهي حياتها بست رصاصات من مسدسه.

ولم تكن (فتحية) التي أطلق عليها فاروق هي الأميرة المتمردة الوحيدة.. فمعها وقبلها كانت أمها (نازلي) التي شجعتها على هذه الزيجة.. وانتقلت لتعيش معها في (لوس أنجلوس).. ما دفع فاروق إلي رفع اسمها الذي كان قد أُطلِقَ من قبلها على أحد شوارع القاهرة.. كما حجر علي أموالها.. واستهترت (نازلي) بكل ما فعله ابنها ولم تبالي به.. فهل كانت "الملكة الأم" تقرأ الغيب وتعرف أن عمر الأسرة العلوية في مصر بات قصيراً ولهذا تعاملت مع ابنها بصفته (الملك السابق) قبل أن يصبح (سابقاً) بعامين وثلاثة أشهر؟

مشاكل نازلي

نازلي هي الأرملة الطروب التي نافست المطربة "أسمهان" على قلب "أحمد حسنين باشا" رئيس ديوان زوجها الراحل "الملك فؤاد" وابنها "الملك فاروق".. وقال عنها "محمد أمين فهيم" إنها عاشت ١٧ عاماً في ثلاجة - يقصد عشرتها مع الملك فؤاد والد فاروق - و٥٠ عاماً مع خمسة رجال.. هم: سعيد زغلول ابن أخت الزعيم سعد زغلول.. والملك فؤاد.. وعمر فتحي كبير ياوران الملك.. وأحمد حسنين باشا.. ورياض غالي الذي تزوج ابنتها..

وهي الزوجة الملكية التي هربت ليلة عقد قرانها سنة ١٩١٩ وكان عمرها ٢٥ سنة.. أي كانت شابة ناضجة وباتت عند قريب لها كانت متيمة به.. هو (شاهين شريف).. فهل كان تشجيعها لابنتها على الاقتران بـ"رياض غالي" مجرد استكمال لسيرتها التي يصعب جداً وصفها بالاستقامة.

نازلي تفسد بناتها

ولم تكن (فتحية) هي الوحيدة التي أفسدتها (نازلي).. فالأميرة (فايزة) أيضاً تزوجت وعمرها ٤١ سنة من المليونير الأمريكي (آرثر كاميرون) وكان في

الستين من عمره.. وما لبث العجوز أن مات.. لتتضم "فايزة" إلى أمها "نازلي" وشقيقتها "فتحية" وتقيم معهما غربي لوس أنجلوس.. حيث ماتت ودُفِنَت بعد صراع مع مرض "السرطان".

وكما قلنا من قبل فإن (أحمد فؤاد الثاني) ابن فاروق.. الذي يعيش في باريس منذ سفره إليها بعد إلغاء الملكية.. تزوج من اليهودية (دومينيك فرانس بيكار) التي غيرت اسمها بعد زواجها منه إلي "فضيلة".. جريا علي عادة جده وأبيه "فؤاد وفاروق" اللذين سميا البنات والزوجات بأسماء تبدأ بحرف الفاء.. وقد غير "فاروق" اسم زوجته الأولي "صافيناز ذو الفقار" لتصبح (الملكة فريدة).. لكنه تركها ليتزوج من (ناريمان) زوجته الثانية التي تزوجها في ٥ مايو ١٩٥١.

سر الزواج الغامض

ودومينيك شخصية شديدة الغموض.. وسر زواجها من (أحمد فؤاد) هو الأكثر إثارة وغموضا في حياتها.. خاصة أنها انفصلت عنه.. أو تخلت عنه وعن أبنائها الثلاثة بدون سابق إنذار أو سبب واضح.. وتردد بقوة أنها عادت إلي ديانتها "اليهودية".. وعلى كل حال فاليهود لا يعتدون كثيراً بما "يظهره" أبناء دينهم من اعتناق لأديان أخري.. ويتعاملون معهم باعتبارهم يهوداً باستمرار.. وقد أنجبت "دومينيك" عندما كانت فضيلة من أحمد فؤاد ثلاثة أبناء كما ذكرنا من قبل.. فهل ستسعي إسرائيل كما سعت من قبل مع أبناء مشاهير مصريين تحولوا عن اليهودية إلي ضم الثلاثة إليها ومنحهم جنسيتها؟

وفي منتصف السبعينيات تردد بقوة عن أن الرئيس "السادات" يمكن أن يعيد الملكية إلى مصر.. علي غرار ما فعله (الجنرال فرانك) الذي أعاد الملكية إلي أسبانيا.. في تلك الحقبة منتصف السبعينيات وجاء بالملك (خوان كارلوس)[1]

(١) خوان الأول ملك إسبانيا اعتباراً من تاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٧٥.. وُلِدَ في (٥ يناير سنة ١٩٣٨) بروما أثناء إقامة عائلته الملكية هناك بعد أن غادرت إسبانيا عند إعلان الجمهورية بها عام ١٩٣١ وهو ينحدر نسبه من أسرة بوربون الملكية... زار إسبانيا للمرة الأولي وهو في عامه العاشر.. وفي عام ١٩٥٥ بدأ دراسته الأكاديمية في

ليجلسه على عرش آبائه.. فهل كان حلم "عرش مصر" أو عرش يوسف «عليه السلام» كما يقول اليهود يراود "دومينيك"؟ هل كانت تحاول كتابة سفر جديد على طريقة (سفر إستر)[1] المعروف في التوراة؟

فاروق وكاميليا اليهودية



الكلية العسكرية ليتأهل كطيار عسكري في عام ١٩٦٠. وفي عام ١٩٦١ التحق في جامعة Complutense في مدريد لاستكمال دراسته الجامعية في القانون.. في عام ١٩٦٩ بدأت سلسلة النشاطات الرسمية بعد انخراطه بمكتب رئيس الدولة آنذاك.. وبدأ خلالها جولاته السياسية لعدد من الدول الأجنبية مثل فرنسا وألمانيا والولايات المتحدة والصين والهند.. في ٢٢ نوفمبر ١٩٧٥ نُصِبَ ملكًا لإسبانيا بعد موت الجنرال فرانسيسكو فرانكو حاكم إسبانيا.. وفي رسالته الأولى إلى الأمة طرح أفكاره الداعية لإعادة الديمقراطية للبلاد.. وفي ١٤ مايو ١٩٦٢ تزوج من الأميرة صوفيا (الملكة صوفيا بعد توليه العرش) وهي الابنة الكبرى للملك باول الأول ملك اليونان.. وأنجبا :الأميرة إيلينا (مواليد ١٩٦٣).

(١) يشير سفر (إستر) إلى مفهوم يهودي قومي.. يعود فيه الحوار وسياق روايته إلى القرن الخامس قبل الميلاد وهو بإسقاطاته يشكل مركز الثقل في تعاطي اليهود مع الأغيار (الجوييم) وفيه (هامان) ويمثل القوى التي تكره اليهود .. و(إستر ومردخاي): يمثلان المجتمع اليهودي.. و(أحشفيروش) ويمثل القوة الأجنبية التي يمكن أن يستخدمها اليهود لتحقيق أهدافهم النهائية.. وفيه استطاعت إستر أن تسقي أحشفيروش الخمر وتسكره.. وبالتالي نسي مسؤولياته تجاه شعبه.. ثم تحصل إستر على خاتمه لتصدر مرسوماً تحكم فيه على هامان بالموت وليصبح اليهود ظافرين بذبح عشرات الآلاف من الفرس (إستر ٩ : ٥ : ١٧). .

هل كانت "دومينيك" تحاول أن "تضع قدمها في حذاء" الممثلة (ليليان كوهين)[1] المعروفة باسم كاميليا.. وتنجح فيما فشلت فيه نجمة الإغراء اليهودية التي فتنت الملك فاروق؟

بدأت علاقة فاروق بكاميليا في ١٩٤٦ وكان عمرها ١٦ سنة.. وهكذا سارت الأمور: قابلها وهي بصحبة منتج سينمائي في (أوبرج الأهرام).. فأعجبته.. فدعاها إلى قصر عابدين.. وفي القصر غنت له أغاني يهودية.. ورقصت.. وبكت.. وضحكت.. وتظاهرت بأنه يعلمها حيل الحب بينما كانت في الواقع تقود خطاه المتلعثمة.

ومن الخلوة في قصر عابدين إلي خلوة أخري غير شرعية في قبرص.. حيث اصطحبها فاروق.. أو اصطحبته هي في الواقع قائلة إنها تريد أن تزور منزلاً تمتلكه عائلتها هناك.. لكنه لم يكن أكثر من (كوخ).. نسيت (كاميليا) أمره تماماً ولم تفكر ولو في المرور به.. غارقة لأيام معدودات في (الجناح الملكي) الذي نزلت فيه مع (فاروق).. قبل أن يتهمها الملك بأنها سربت خبر خلوتهما الذي نشرته صحيفة قاهرية.. ويترك لها رسالة تقول (اضطررت للرحيل) مع خمسين جنيها لا غير تركها لتدبر أمرها بها.

وعندما هرعت "كاميليا" إلي الميناء الذي سبق أن رست عليه بأحلامها وحقائبها.. اكتشفت أن فاروق رحل قبل ساعات على اليخت الملكي نفسه الذي وصلا به إلي قبرص.. اليخت (فخر البحار).

---

(١) كاميليا ممثلة مصرية راحلة.. اشتهرت في أواسط الأربعينيات لتصبح أكثر نجمات السينما المصرية تألقا وأعلاهن أجراً.. اسمها الحقيقي (ليليان فيكتور كوهين) وقد ولدت في ١٢ ديسمبر ١٩٢٩ في الإسكندرية لوالدين مسيحيين.. لكن تبناها زوج أمها اليهودي الديانة حيث حملت اسمه.. كانت تتردد على حفلات الصفوة الإسكندرانية.. وكانت تحوم حولها الكثير من الشائعات والشكوك.. توفيت الفنانة كاميليا في حادث طائرة كانت تستقلها متجهة إلى فرنسا.. حيث سقطت الطائرة في الحقول بالبحيرة شمال غرب القاهرة في ٣١ أغسطس ١٩٥٠.

لم يعد فاروق إلي مصر.. بل اتجه إلي ميناء (مرسين) التركي.. وبقي فيه غير مبال ببرقيات الحكومة والقصر قصره التي كانت حروفها شفاها تقبل يديه وتطالبه بالعودة فوراً.. لأن فضيحة كاميليا تتفاعل.. والإنجليز يحسبونه في (مرسين) لعقد حلف مع تركيا.. والأحوال تتدهور بسرعة..

ومزق فاروق البرقيات كلها.. إلا برقية واحدة كانت لها شفتان غليظتان.. برقية من كاميليا تقول (سوف انتحر إذا لم تعد) وعاد حباً وخوفاً من الفضيحة ليسترضيها ويشتري لها (فيلا)حقيقية.



الأميرة فاطمة طوسون

وحين قرر الملك العودة كانت هناك أزمة وزارية تنتظره في القاهرة.. وأزمة أكبر معه على اليخت اسمها (كاميليا).. لكنه تجاهل الأزمتين معاً.. الأزمة الوزارية وكاميليا التى هجرها بعدها عاماً كاملاً.. وكان عندما يشعر بالحنين إليها يطلبها علي الهاتف.. لتحضر إليه في قصر عابدين.. كان يحدثها وهي شاردة.. ولم يفهم سر شرودها إلا عندما غادر الحجرة تاركاً مائدة الطعام العامرة التي كان قد انتهى منها قبل وصولها مباشرة.. وانقضت (كاميليا) على بقايا الطعام.. وعاد الملك إلي الحجرة ليراها.. ويعرف أنها تعيش على (الفول).. وأنها بلا عمل ولا مال منذ هجرها.. وشبعت (كاميليا) لتثرثر مرة أخري عن علاقتها بالملك.. وتنتشر الفضيحة.. فيهجرها فاروق.. ثم يستدعيها ليسألها عن

علاقتها بمصور خطبت له.. ويتهمها بالحماقة لأنها تفضل الزواج من رجل تافه على أن تكون خليلة للملك.. وعادت "المياه إلي مجاريها" بينما كانت حرب فلسطين بين العرب وقائدهم الملك فاروق ملك مصر والسودان واليهود.. الذين شاع أن "كاميليا" جاسوسة لهم.. وقيل إنها "إستر" الجديدة.. تقدم نفسها كنظيرتها البعيدة للملك حتي يرضي عن قومها..

وحين وصل الأمر إلى اتهام صريح ومساع من السلطات المصرية للقبض علي كاميليا.. قام فاروق بطرد أحد وزرائه من شاليه مملوك له للوزير في الإسكندرية لتختبئ فيه خليلته اليهودية المتهمة بالجاسوسية لصالح الصهاينة.. فيما كان الجيش المصري يخوض الحرب ضد الصهاينة ويلقي الهزيمة علي أرض فلسطين عام ١٩٤٨!!

ولم يجد رئيس الوزراء (النقراشي)[١] بُداً من مواجهة الملك بحقيقة ما تهتف به الجماهير ضده في كل مكان.. بل بحقيقة ما سمعه الملك بأذنه من شعبه الغاضب وهو يغادر سينما (مترو) فقال النقراشي للملك:

(لقد نما إلي علمي أن عدداً من النساء اللاتي تلتقي بهن جاسوسات.. وأن اليهود يحصلون على معلومات منهن.. كما علمت أن هناك علاقة حب بينك وبين فتاة يهودية)..

وأنكر الملك.. ادعي أن علاقته بالفتاة اليهودية" انتهت.. وقال إنه يلعب القمار مع اليهود ليأخذ أموالهم.. كان كلاماً فارغاً.. لم يؤد إلى نتيجة.

---

(١) محمود فهمي النقراشي باشا هو رئيس وزراء مصري راحل.. ترأس الوزارة مرتين.. اغتيل في ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ في القاهرة.. وقيل أن القاتل ينتمي إلي النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين التي كان رئيس الوزراء قد أصدر قراراً بحلها في نوفمبر ١٩٤٨وكان القاتل وهو "عبد المجيد احمد حسن" متخفياً في زي أحد ضباط الشرطة وقام بتحية النقراشي حينما هم بركوب المصعد ثم أفرغ فيه ثلاث رصاصات في ظهره.. قيل أن وراء الجريمة النظام الخاص لجماعة الإخوان المسلمين حيث اعتُقِلَ القاتل الرئيسي والذي إعترف بقتله النقراشي لإصداره قرار حل جماعة الإخوان المسلمين.. كما تبين من التحقيقات وجود شركاء له في الجريمة.. وأصدر حسن البنا عقب هذا الحدث بياناً استنكر فيها الحادث و(تبرأ) من فاعليه تحت عنوان (ليسوا إخواناً وليسوا مسلمين).

وبعد الانسحاب المهين للقوات المصرية من فلسطين طبقاً لهدنة (رودس) ٢٤ من فبراير ١٩٤٩.. وطلاق فاروق للملكة المحبوبة من الشعب "فريدة" بناء على طلبها.. وزواج الأميرة (فاطمة طوسون)[(١)] التي كان "فاروق" يضعها على لائحته ويخطط للزواج منها من الأمير البرازيلي "دوم جوان" وصل فاروق إلى حافة الانهيار..

لكن لاحظ أولاً أن الأميرة فاطمة سليلة أسرة "محمد علي" تزوجت رجلاً مسيحيا.. ورتبت للأمر بالسفر إلى أوروبا.. وحين علم "فاروق" بالأمر اتصل بها وقد جن جنونه ليغريها بأنها ستكون "ملكة مصر" ويهددها بأنه سيجردها من لقبها وأملاكها.. لم تبال بوعده ولا بوعيده.. كانت صماء تماماً.. ومصممة على إتمام زيجتها.. وقد كان!

وفي نهاية صيف ١٩٥٠ قرر فاروق أن يسافر إلى ديوفيل بفرنسا ليلتقي سراً بجاسوسته الحسناء "كاميليا".. ومن الإسكندرية سافر فاروق إلى "مارسيليا" التي لم تكن قد تعافت بعد من آثار الحرب العالمية الثانية.. فكان طبيعياً أن تتصدر أخبار إسرافه المستفزة الصفحات الأولى.. وفي ديوفيل خسر في انتظار كاميليا ٥٥ ألف جنيه مصري[(٢)] على مائدة القمار في ليلة واحدة.. وحسب الترتيب المتفق عليه كان على "كاميليا" أن تسافر إلى سويسرا بالطائرة.. وتستقل سيارة فاروق الخاصة التي أرسلها بسائقها من "جنيف" إلى "ديوفيل".. وفي اليوم المحدد للوصول اتصل سكرتير "مولانا الملك فاروق المعظم ملك مصر والسودان" بمليكه ليخبره أن الطائرة التي أقلعت بكاميليا لم تغادر مصر.. فقد

(١) كانت النبيلة فاطمة طوسون بارعة الجمال وهي ابنة النبيل عمر طوسون وتنحدر من فرع طوسون من العائلة العلوية وقد كثرت حولها الأقاويل والشائعات من بينها أنها عشيقة الملك فاروق خلال زواجها هي وزواجه هو من الملكة فريدة.. بل وتمادت الشائعات لتؤكد أنها أنجبت من فاروق ابنة سرية وأنه ذهب لزياتها في وجود زوجها بعض أن وضعت ابنته السرية وأن فاروق رفض الاعتراف بها.. وهذا كله كان محض افتراء فقد تعرف الملك فاروق عليها في إحدى حفلات الأميرة شويكار ولكن كان فاروق وقتها في بداية زواجه من الملكة فريدة ولم تكن علاقته بها سيئة بل كان يُكنُ لها حباً عظيماً.. فقط أبدى فاروق في الحفل إعجابه الشديد بجمالها.. واختصها بالرقص معها.

(٢) ما يعادل الملايين بحسابات اليوم.

سقطت وتحطمت بالقرب من القاهرة[1].. ومعها احترقت "كاميليا".. ومات كل ركابها.. وكانوا ٥٥ راكباً.

وهكذا انتهت مغامرة اليهودية الطموح.. الجاسوسة الحسناء.. نجمة الإغراء.. ليليان كوهين.. خليلة الملك المعروفة باسم الممثلة "كاميليا"..

انتهت المغامرة وأصبحت صاحبتها ربما ذكري غير طيبة.. ربما تنهد الكثيرون ارتياحاً.. وربما كانت (دومينيك فرانس بيكار) قد حاولت أن تنجح فيما لم تنجح فيه خليلة والد زوجها.. وحين اكتشفت أن الأمير السابق.. والملك تحت الوصاية السابق أيضاً الذي تزوجته لن يصبح ملكاً أبداً.. وأن "السادات" رحل في حادث المنصة الشهير من دون أن يكرر مشروع "فرانكو".. وبالتالي فإن "أحمد فؤاد" لن يصبح "خوان كارلوس" الجديد فضلت الانسحاب متخلية عن بيتها.. وزوجها.. وأبنائها الثلاثة.. قبل أن يقع بينهما الطلاق بعد ذلك في ولاية الرئيس "مبارك" وتعود إلي ديانتها الأولي كما تردد.

هذا من جانبها.. أما جانب أحمد فؤاد فيبقي ملفوفاً بالغموض الخالص.. وليس هناك ما يفسر اختياره لـ"دومينيك" لتصبح "فضيلة" من بين كل نساء أوروبا العرب والعجم.

ومازال السؤال حول علاقة أسرة "محمد علي" بالمسيحية.. بلا إجابة.



(١) تحديداً فوق سماء الدلنجات بمحافظة البحيرة.

خاتمة

هل نستطيع تكرار التجربة؟

ونعود للسؤال الذي طرحناه في مقدمة الكتاب.. وأرجأنا الإجابة عنه للخاتمة.. عاد ليفرض نفسه علينا من جديد.. وهو

هل نستطيع اليوم إعادة تكرار تجربة «محمد علي»؟

بدايةً نقول أنه لا شك توجد هناك بعض ملامح التشابه بين الفترة التاريخية التي عاش فيها محمد علي وحقق تجربته.. وهي الفترة التي شهدت بدايات التطور الصناعي الأوروبي.. والفترة التي نعيشها حالياً.. والتي تشهد تغيراً حضارياً يتمثل في العولمة وثورة الاتصالات والمعلومات.

وهنا لا بد أن نضيف بعداً آخر للتجربة يتمثل في فترة حكم أحد أحفاده وهو:

«الخديوي اسماعيل»



انقضى عصر «محمد علي» ومن بعده ابنه «إبراهيم» ووُطِدَت دعائم الدولة المصرية المستقلة.. ووُضِعَت البنية الأساسية للتعليم والنهضة العلمية والاقتصادية.. لكن جاء عهد عباس الأول «١٨٤٩ / ١٨٥٤» ليحدث انتكاس لكل هذا.. حيث توقفت حركة التقدم.. وفي عهد سعيد «١٨٥٤ / ١٨٦٣» شهدت مصر بدايات التدخل الأجنبي في شؤونها الداخلية.. بعد أن أقر حفر قناة السويس بواسطة شركة أوروبية.. وبداية عهد القروض الأجنبية التي أدت إلى كثير من الكوارث.

ثم جاء عصر إسماعيل «١٨٦٣/١٨٧٩» خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر ليشهد مرحلة جديدة من النهضة رغم الأخطاء التي أدت إلى التدخل الأجنبي في شؤون مصر المالية والسياسية.

والخديوي إسماعيل هو بن «إبراهيم باشا» بن محمد علي باشا.. وُلِدَ في «٣١ ديسمبر ١٨٣٠».. وتوفي في «٢ مارس ١٨٩٥».. وهو خامس حكام مصر من الأسرة العلوية.. ولكن كان من أكثرهم تميزاً.. حكم مصر خلال الفترة من ١٨ يناير ١٨٦٣ إلى أن خلعته إنجلترا عن العرش في ٢٦ يونيو ١٨٧٩ وخلال فترة حكمه أعطى مصر دفعة قوية للحاق بركب الحضارة خاصةً في جانبها الأوروبي المعاصر آنذاك.

وكان إسماعيل هو الابن الأوسط بين ثلاثة أبناء لـ«إبراهيم باشا».. وبعد تعلمه في باريس عاد إلى مصر وأصبح وريثًا شرعيًا للعرش بعد وفاة أخيه الأكبر محمد سعيد باشا في ١٨ يناير ١٨٦٣ الذي كان يتعمد دائماً إبعاد أخيه عن مصر ضمانًا لسلامته الشخصية وذلك بإيفاده في مهمات عديدة أبرزها إلى البابا وإلى الإمبراطور نابليون الثالث وسلطان تركيا.

ثم أرسله في جيش تعداده ١٤ ألف مقاتل إلى السودان وعاد بعد أن نجح في تهدئة الأوضاع هناك.

وفي ١٨٦٦ حصل إسماعيل باشا علي لقب خديوي من السلطان العثماني بموجب فرمان خاص مقابل زيادة في الجزية المفروضة على مصر.. وتم بموجب هذا الفرمان أيضاً تعديل طريقة نقل الحكم لتصبح بالوراثه لأكبر أبناء الخديوي سنًا.

كما حصل عام ١٨٧٣ على فرمان آخر يتيح له استقلالاً أكبر عن الدولة العثمانية وعُرِفَ بالفرمان الشامل.. وكان يمنحه حق التصرف بحرية تامة في شئون الدولة ما عدا عقد المعاهدات السياسة وعدم حق التمثيل الدبلوماسي وعدم صناعة المدرعات الحربية مع الالتزام بدفع الجزية السنوية.

امتد نفوذ الإدارة المصرية في عهده على طول ساحل البحر الأحمر الغربي وبعض أجزاء من بلاد الصومال.

على درب جده.. يسير

وفي عهده تمت العديد من الإصلاحات تتمثل فيما يلي:

- أتاح للشعب اختيار ممثليه في المجالس النيابية..
- قام بتحويل مجلس المشورة الذي أسسه جده محمد علي باشا إلى مجلس شورى النواب.. وافتتحت أولى جلساته في ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦..
- قام بتحويل الدواوين إلى نظارات..
- وضع تنظيم إداري للبلاد..
- أنشأ مجالس محلية منتخبة للمعاونة في إدارة الدولة..
- أصبح للمجالس المحلية حق النظر في الدعاوي الجنائية والمدنية وانحصر اختصاص المحاكم الشرعية في النظر في الأحوال الشخصية..
- ألغى المحاكم القنصلية واستبدلها بالمحاكم المختلطة..
- تم الانتهاء من حفر قناة السويس وإقامة احتفالاتها..
- أنشأ قصور فخمة مثل قصر عابدين وقصر رأس التين وقصر القبة..
- أنشأ دار الأوبرا الخديوية..
- أنشأ كوبري قصر النيل..
- بدأ استخدام البرق والبريد..
- عمل على تطوير السكك الحديدية..
- أضاء الشوارع ومد أنابيب المياه..
- عمل على زيادة مساحة الأراضي الزراعية..
- حفر ترعة الإبراهيمية في صعيد مصر..
- وترعة الإسماعيلية في شرق الدلتا..
- أنشأ العديد من المصانع من بينها ١٩ مصنعًا للسكر..
- قام بإصلاح مينائى السويس وميناء الإسكندرية..
- بنى ١٥ منارة في البحرين الأحمر والمتوسط لإنعاش التجارة..
- قام بإنشاء أول مدرسة لتعليم الفتيات في مصر.. وهي مدرسة السنية..

- أنشأ دار العلوم لتخريج المعلمين..
- أنشأ دار الكتب..
- أنشأ الجمعية الجغرافية ودار الآثار..
- ولأول مرة تعرف مصر ظهور الصحف الأهلية مثل الأهرام والوطن ومجلة روضة..

اهتم إسماعيل بإعادة تنظيم الجيش وإنهاض البحرية وإقامة العمران في مختلف المجالات.. وبعث النهضة العلمية والفكرية بإنشاء المدارس والمعاهد وتأسيس الجمعيات العلمية وتشجيع التأليف والصحافة ورعاية العلوم والآداب والفنون.

وواصل إسماعيل إرسال البعثات إلى البلدان الغربية المتقدمة من جديد.. وبدأ يوفد الطلبة منذ عام ١٨٦٣ الذين بلغ عددهم ١٧٢ طالباً.. واستمر جني ثمار البعثات العلمية على هيئة مزيد من تطوير التعليم ومزيد من العمران.

تولى إسماعيل الحكم ومعظم المدارس التي أنشأها «محمد علي» مُغلقة.. لم يكن قد تبقى منها سوى مدرسة الطب والصيدلة ومدرسة الولادة ومدرسة حربية وأخرى ثانوية ومدرسة ابتدائية ومدرسة البحرية في الإسكندرية.. وبدأت نهضة جديدة في عصره في مجالات التعليم.. فبالإضافة إلى تأسيس مدارس حربية أسس عدة مدارس عليا منها مدرسة الري والعمارة «المهندسخانة» في العباسية عام ١٨٦٦.. مدرسة الحقوق عام ١٨٦٨ مدرسة دار العلوم ١٨٧٢ لتخريج أساتذة لغة عربية للمدارس الابتدائية والثانوية تم اختيار طلابها من المتفوقين من تلاميذ الأزهر.

وارتقت مدرسة الطب في عصر إسماعيل.. الذي شهد أيضاً إنشاء مدارس للبنات وعدد من المدارس الصناعية والمدارس الخاصة والمدارس الأوروبية.. وكان قائد النهضة التعليمية في عصر إسماعيل هو «علي باشا مبارك» الذي أسس دار العلوم عام ١٨٧٢ ودار الكتب عام ١٨٧٠ ومعملاً للكيمياء والطبيعة في درب

الجماميز لتوسيع مدارك التلاميذ في العلوم الطبيعية واطلاعهم على تجاربها والمران على استعمال الآلات الرياضية والطبيعية.

وأعاد إسماعيل عهد البعثات العلمية إلى مدارس أوروبا ابتداء من عام ١٨٦٣ وأنشأ مدرسة لأعضاء البعثة في باريس بدل المدرسة التي أنشأها «محمد علي» لهذا الغرض وأُغلقت في أواخر عهده.. لكن المدرسة التي أنشأها إسماعيل أُغلقت بعد نشوب الحرب السبعينية(١).

كان لأفراد البعثات التي أرسلها إسماعيل إلى أوروبا أثرهم على المجتمع المصري بعد عودتهم.. فقد تأثروا بالبيئة الأوروبية أكثر من المبعوثين الذين أرسلهم «محمد علي».. لأنهم كانوا شباباً في نحو العشرين من العمر.. بينما كانت بعثات «محمد علي» أكبر سناً بكثير.. وكانت أهم الدول التي استقبلت بعثات إسماعيل فرنسا وانجلترا وإيطاليا.. وازداد عدد أفراد البعثات ازدياداً مطرداً في السنوات الأولى من حكم إسماعيل.. ثم أخذ العدد في النقصان بعد الارتباك المالي الذي حدث في السنوات الأخيرة من حكمه.

وكان ضمن ثمار البعثات العلمية والتحديث في عصر إسماعيل إنشاء عدد من الجمعيات العلمية مثل الجمعية الجغرافية الخديوية عام ١٨٧٥ الذي كان أول رئيس لها العالم الألماني «جورج شونفرت».. وجمعية «المعارف المصرية» لتشجيع البحث العلمي.. وتم أيضاً إنشاء المتحف المصري.. وظهرت الصحف العلمية والأدبية والحربية مثل مجلة «اليعسوب» الطبية عام ١٨٦٥ ومجلة «روضة المدارس» عام ١٨٧٠ لإحياء الآداب العربية ونشر المعارف الحديثة وترأسها رفاعة رافع الطهطاوي إمام البعثة الأولى في عصر «محمد علي».

وتقدمت الطباعة في عصر إسماعيل حيث أصبحت مطبعة بولاق من أكبر المطابع.

(١) نسبةً إلى عام قيامها في سنة ١٨٧٠ ونشبت بين فرنسا وألمانيا.. ومن آثارها اضطراب الأسواق في أوروبا.

واتسم عصر إسماعيل بالنهضة العلمية والأدبية بسبب انتشار التعليم في المدارس والمعاهد وظهور طائفة من العلماء والأدباء ممن تخرجوا في المدارس والبعثات.. ونشاط حركة التأليف والترجمة والنشر.. وظهرت طائفة من العلماء المؤلفين والمعربين فأنتجوا كتباً في الطب والرياضيات والتاريخ والفقه والتشريع.. وتولى أرقى المناصب الحكومية خريجون من المدارس والمعاهد والبعثات.. فكان من ثمار النهضة الارتقاء في عدد من المجالات مثل التعليم والري والهندسة والإدارة والقضاء والصحة والجيش والأسطول.

وكان إسماعيل مهتماً بتنمية ثروته الخاصة.. فقد كان يملك وحده مصنعين للنسيج بالقرب من القاهرة و٢٢ مصنعاً للسكر تبلغ طاقتها الإنتاجية ١٥٠ ألف طن سكر سنوياً.. و٤ مصانع للأسلحة ودارين لصناعة بناء السفن.

بتر التجربة وعزل إسماعيل

لكن أنىّ للقوى الاستعمارية أن تتركه ليستكمل مشواره للنهوض ببلده.. مكملاً تجربة جده.. فحاربته بريطانيا سياسياً.. وتمكنت من عزله عن الحكم.. فسافر إلى نابولي بإيطاليا.. ثم انتقل بعدها للإقامة في الآستانة.. وتوفي بها في ٢ مارس ١٨٩٥ في قصر إميرجان في إسطنبول الذي كان منفاه أو محبسه بعد إقالته.

إذن نحن أمام تجربتين.. أو تجربة واحدة على مرحلتين عاشتهما مصر في عهد «محمد علي» الجد.. والخديوي «اسماعيل» الحفيد.. ويجب أن نتخذ منهما نموذجاً إرشادياً للإجابة عن السؤال..

وعن قناعة تاريخية نقول: نعم.. نستطيع تكرار التجربة..

فكل معطياتها مازالت قابلة للتطبيق حتى في ظل الواقع المصري.. والعربي الراهن.. فقد كان التحديث في نهاية القرن التاسع عشر في مصر انتقالاً من الوضع الحرفي الفلاحي وتطويره بجلب العلوم والتقنيات الأوروبية الجديدة ونُظم الحكم في المدن وبناء جيش قوي لحماية الاستقلال..

والوضع الراهن يشهد انتقال العلم والتقنية الصناعية التقليدية إلى تسارع غير معهود في مجالات حديثة تماماً مثل الاتصالات وعلوم التكنولوجية.. وغيرها.

لكن ما ينقصنا بالفعل هو وجود سلطة لديها الرغبة على فعل ذلك.. وتطوير مجمل الأوضاع الاقتصادية والثقافية.

المارد يخرج من قمقمه

ومع تنامى ظاهرة الثورات الشعبية في مصر وكافة الدول العربية.. نستطيع القول أن المارد خرج من قمقمه.. والشعب صاحب المصلحة المباشرة في التحديث أصبح هو فرس الرهان.. لكن فرس يعلوه ويقوده «فارس الثورة» ولجامه هو «إرادة التغيير» والبداية لوضع الفرس والفارس على الطريق الصحيح.. وطريق التحديث.. لابد أن يكون دعم التعليم والبحث العلمي.. وهو مانتمنى أن نراه في المستقبل البعيد..

❖❖❖

ملحق الصور

❖❖❖



صورة لمحمد علي باشا أخذت سنة ١٨٤٠





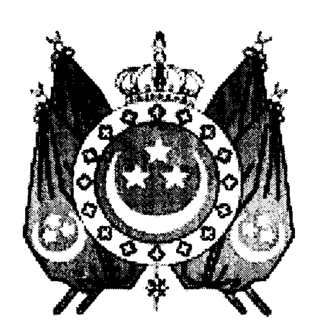
مقابلة الرسام ديفيد روبرت مع محمد علي في قصر الإسكندرية عام ١٨٣٩



محمد علي يستعرض قواته



محمد علي باشا يستعرض جيشه



علم مصر في عهد محمد علي..

وتحت هذا العلم هزمت مصر الدولة السعودية الأولى في موقعة الدرعية.. وأمنت طريق الحج.. وسيطرت على مكة والمدينة وجدة.. وهو أيضاً العلم الذي رفرف على السودان.. وشرق ليبيا.. وساحل الشام كله بما فيه الحدود المعترف بها دوايا لما يسمى بدولة إسرائيل.. وجُزر البحر المتوسط.. واليونان.. وموانيء أوروبا.. ووصل حتى إسطنبول وطرق بابها بعنف وأجبرها على تغيير الخليفة والعلم بنجومه الثلاث يرمز لانتصارات مصر في ثلاث قارات وهي أفريقيا وآسيا وأوروبا.



جامع محمد علي بالقاهرة.. مصر الشهير بالقلعة



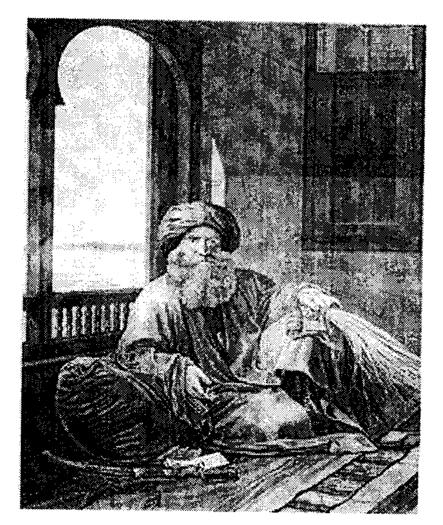
كلوت بك



سليمان باشا الفرنساوى ١٧٨٨ . ١٨٦٠



على باشا مبارك



مراد بك من كتاب وصف مصر عام ١٨٠٩



السلطان سليم الثالث







الخديو اسماعيل



الخديوي إسماعيل بن إبراهيم باشا بن محمد علي باشا (٣١ ديسمبر ١٨٣٠ . ٢ مارس ١٨٩٥)، خامس حكام مصر من الأسرة العلوية


The Khedive's Visit to England.
The Long Line
Of Egyptian Rulers



حضرت جناب العالي محمد سعيد باشا



محمد سعيد باشا بن محمد علي باشا

(١٨٢٢ ـ ١٨ يناير ١٨٦٣) الابن



الحاج عباس حلمي باشا الأول والي مصر

١٨٤٨ . ١٨٥٤



النقوش الهيروغليفية على الإفريز العلوي هو عبارة المصرية التقليدية القديمة ويصبح نصها كما يلي: ملوك مصر العليا والسفلى



الخديوي عباس حلمي الثاني خديو مصر



السلطان حسين كامل



H.H. PRINCE MOHAMED ALI

سيء الحظ الامير محمد علي توفيق ١٩٠٥

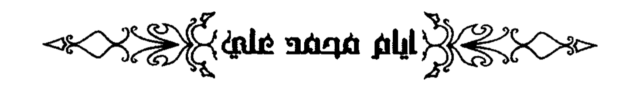


الخديوي محمد توفيق باشا





صاحب المقام العالي خديو مصر محمد توفيق وزجته سمو الأميرة أمينة هانم الهامي كريمة ابراهيم الهامي باشا ابن عباس الأول.



الفهرس